حول

الحركة العربية الحديثة

الجزء السادس

فصول
في حاضر العربية ومستقبلها ومشاكلها ومعالجاتها

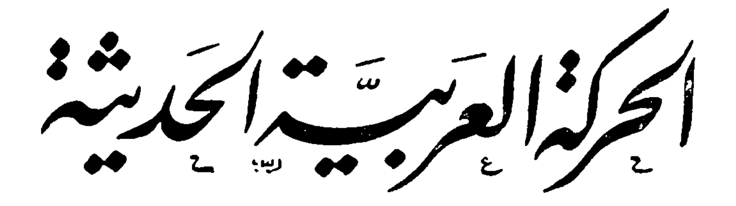
آراء ومقترحات



تأليف
محمد عزة دروزه

المطبعة العصرية للطباعة والنشر
صيدا

حول



الجزء السادس

فصول

في حاضر العربية ومستقبلها ومشاكلها ومعالجاتها

آراء ومقترحات

تأليف

محمد عزة دروزة

المطبعة المصرية للطباعة والنشر

صيدا

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الجزء تتمة السلسلة التي نشرناها حول الحركة العربية الحديثة . وقد كان من الخطة التي وضعناها ان يكون في السلسلة فصول عن سير الحركة العربية الحديثة في مصر والعراق والاردن ومواقف الانكليز منهـــا كما فعلنا بالنسبة لفلسطين والانكليز وبالنسبة لسوريه ولبنان والمغرب العربي والافرنسيين في الاجزاء الثلاثة الاولى من السلسلة .

غير أن الحرب الفلسطينية وما تقدمها وما لحقها من احـــداث ونشوء الجامعة العربية وسيرتها – وهو مـــا لم يكن حينما وضعنا تلك الخطة وكتبنا كثيراً من فصولها في هجرتنا إلى تركية ١٩٤١ – ١٩٤٥ – كادت تكون محوراً للحركة العربية الحديثة اندمج فيه جميع البلاد العربية اندماجاً تاماً من جهة وكان للانكليز وغيرهم من الدول الباغية الكبرى من المواقف ما كشف عما يبيتونه للحركة العربية الحديثة من نوايا كشفاً تاما من جهة اخرى مما الممنا به في الجزئين الرابع والخامس من السلسلة .

لذلك رأينا ان نقتصر على ما صدر من اجزاء وان نختم السلسلة بهذا الجزء في حاضر الحركة العربية والبلاد العربية ومستقبلها وقضاياها ومشاكلها ومعالجاتها مع المامة خاطفة بما صرفنا النظر عن الاسهاب فيه .

وقد توخينا فيما كتبنا الصراحـــة ، وضمناه دعوة حارة إلى ما يجب على امتنا على مختلف فئاتها وعناصرها ومؤسساتها وخاصة شبابها ان تفعله حتى تستطيع ان تتغلب على العقبات التي تقف في طريقها تعرقل سيرها السريع نحو اهداف الحركة العربية الحديثة آملين ان يكون فيما كتبناه الحق والصواب والنفع والله ولي التوفيق ولا حول ولا قوة الا به

فصول الكتاب

الفصل الأول

الوعي القومي

- ١ -

انتشار الوعي

في الجزء السابق قلنا ونحن نصف حالة الامة العربية الاليمة في مرحلتها التاريخية الحاضرة انها في تململ واضطراب ، وان هذا يعني الشعور والوعي واننا من اجل ذلك غير يائسين من رحمة الله .

ومع ان هذا الشعور والوعي ليس جديداً حيث نبهنا على وجودهما في بعض طبقات الامة العربية خلال السنوات التي اعقبت اعلان الدستور العثماني وانبعثت فيها الحركة العربية الحديثة على ما شرحناه في الجزء الاول من هذه السلسلة فانهما قد اتسعا كثيراً كمية وكيفية عما كانا عليه خلال السنين الثلاثين التي مرت بين العهدين .

والذين عاشوا في عهد الدولة العثمانية وظروف انبعاث الحركة العربية ولايزالون احياء بنوع خاص – ونحن منهم – يرون من دون ريب تطوراً قوياً اكثر من غيرهم في ذلك .

- ٢ -

كيف كان في العراق والشام وكيف غدا

فلم يكن سواد الشعب العربي حينئذ يحس بشيء من الشعور القومي الذاتي ؛ وقد كان هذا الشعور قاصراً على فريق محدود العدد من الرجال والشبان المتنورين، وكان الى جانبهم في نفس الوقت فريق كبير من الرجال والشبان المتنورين لا يشعرون به بل ويقفون من حركة الانبعاث موقف المتجهم او العدو لأنهم كانوا مندمجين في جو الدولة العثمانية وبيئتها وقد قضوا مدة طويلة في وظائفها ومختلف أقطارها حتى اصبح كثير منهم غريبا او كالغريب عن العرب والعروبة . واكثر طبقة الوجهاء والاعيان الذين اعتادوا ان يعيشوا في جو الدولة ويمارسوا الوظائف

والمناصب الحكومية الدائمة والموقتة والفخرية وغير الفخرية ويستمدوا وجاهتهم منها ، وكذلك اكثر الذين هم في عداد هؤلاء من المحافظين والتقليديين والمشايخ وخاصة ذوي المناصب من هؤلاء يقفون من حركة الانبعاث موقف المتجهم او العدو ايضا لان فكرة الخلافة الاسلامية التي كانت تتمثل في الدولة العثمانية كانت تملأ اذهانهم وفراغهم وتصرفهم عن كل تفكير قومي وذاتي وتجعلهم يرون في الدعوة الى ما يناقض ذلك شذوذاً مخالفا للدين والتقاليد والمصلحة الاسلامية

اما الآن فقد غدت الفكرة العربية والشعور بالذاتية القومية العربية في بلاد الشام والعراق شيئاً عاماً لا يكاد ينتقد في احد من سكانها ولو لم يكن متعلماً على تفاوت في المدى

- ٣ -

في مصر

وكذلك الامر في مصر ؛ فقد كان من الطبيعي ان يتجه تيار الفكرة العربية الحديثة وحركتها اليها لان العروبة فيها واضحة المعالم والظواهر ، بل تكاد تكون فيها اصفى منها في غيرها من حيث كون كثرة سكانها الساحقة مسلمة عربية اللسان سنية المذهب وليس فيها تلك الفوارق المذهبية والجنسية التي في غيرها ، فسارع الانكليز واعداء العروبة والاسلام من الاجانب والشعوبيين الذين ما تزال دماؤهم غير العربية تجري حارة في عروقهم والذين يضمرون الكراهية للعرب والحقد عليهم الى اتخاذ العدة لايجاد تيارات معاكسة ؛ فكان من جملة ذلك الدعوة التي عرفت بالدعوة الفرعونية باسم البحوث العلمية والتاريخية والقومية المصرية والتي اندمج فيها فريق من الادباء المخلصين ذوي النوايا الحسنة ، والتي رمت في الحقيقة إلى صرف نظر المصريين عن الفكرة العربية القومية حينما اخذ تيارها يجري في السنين التي أعقبت الحرب العالمية الاولى ، وارجاعه الى الوراء البعيد ، ومحاولة بث كون المصريين لا يمتون الى العرب والعربية وانما الى الفراعنة أصحاب المجد والعظمة والحضارة والعمران الزاهر الذي كان من اسس مدنيات العالم ، وكون العرب ليسوا إلا غزاة طارئين شأنهم شأن الرومان واليونان والفرس الذين غزوا مصر ، وان كل ما هنالك من فرق انهم استطاعوا ان يورثوا المصريين لغتهم ودينهم . ولقد

غذيت هذه الحملة وعوضدت على ما فيها من زيف ووهن اساس ومنطق – بمختلف الوسائل واستطاع القائمون بها ان يلفتوا اليهم الأنظار وان يثيروا حول حملتهم الجدل والكلام على امل ان يجعلوا من فكرتهم قضية لهـــا مكان في مجال القضايا القومية او على الاقل ان يوجدوا في نفوس الناس بصددها من الريب والشكوك ما يشوش على تيار الفكرة العربية ويصدم تدفقه . وقد ردفوا حملتهم هذه بحملة اخرى دعوا فيها الى اصطناع اللغة المصرية الدارجة في التعليم والادب والصحف والتمثيل والتأليف والصكوك والمراسلات الحكومية باسم سهولة نشر الثقافـــة وايجاد أدب مصري خاص ولغة مصرية خاصة وثقافة مصرية خاصة الخ ؛ كما انهم سلكوا سبلاً عديدة الى بلوغ أربهم حيث قووا من جبهة الدعاية ضد الملك حسين وأبنائه التي كان يبثها الاتراك على اعتبار انهم خانوا دولة الخلافة وكانوا السبب في انهدامها وتواطئوا مع الانكليز ، وحيث بثوا الخوف من جهة ثانية في نفوس اولي الشأن في مصر من مشكلات البلاد العربية وقضاياها وما يمكن ان يحملهم التورط فيها من أعباء فادحة ، ويجر عليهم من متاعب مضنية ، ويفتح عليهم من المعاكسات والمناوآت في حين هم في امس الحاجة الى تكثيف قواهم وجهودهم فيما هم بسبيله من قضيتهم المحلية . ولقد أثرت هذه الدسائس والوساوس تأثيراً غير قليل ، فظلت مصر في معزل عن الحركة العربية والفكرة العربية وقضايا البلاد العربية مدة غير قصيرة ، وظل رجالها الرسميون بل وزعماؤها الشعبيون كذلك في معزل حتى بلغ من أمرهم ان يظنوا ان النزاع القائم بين العرب واليهود في فلسطين نزاع طائفي ديني وان ينصح بعض البارزين منهم بأن يحل العرب واليهود مشكلة نزاعهم هذه على النمط الذي حل به المصريون مشكلة المسلمين والأقباط فانقلبوا إخواناً في ميدان السياسة والحركة الوطنية ، وان يتجهموا لنشر نداآت فلسطين ودعايتها ايام محنتها الاولى ، وان تحول سلطاتهم الرسمية دون ذلك في ظرف من الظروف ، بل بلغ من امر انعزالهم ان كان كثير من رجالهم وسياسييهم ومتنوريهم وصحافييهم لا يفرقون او لا يريدون ان يفرقوا بين مدلول الشعوب الشرقية ومتناول الحركات العربية وان يخلطوا عن عمد بين المدلولين والحركتين ، وحتى بلغ أمر تخوفهم من التورط في مشاكل قضايا البلاد العربية الى ان يشبه بعض زعمائهم البارزين هـذه القضايا بالميت الذي ليس من ورائه الا التعب والتبعات

غير ان هـــذه الحالة قد تبدلت تبدلاً عظيما . فمنذ وقت مبكر خفت صوت الفرعونية واللغة الدارجة واندحرت حملتها اندحاراً منكراً ، ومنذ وقت مبكر اخذت الاصوات العلمية تردد عروبة مصر وعلاقة مصر بها منذ القديم ، وعروبة لغة مصر الاولى بالاضافة الى ثلاثة عشر قرناً طويلة طبعت مصر بطابع خالد من العروبة ومظاهرها وتقاليدها وروحها ، وتحمل على الدعوة الى تخطي هذه القرون بل تخطي عشرة قرون اخرى معها قبلها لوصل عهد مر عليه خمسة وعشرون قرناً مع العهد الحاضر ، وتبين تناقض ذلك مع الواقع والمنطق وأحداث الدهر ، وصار يكتب حول هذه المواضيع الفصول وتلقى المحاضرات وتقوم المناظرات وتؤسس المنظمات على أشكال متنوعة منها السياسي ومنها الصحافي ومنها الادبي ومنها الثقافي (١) ، ولم تلبث هذه الحملة المضادة ان أخذت تثمر لانها مستمدة من طبيعة الحياة والواقع والشعور الكامن ومتسقة معه ، ولم يلبث التيار الايجابي العربي ان اخذ يقوى شيئاً فشيئاً مع الوقت ويجد سبيله الى مختلف الفئات والاوساط المصرية يساعده في سيره عوامل عديدة ومتنوعة الى ان غدا الشعور بالذاتية العربية القومية والاخوة العربية العامة شاملاً مع تفاوت في المدى مهما بدا ان بعض افراد من الشعوبيين واعداء العرب يشذون عن ذلك الشعور ، ومهما بدا ان هؤلاء وبعض ذوي النوايا المريبة ينتهزون فرص الأحداث والنكبات للتعكير والتعطيل . وقد دعم هذا دعماً حاسماً تبني الاحزاب السياسية والسلطات الرسمية للفكرة العربية وأهدافها وغدوّ ذلك من اسس سياسة الدولة كما هو شأنه في بلاد الشام والعراق .

– ٤ –

في لبنان

ولقد حرص الافرنسيون على ان يجعلوا لبنان ايضا بمعزل عن تيار الحركة

---

(١) من الحق ان نختص بالذكر في هذا المقام حزب مصر الفتاة الذي اسسه فريق من شباب مصر المثقف وجعلوا من منهجه الدعوة للفكرة العربية القومية ومحاربة عزل مصر عن حركتها وبيان ما في ذلك من خطأ ومناقضته للواقع والعلم والمنطق والتاريخ القديم والحديث وما في ذلك من ضرر عظيم لمصلحة مصر وكرامتها وكيانها . وقد اخذوا يبشرون بهذه الدعوة في اجتماعاتهم وخطبهم ومنشوراتهم ثم في مجلتهم ويحملون على كل من يقف في سبيلها ويغتنمون كل فرصة لاعلان التضامن مع الاقطار العربية فيما كان يقع فيها من أحداث ويلم بها من خطوب منذ وقت مبكر .

العربية الحديثة ، وكان بينهم وبين نصاراه وخاصة موارنتهم وكاثوليكهم الذين كانوا غالبية سكان بيروت ولبنان القديم روابط وثيقة ترجع الى عشرات السنين قبل انبعاث هذه الحركة استعانوا بها على تحقيق هـــذا الغرض ، وبذلوا جهودهم المتنوعة في بث المغالطات والسموم باسم البحوث العلمية والوطنية والثقافية وفي الدس بين طوائف لبنان الاسلامية والنصرانية فاستطاعوا ان ينجحوا لوقت ما في تحقيق شيء منه على ما شرحناه في الجزأين الاول والثاني من هذه السلسلة . غير ان واقعية عروبة لبنان سواء في ذلك مسلموه ونصاراه وقوة اتجاه مسلميه نحو العروبة كأثر من أثار رد الفعل لمساعي وتصرفات الافرنسيين ورجال الكهنوت ، واندماج فريق غير قليل من مثقفيهم في الحركة العربية منذ انبعاثها ، وتصرفات الافرنسيين الرعناء وانكشاف ستر المـــآرب الاستعمارية والمصالح الشخصية عن المبشرين ورجال الكهنوت كل ذلك قد هدم شيئا كثيراً من البناء الشامخ الذي بناه اولئك وهؤلاء والسور الحديدي الذي حاولوا ضربه بين لبنان وهذه الحركة . وقد بـــدأ الانهدام قبيل الحرب العالمية الثانية حيث ظهرت بوادره في مواقف وظروف عديدة ثم كاد يبلغ ذروته في انفجار عام ١٩٤٣ حينما اعمت الرعونـــة الموظفين الافرنسيين واعتقلوا رئيس الجمهورية والوزراء وعطلوا الدستور والبرلمان حيث دشن بهذا الانفجار ولادة لبنان ولادة عربية وطنية نضالية رائعة ، والتحاقه بقافلة النضال العربي في سبيل اهداف الحركة العربية على ما شرحناه في الجزء الثاني من هذه السلسلة كذلك ، وغـدا الشعور بالذاتية القومية العربية والاخوة العربية العامة شاملًا هو الآخر مهما بدا ان اثار الدسائس والوساوس والروابط والدعايات المضادة لا تزال قوية وخاصة في رؤساء الموارنة مما سوف يتكفل الزمن بمحوه من دون ريب لانه مخالف لطبيعة الاشياء وحقائق الامور والوقائع والظروف التاريخية والجغرافية والمصلحة الخاصة والعامة .

- ٥ -

في المغرب العربي

كذلك كان شأن الافرنسيين في أقطار المغرب العربي، فقد ترسموا خطة رهيبة تجردت من كل شعور بالحق والواجب والحرية والعدل والضمير والشرف والامانة

وهي تغيير وجـــه المغرب العربي المسلم ولسانه ودينه وحرمان أهله من مقومات الحياة الكريمة الحرة وابقاؤهم في أحط دركات الجهل والفقر ، وقطع كل صلة بينهم وبين المشرق العربي اولا وبين أقطارهم نفسها ثانيا . وقـــد جردوهم من أحسن أراضيهم وموارد رزقهم وأقطعوها للمهاجرين المتبطلين المتعطلين الذين فتحوا لهم أبواب هذه الاقطار على مصراعيها وأغدقوا عليهم الاموال بما فيها أموال الاوقاف الاسلامية وأموال الضرائب التي تؤخـــذ من المغاربة ، ويسروا لهم كل وسائل الاستقرار والاستعلاء والاثراء والتسلط على موارد الرزق وخزائن الأرض وحركات التجارة والصناعة بسبيل تحقيق تلك الخطة الرهيبة على ما شرحناه في الجزء الثاني من هذه السلسلة .

ولم يرض المغاربة بهذا المصير الرهيب لبلادهم ودينهم ولغتهم وعروبتهم فأخذوا يقاومونه ما وسعتهم قواهم ، وسجلوا في بعض ظروف مقاومتهم صحائف خالدة من البطولة والعزيمة وظلت هذه المقاومة ، وتصرفات الافرنسيين القاسية الباغية تمدهم بالقوة وتساعدهم على التمرد والاحتفاظ بعروبتهم ودينهم الى ان اشتد تيـار الحركة العربية الحديثة في المشرق وتمكن من أخذ سبيله اليهم شيئا فشيئا على مـا شرحناه كذلك في الجزء المذكور بحيث يمكن ان يقال إن القائمين بالحركة القومية العربية في المشرق قد التقوا بالقائمين بمثلها في المغرب ،وان الستار الحديدي الكثيف الذي ضرب بين المشرق والمغرب دون تيار هذه الحركة قد انخرق ، وان الشعور بالذاتية العربية القومية من جهة وبالاخوة العربية العامة من جهة اخرى قد اخذ يشمل سكان المغرب العربي كما شمل سكان المشرق العربي مهما بدا ان الافرنسيين مشتدون في حرصهم على الاحتفاظ بسيطرتهم والاستمرار في بغيهم فيه

ومن تحصيل الحاصل ان يقال انه لا يوجد موانع سياسية او عنصرية او دينية تجعل فرض انعدام هذا الشعور صحيحا بالنسبة لسكان جزيرة العرب نفسها شمالهـا وجنوبها وسواحلها ، بل الذي يجب ويصح فرضه ان هذا الشعور طبيعي فيهم لانه متسق مع الواقع والمنطق إطلاقاً ، فضلاً عما هو معروف يقينا من صحة هذا الفرض في كثير من انحاء الجزيرة وخاصة مدنها . وكل ما في الامر ان البواعث على اهتزاز هذا الشعور اهتزازاً يدل على وجوده دلالة مستمرة ضعيفة بسبب ظروف الجزيرة الجغرافية والثقافية والاجتماعية والسياسية .

- ٦ -

اسباب اتساع الوعي

ولقد كان للانفصال البات بـين الدولة العثمانية والبلاد العربية التي عاشت في جوها غير شاعرة بذاتيتها وكيانها الخاص او غافلة عنهما حقبة طويلة وما تبع ذلك الانفصال من الانقلاب الكمالي الذي أطـاح بالدولة العثمانية والخلافة الاسلامية وكثير من الروابط المعنوية والثقافية التي كانت تربط الترك بالعرب ، ومن غدو البلاد العربية ذات كيانات خاصة اثر غير قليل في انصراف العرب الى التفكير بذاتيتهم وقوميتهم وانتشار الشعور بذلك في مختلف طبقاتهم منذ عهد مبكر .

ثم ساعد على تقوية هذا الشعور اتساع نطاق التعلم خلال الحقبة التي مرت منذ ذلك الانفصال بحيث تضاعف اضعافا عديدة عما كان عليه حتى بلغت في بعض البلاد خمسة أضعـاف وفي بعضها عشرة أضعاف كما يستفاد من الاحصاآت التي تنشر من حين الى حين .

- ٧ -

تطور الوعي واسبابه

وقد رافق اتساع نطاق التعليم تطور في كيفيته ايضا منه ما كان نتيجة لتطور الزمن ووسائل اتصال العالم ببعضه وما كان بسبب ذلك من سعة اقتباس الاساليب والأفكار ، ومنه مـا كان نتيجة لهزات الحربين العالميتين الشديدة التي هزت العالم وجعلته يجيش بالدعوات والمبادىء والحركات والآمال والمطامح المتنوعة بما كان له أثر وتفاعل في البلاد العربية ، ومنه ما كان نتيجة للحركات الوطنية والكفاحية التي لم تكد تهدأ في البلاد العربية التي نكبت بالمستعمرين البغاة على ما كان يعتريها من أزمات وفترات ومشاكل ، ومنه ما كان نتيجة للنشاط العربي العام الذي بدا في أثناء الحرب العالمية الثانية واستمر الى ما بعدها والذي كان من آثاره بعض المواقف الاجماعية في صدد بعض قضايا العرب وخاصة في صـدد قضية فلسطين ولبنان ، واستنان أطباء العرب ومحاموهم ومهندسوهم في ظروف هـذا النشاط وخاصة في ظروف مشاورات الوحدة العربية سنة عقد المؤتمرات الدورية ، حيث

كان مئات المحامين والاطباء والمهندسين المصريين والشاميين والعراقيين والحجازيين واليمانيين والمغاربة يجتمعون في صعيد واحد في عاصمة من عواصم العرب فيملأ اجتماعهم الاسماع والافكار بما كان يدور فيه من أحاديث العروبة ووحدة المصالح والروابط والحوافز التي تجمع بين الامم والبلاد العربية فيكون موسم قومي عظيم يمتد أياما وتندمج فيه الصحافه والهيئات الاجتماعية المختلفة .

- ٨ -

اثر المؤتمرات المشتركة

ولقد دامت مشاورات الوحدة العربية نحو سنة امّ مصر خلالها وفود العراق وسورية والاردن ولبنان والحجاز واليمن وكانت تقام بمناسبة ذلك الحفلات وتخطب الخطب وتذاع الاذاعات وتكتب المقالات في آمال العرب وأهدافهم وقوة ما يجمع بينهم من الروابط فيتردد صدى ذلك في مختلف أوساط العرب وأقطارهم فيملأ الأسماع والأذهان ، ويبعث الآمال ويقوي الشعور بالقومية العربية والاخاء العربي حتى ليمكن ان يقال ان هذه السنة التي مضت في المشاورات والتي امتن المحامون والاطباء والمهندسون خلالها سنة مؤتمراتهم الدورية كانت أشد أدوار جيشان الحركة العربية وتيارها . وكان من أثر ذلك ان أخذ رجال الحركة القومية والنضالية في المغرب العربي ورجال احزابه يعلنون رغبتهم في مشاركة المشرق العربي فيما يدور بين أبنائه من حديث الوحدة العربية بوفودهم وبرقياتهم فيلتقي بذلك المشرق والمغرب العربيان في مجال واحد من الحركة العربية الحديثة واهدافها

- ٩ -

اثر الجامعة العربية

ورغم ما ذكرناه في الجزء الرابع من هذه السلسلة حول نظام الجامعة العربية وما كان يضعف بنية الامة العربية وأنانية رؤساء العرب واعتباراتهم الشخصية من أثر في انقلاب الفكرة من وحدة عربية الى نظام فضفاض فان قيام الجامعة كان حدثا خطيراً من دون ريب كان له أثر كبير فيما نحن في صدد تقريره . ولقد احيط قيامها بشيء كبير من الطنطنة والابهة وكانت حين نشوئها خاصة تمثل كثيراً من

اماني العرب واهداف الحركة العربية وتبعث الامل في تحققهامع الزمن ، ثم أخذت تشغل الأذهان وتملأ الأسماع في دنيا العرب وتجمع رجالاتهم في صعيد واحد ليتحدثوا في مصالح العرب المشتركة السياسية وغير السياسية ويتخذوا المقررات ، وكانت ترافق رحلاتهم واجتماعاتهم وأحاديثهم وخطبهم ومقرراتهم جلبة وضجة دعائية في الاوساط والصحف فيكون ذلك كله من مقويات الشعور بالقومية العربية والاخاء العربي العام وتوسع نطاقه .

- ١٠ -

اثر الحركات الوطنية والنضالية

ولقد كان تأثير الحركات الوطنية والنضالية بنوع خاص مهما من جهة ومزدوجا من جهة اخرى في اتساع نطاق الوعي وتطوره حيث كانت مؤثرة في هذا الاتساع والتطور محليا في البلاد التي تقوم فيها وفي البلاد العربية الاخرى في آن واحد . ولقد ظلت تقوم منذ انتهاء الحرب العالمية في كل بلد من البلاد العربية جمعيات واحزاب واجتماعات ومؤتمرات ومظاهرات واضرابات ومقاطعات ودعوات دعائية وثورات دامية تستهدف الفكاك من أسر الاجنبي واحتلاله ودسائسه وألاعيبه واستغلاله وعنفه والتمرد عليه والاستمتاع بالاستقلال والحرية والعزة القومية والحياة الحرة القومية السعيدة ، وتنبيه الشعور القومي في الامة وتأليبها وتوجيهها نحو الهدف ولقد كانت تشتد احيانا فتكون سيلا جارفا ينجرف فيه كل طبقات الشعب وينتظم فيه القطر الذي يشتد فيه من اقصاه الى اقصاه وتهز كيانه هزاً شديداً ترتفع به روحه الى رفيع درجات البطولة والاستماتة وتتأجج ناره حتى يصل لهيبها الى عنان السماء فتلفت أنظار العالم وتزعج المستعمر ايما إزعاج مما شرحنا بعضه في الجزأين الثاني والثالث من هذه السلسلة ، وليس من بلد من بلدان العرب في المشرق والمغرب الا سجلت صفحات كثيرة من البطولة وخلدت صوراً عديدة للحركات الوطنية والنضالية القوية الرائعة في أشكال ومناسبات عديدة . فمن الطبيعي بالاضافة الى ما كان في هذه الحركات من مظاهر قابلية الامة وقواها الكامنة في مختلف أقاليمها ان يكون لها أثر فعال في تكوين روح الشعب وتقوية شعوره بالذاتية القومية وايقاظ وعيه وتطويره .

ومن جهة اخرى فانه لم يكن يقوم في بلد حركة نضالية حتى تسترعي أنظار

وأذهان البلدان الاخرى فتثير فيها عاطفة الاخوة والحماس وتدفعها الى التعضيد المادي أو المعنوي أو كليهما وبالتالي تقوي شعور الاخوة القومية العامة ومفهوم المصلحة المشتركة العامة وواجب التضامن القومي العام .

- ١١ -

اثر قضية فلسطين وحركاتها

ولعل أثر حركات فلسطين ودورها في صدد ما نحن في بيانه أشد وأبرز من غيره . فالذين حملوا عبء الحركة الوطنية فيها رأوا منذ البدء انهم أمام محنة شاقة وغزوة بعيدة المدى لا تشبه ما عرضت له البلاد الاخرى من محن وبلوى ، وان بلواهم بالاضافة الى خطورتها ليست محلية طارئة يمكن ان تزول بضعف الغازي المستعمر وتطورات السياسة العالمية . فمن جهة قاموا بواجب النضال محليا بقدر ما أطاقته قواهم وبنيتهم وروحهم ، واستطاعوا أن يسجلوا صفحات خالدة في مختلف ادوار النضال ، ومن جهة قاموا بدعـــوة مستمرة قوية لتنبيه العالم العربي خاصة والعالم الاسلامي عامة الى ما يحدق ببلاد العرب ومقدسات الاسلام من أخطار إذا ما تمكنت اليهودية ورسخت قدمها في فلسطين ، وقد كانت دعوتهم وتنبيههم يلقى في أحيان كثيرة اذناً سامعة وتجاوباً حسنا فتبادر بلاد العرب الاخرى الى تأييدهم بالمظاهرات والاحتجاجات والتشكيلات والمساعدات المادية والمعنوية والاشتراك في الجهاد الدموي وبشهود المؤتمرات التي كانوا يدعون اليها ويعقدونها في فلسطين وغير فلسطين، ولم تلبث حكومات بلاد العرب ان اندمجت في ذلك كله اندماجا قويا لم يسع الحكومة الانكليزية الا الاعتراف به أثناء انتدابها المشؤوم وتسايره بما كان من اشتراكها في الابحاث والمؤتمرات التي جرت وعقدت للنظر في حل مناسب للقضية الفلسطينية مما فصلناه في الجزء الثالث من هذه السلسلة . فكان كل هـــذا وسيلة لتقوية شعور أهل فلسطين بما بينهم وبين العالم العربي من اخوة ثم كان في نفس الوقت وسيلة لتكثف الأفكار والجهود في مختلف أقطار العرب وتلاقيها في صعيد واحـــد مما كان مظهره ما كان من أدوار هذه القضية وحربها الشعبية والرسمية على مـا شرحناه في الجزأين الرابع والخامس رغم مـا كان من نهاية اليمة وكارثة حاطمة حيث كان له تأثير ايجابي قوي في قوة الشعور القومي العام وتطوره من دون ريب ، ولم يكن أثر هذه الكارثة في انكسار النفوس وخيبة الآمـال

ليضعف هذا الشعور ، بل لعلها كانت من مقوياته مما يعد من مظاهره هذه اللوعة المريرة والشعور بالكرامة المهينة والجرح البليغ في جميع بلاد العرب واوساطهم .

- ١٢ -

جمود الوعي وسلبيته رغم ذلك وحاجته الى الجهد

على ان من الحق ان يقال مع ذلك كله ان هذا الشعور ما يزال جامداً أو سلبيا ان صح التعبير ، وانه لم يصل الى درجة يحفز الامة الى مواقف وأعمال ايجابية منبعثة من ذاتها وتملي بها إرادتها على حكامها ورؤسائها بما فيه مصلحتها القومية العامة ، وانه لا يزال في حاجة شديدة الى تركيز وتوجيه وتقوية حتى يخرج من جموده وسلبيته الى مجال الحركة الايجابية الذاتية ، ويتجه نحو التجديد والانقلاب قبولاً واملاء في سبيل تحقيق اهداف الفكرة العربية الحديثة وهي قيام كيان عربي قومي عام يضم مختلف الأقطار العربية ، ويكون موحد الشعور والثقافة والتفكير والجهاز الاقتصادي والسياسي والعسكري ، يعم في ظله التعليم وتستغل إمكانيات البلاد والأمة وثرواتها ، وتتحسن مشاهدها وتزدهر حضارتها ، وتصلح احوالها الاخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والفنية ، ويكون من القوة بحيث يضمن للأمة العربية الحرية والكرامة والسيادة والمنعة والتقدم في مختلف مجالات الحضارة والوصول الى مصاف الامم القوية الراقية ، وتبوؤ المركز اللائق بخصائصها وأمجادها وما تشغله من حيز جغرافي عظيم في ساحته وموقعه وثرواته وما تتمتع به من أسباب النفوذ المعنوي القوي في مختلف أنحاء الارض .

والأمة العربية في جميع أقطارها ما تزال بعيدة جداً عن هذه الأهداف بل لم تكد تبدأ سيرها في طريقها الصحيح على ما وصفنا حالتها في الجزء السابق. ويقف في سبيلها عراقيل وعقبات كثيرة ومتنوعه منها الداخلي ومنها الخارجي ومنها الاجتماعي ومنها الثقافي ومنها الاخلاقي. ولا يمكن التغلب عليها واجتيازها إلا بالانقلابات الجريئة الواسعة في كل شيء : في أساليب الحياة الاجتماعية والاقتصادية وفي أساليب التربية والتعليم وفي أساليب الحكم. ومما لا ريب فيه ان اتساع نطاق الوعي والشعور فيها مما يمهد السبيل امامها إذا تيسر له ما هو في أشد الحاجة اليه من التركيز والتوجيه والتقوية حتى يصبح حافزاً قويا تتقبل به النفوس الانقلابات المتنوعة المذكورة أو يساعد على حدوثها .

الفصل الثاني

- ١ -

الشباب وواجبهم

والمرشح الطبيعي في الدرجة الاولى لهذه المهمة العظمى هم الشباب لان لهم مدداً من حيويتهم ونشاطهم ، ومـا يزالون ليني العود لم ترسخ فيهم العادات والتقاليد والافكار التي كثيراً ما تكون عقبات كأداء في طرائق العمل واساليب الحياة فضلا عن الانقلابات ، ولانهم هم أصحاب العهد الذين يتحملون ضرر نواقصه وتعثره وينتفعون بما ياتي به الجهد في سبيل إصلاحه وتحسين شؤونه .

واقعهم في الحركات القومية

والناظر في تاريخ حركات الامم يجد الشباب من اجل تلك الصفات والاعتبارات هم العنصر الاقوى فيها . ولقد كان الشباب العربي المثقف تمشياً مع هذه البديهة العنصر القوي في انبعاث الحركة العربية كما يمكن ان يعرف من استعراض اسماء الذين اندمجوا فيها وشغلوا مجالاتها سواء الذين شغلوا صفوفها الاولى او الثانية أم الذين ذهبوا ضحاياها على ما ذكرناه في الجزء الاول من هذه السلسلة .

ولقد غدا شباب الامس الذين شغلوا تلك الصفوف شيوخاً ، وقد ألمت بكثير منهم طوارىء مادية ومعنوية بدلت من ذهنياتهم وقابلياتهم بل ومبادئهم فضلا عن انهم بسبيل التواري عن المسرح ، فأصبح شباب اليوم هم أصحاب الموقف الطبيعي المدعوون إلى العمل القومي في مختلف مناحيه والجد في سبيله .

- ٢ -

محاولات الشباب العربي وجهودهم

ومع ان من الحق أن نذكر ان فئات منهم - وقد غدوا اليوم كهولا - في مختلف البلاد العربية قـد ساهمت في الحركات القومية والنضال الاقليمي وقامت بمحاولات في صدد التكتل من اجل الاعمال الجماعية ومن هذه الاعمال ما كان يتجاوز أحيانا الافق الاقليمي ويتصل باهداف الفكرة العامة فان من الحق ان نقول انهم

لم يشغلوا الحيز الذي يجب عليهم ان يشغلوه ولم يقوموا بالواجب الذي يجب عليهم القيام به ، فمنهم من رأى الامد بعيداً فسئم ومنهم من رأى العمل شاقاً فنكص ومنهم من قامت في وجهه بعض العقبات فارتد ، ومنهم من ارتكس في المنافسات والمشاحنات والسفاسف والاعتبارات الشخصية وغدا مسخراً لها ، واذا كان هناك بعض محاولات دامت فانها ظلت في نطاق ضيق ولم يكن لها من المدى والاثر ما يمكن ان يقال انها سدت شيئاً مهما من الثغرة القومية الواسعة التي نحن بسبيل الكلام عنها .

كذلك الامر بالنسبة للذين هم في دور الشباب الفعلي . فبعضهم حاول ويحاول أن يقوموا ببعض الاعمال وان يتكتلوا في سبيل ذلك غير أن هذه المحاولات لم تتكشف عن نتيجة مبشرة مؤدية إلى الهدف ، هذا إلى تعلق الكثير منهم ان لم تقل كثرتهم الكبرى بالحياة الناعمة المترفة وعدم تحليهم بالجد والجلد اللذين هما عنصران لا غنى عنهما في اي عمل عام وخاصة إذا كان يستهدف هدفا خطيراً .

- ٣ -

مواقف الشباب بينهم وبين الشيوخ

ويردد هؤلاء وأولئك نغمة وقوف الشيوخ عثرة في سبيل نشاطهم وبروزهم وينسبون اليهم عدم تمكنهم من القيام بواجبهم قياما تاما وواسعا ايضا . والشكوى لا تخلو من وجاهة وحق . وقد كان هذا الموضوع في ظروف كثيرة من المواضيع التي اثارت الاخذ والرد ووصلت احيانا الى التهاتر بين الشيوخ والطبقة التي هي اليوم في دور الكهولة . وقد كان هذا بارزاً بنوع خاص على المسرح السوري في ابان الحركة السورية النضالية وحينما اخذت تؤتي أكلها وانبثق عنها العهد الوطني الاول عام ١٩٢٦ وبعده . فقد اراد الشيوخ ان يبقى دور الطبقة الحديثة ثانويا وان تسير تحت جناحهم ، ولم يشجعوا ما كان يبدو منها من طموح الى الصدارة في الحركات والاعمال وظلوا يدلون بتاريخهم وجهودهم واسنانهم وتجاربهم ، حيث كانوا هم رجال الرعيل الاول الذين حملوا عبء الحركة العربية الحديثة منذ انبعاثها وتحملوا في سبيلها المشاق وقدموا الضحايا ، وكان كثير منهم متخرجا من المدارس العالية ثم تمرسوا بالاعمال الادارية والفنية المتنوعة وصار لهم خبرة ومران في الامور وجلد

على تحمل الجهد والشظف ، وصاروا يعتبرون أنفسهم أنهم اصحاب الحركة الذين يجب ان يكون زمامها في ايديهم ، وغاب عنهم انهم قليلو العدد ، وان الحركة القومية حركة عظيمة متشعبة النواحي من جهة ومتصلة بالاجيال التاليـة من جهة ثانية ، وان هذا وذاك يجعلها في حاجة ماسة الى كل قوة وكل حيوية في الامة ، وان الشباب هم اكبر مخزن لهذه القوة والحيوية وان المصلحة القومية تقضي عليهم ان يوسعوا صدورهم لهم وان يشجعوهم على العمل ويشركوهم في الجهد والمسئولية حتى يتهيأوا لحمل العبء والسير به في المستقبل ، ولاسيما انهم في سبيل التوارى فئة بعد فئة .

وقد كبر على الطبقة الحديثة ان تكون في المركز والحد الذي ارادته لها الطبقة المتقدمة ولم تبال بالاسنان والجهود والتجارب والتاريخ من جهة ، واخذت هي الاخرى تدل بما حصلت عليه من معارف جـديدة ودراسات حديثة ، وما عليه اذهانها من المرونة وقابلية التجدد والانسجام العصري ، وتنبذها بما ارتكس فيه بعضهم من ارتكاسات اخلاقية ووطنيه وتحمل عليها حملات لاذعة وتهديمية احدثت رد فعل ادى الى المقابلة بالمثل والعناد والمكابرة ثم الى ضعف التواثق والتضامن .

وبين هذا وذاك هدرت قوى وذهبت جهود وشلت حركات وتعطلت مشاريع في ظرف تحتاج فيه الامة إلى كل قوة وجهد وتجرد وتواثق وتضامن ثم في ظرف حوربت فيه من قبل المستعمر الباغي اشد حرب وافظعها والامها افساداً ودسيسه وكيداً وعنفا .

- ٤ -

ومهما يكن من امر فان الشباب كما قلنا هم المرشحون في الدرجة الاولى للمهمة العظمى ، ولقد كان من جراء انهماك كثير منهم في اللهو والزينة والسفاسف والتصرفات والاخلاق المكروهـة الشخصية والاجتماعية والتقصير في الواجب ان اشتدت الحملة عليهم وان انفقدت الثقة بهم وان استولى شيء كثير من اليأس من ناحيتهم باشغال الفراغ الذي اخذ يتسع في ميادين العمل القومي المتنوعة من سياسية واجتماعية واصلاحية وتجديدية وتنظيمية ، وان اخذ مستقبل الامة يبدو حالكا قاتما مما هو بليغ الاثر والخطر في كيانها ، ومما يدعونا الى الهتاف القوي بضمائرهم ان

تستيقظ وبعقولهم ان تتدبر الامر . فبقاؤهم علـى ما هم عليه معناه بقاء الامة في حالتها الاليمة التي وصفناها وبقاء الوعي الذي اتسع نطاقه في حالته السلبية الجامدة مدة طويلة تتعرض له الامة والبلاد العربية لاشد المحن والاخطار والاضرار ، بل اكثر من هذا لان المسافة التي تفصل بين الامة العربية وغيرها من الامم السابقة لها ستزداد بعداً وسيزداد شأن الامة العربية بالتالي هوانا ، وهم الى هذا أصحاب العهد وهم الذين يتحملون الضرر والهوان والعار من بقاء الامة في حالتها الحاضرة كذلك .

تضاعف عدد المثقفين بسهل مهمتهم

ولقد تضاعف عدد المثقفين منهم بالثقافة العالية اضعافا كثيرة جداً حيث غدوا يعدون بالآلاف المؤلفة في كل قطر ولا سيما في بلاد الشام ومصر والعراق ، فضلا عن عشرات الالوف المثقفين بالثقافة الثانوية والمهنية المتوسطة ؛ وهذه مزية كبرى تيسر لهم القيام بواجبهم لأنها من المساعـــدات على الانسجام والاتساق والتوائق والتفاهم والتمازج ، وهي في الوقت نفسه سبب في شدة ما يلحقهم من المعرة إذا هم ظلوا على حالتهم ولم يقوموا بواجبهم .

- ٥ -

هتاف بهم للعمل والجد

واننا لنهتف بهم من اجل ذلك كله هتافا شديداً صادراً من قلب واجف مشفق عليهم وعلى الامة العربية ان يكف العابثون المقصرون منهم عن عبثهم وتقصيرهم، وان يدركوا أنه آن لهم ان يتقدموا لحمل العبء وإشغال الفراغ بجدّ وقلب وجلد وايمان وتضحية ، وان يبدأوا من جديد بتنظيم انفسهم والتكتل كتلا متنوعة في كل قطر ؛ تأخذ كل كتلة على عاتقها ناحية من نواحي مهمة التركيز والتوجيه أو من نواحي الدعوة التجددية والانقلابية . ويقيننا وطيد انهم يستطيعون إذا فعلوا ذلك ان يأتوا بالعجائب . ونحن في حاجة الى كل شيء ، فالقرية مهملة جاهلة والعامل مهمل جاهل ؛ ونقائصنا عظيمة في الحياة البيتية وفي التربية وفي شؤون الصحـــة والاجتماع ؛ وكثير من عاداتنا واخلاقنا غير قويمة ، والشعور بالواجب الاجتماعي والانساني والقومي والاخوي ضعيف ، وفي اكثر امورنا وحركاتنا نسير فوضى

دون اهتمام بنظام وتنظيم ، وكل ناحية من هـذه الشؤون وامثالها يقتضي جهوداً عظيمة وتشكيلات متنوعة ومتفرعة تتغلغل في كل حي وقريـــة لتقوم بدعوتها الاصلاحية والتنظيمية والانقلابية والتجديدية .

عناصر النجاح

وقد طلبنا من الشباب ان يتقدموا لحمل العبء بجد وقلب وجلد وايمان وتضحية لأن هذه العناصر لا بد منها للدوام والنجاح وكان فقدها عاملا فيما كان من اخفاق المحاولات السابقة . وكل من درس الحركات القومية في بولونيا وايرلندا وايطاليا والهند وغيرها يرى كيف كان القائمون على رأس هـذه الحركات بل والمندمجون فيها يضربون اروع الامثال على ما كان منهم من تضحية وجـــلد وتحمل للشظف والحرمان وإقدام على أعظم الاخطار واستغراق تام في المهمة غير عابئين بمتع الحياة ولهوها واناقة اللباس والطعام ووسائل الترف فكان النجاح حليفهم واستطاعوا ان يقوموا بالاعمال العظيمة .

- ٦ -

المسألة المالية ومداها

ونحن نعرف ان المسألة المالية مما يتحجج به الشبان في صدد نجـــاح واخفاق المحاولات. وهي مسألة خطيرة حقا لأن المال هو العصب الاقوى في النشاط الجماعي. غير اننا نعتقد ان الذي ينقص الشباب ليس المال وإنما الجد والتضحية . واننا لنرى كثيراً من الشباب ينفقون على لهوهم واناقتهم وتنقلاتهم مبالغ كبيرة ثم نراهم يقصرون في تسديد اشتراك ناد او جمعية قد لا يزيـــد عن ثمن علبتين من الدخان يحرقها الواحد منهم في اليوم أو عن ثمن بطاقة سينما أو جلسة في ملهى او مقهى أو على مائدة ميسر بسيطة فضلا عن المركبة . ففي هذه السبل الكمالية والمحرمة يذهب من جيوب الشباب من المال ما يمكن ان يضمن حياة عدد من الاندية والجمعيات والمشاريع الاخرى في كل مدينة. فلو استشعر شبابنا – وآن لهم ان يستشعروا – بواجبهم وتبعتهم ، وأدركوا – وآن لهم ان يدركوا – ان ضرر الاستمرار في التقصير وعاره عائدان عليهم قبل كل أحد ، واندمجوا في حالة امتهم الاليمة –

وآن لهم أن يندمجوا – وضحوا بشيء من الكماليات واللهو والترف لحلوا المسألة المالية حلاً حاسما ، مع ان واجبهم ومصلحتهم وحـــال امتهم إذا استشعروا بها وادركوها واندمجوا فيها بجـــد وقلب يقضي عليهم بأن يضحوا بالكماليات كلها فضلاً عن المحرمات وان يعمدوا إلى التقشف والزهد لحل هذه المسألة التي كثيراً ما كانت سبب الاخفاق والتي تمهد السبيل لنجـــاح المحاولات التي يجب أن يحاولوها والنشاط الذي يجب ان يبذلوه ، وهذا فضلاً عن أن هـذا النجاح رهن إلى درجة كبيرة بتفريغ القلب والوقت معا مما يقتضي الجـــد والجلد والتقشف وتضحية الكماليات .

- ٧ -

الدعوة الى منظمة قومية عامة

ولا يقتصر واجب الشباب بتكتلهم على النشاط في حدود أقطارهم الخاصة . فهذا واجب يجب ان يقوم به اكثر كتلهم . وهناك واجب عام يجب ان يتفرغ له فريق منهم في كل قطر ، وهو واجب توجيه الوعي القومي العام توجيهاً جماعياً يتناول جميع الأقطار العربية . فان الوعي والشعور بالاخاء القومي العام في أقطار العرب هما الآخران سلبيان وجامدان من جهة ، وان هناك عقبات وعراقيل وتيارات مضادة ضدهما من جهة اخرى . ولقد أوجد انقضاء حقبة طويلة عـــلى كيانات العرب الخاصة في كثير من أبنائها ذهنية الاقليمية الضيقة واعتباراتها ، فصاروا يرون لهم فيها مصالح ومآرب قد تفوتهم اذا ما أثمر الوعي بالاخاء القومي المشترك ثمرته في تحقيق هدف من اهداف الحركة العربية وهو وحدة الدولة ، كما ان الشعوبيين المستعربين باللسان دون القلب لا ينون يضعون العراقيل في سبيل هذا الهدف ، ثم هناك مصالح الاسر الحاكمة والمالكة والرفيعة واعتباراتها ، وهي من العقبات الكأداء في سبيله .

والوسيلة الى القيام بهذا الواجب إما الدعوة الى مؤتمر عربي شامل يشترك فيه ذوو الخطر ممن يعتنقون الفكرة العربية وأهدافها في كل بـــلد عربي في المشرق والمغرب فيتفقون عـلى منهج شامل سياسي واجتماعي وثقافي ودعائي لتحقيق تلك الاهداف ، وينشؤون للمؤتمر فروعاً في كل بلد تتفرغ لتنفيذ المنهج وتتوسل الى

ذلك بكل وسيلة وتنتفع من كل فرصة بل وتخلق الفرص المفيدة ايضا ؛ واما بتأليف حزب قومي عام يوضع له مثل ذلك المنهج وتؤسس له فروع واندية في كل بلد فتتفرغ للسعي والعمل في سبيل تحقيق المنهج .

ونؤكد خاصة على فكرة التفرغ بحيث لا تشتغل هذه المنظمة بالسياسة والمشاغل الاقليمية إلا بالمقدار الذي يتصل بالأهداف العامة القومية والمنهج المتفق عليه .

ونحن نعرف انه جرت محاولات في سبيل عقد مؤتمر عربي عام في سنة ١٩٣٢ ثم في سنة ١٩٤٦ فأخفقت على ما ذكرناه في الجزء الثالث من هذه السلسلة . ونعرف كذلك ان منظمة عصبة العمل القومي حاولت سد شيء من هذه الحاجة فعقدت مؤتمراً قومياً عاماً وأنشأت له بعض الفروع ثم ألمت بها بعض الهنات فجمّدتها في مكانها ثم عصفت بها نهائيا . غير ان هذا الاخفاق لا يجوز ان يكون سببا للجمود إزاء هذا الواجب القومي . ومن الممكن استئناف المحاولة بشيء من الصبر والتؤدة . ونعتقد ان الزمن وتطور الوعي معاً كفيلان اليوم بانجاح القصد إذا ما سعى اليه شباب ذوو إرادة ورغبة وايمان وتفرغوا له وتجملوا بالجلد والجد في سبيله ، وان في كل بلد من بلاد العرب فريقا غير يسير من الشباب مستعدين للتجاوب . ويجب ان لا يستطال الأمد وان لا يقدر للنجاح مدة قصيرة . فان هذا مما سبب إخفاق كثير من المحاولات المحلية والعامة ومن شأنه ان يسببه دوما . فأمة مثل امتنا متفاوتة في حالاتها الثقافية ومتباعدة الأطراف ، وقد مر عليها حقب طويلة في حياة متباينة الظروف ، وما تزال كثرتها الكبرى جاهلة لا يجوز ان يقدر لنجاح مسعى مثل هذا المسعى فيها في طريقه عقبات عديدة ومتنوعة في امد قصير من دون ريب .



الفصل الثالث

- ١ -

مشكلة الجهل ومعالجتها

ومن اهم ما يجب ان تتجه اليه الجهود تعميم التعليم وازالة الأمية في الامة العربية في أقصر مدة ممكنة . فان ما بذل من جهد حتى الآن في مختلف الأقطار العربية على اشتداده وتزايده يوما بعد يوم ما يزال دون المقتضى كثيراً وما تزال مشكلة جهل السواد الأعظم مشكلة قائمة من مشاكل الأمة العربية وحركتها القومية ، فنسبة الامية في العراق ومصر ما تزال نحو ٧٥٪ وفي سوريه ٥٤٪ وفي الاردن القديم ٧٥٪ وفي عرب فلسطين ٥٠٪ تقريبا وما تزال النسبة أعلى من هذه النسب في أنحاء الجزيرة والمغرب العربي . ومن تحصيل الحاصل ان يقال انه كلما اتسع نطاق التعليم اتسع نطاق الوعي والتطور القومي من مختلف النواحي وان الجهل هو السبب الاكبر لما ترتكس فيه الامة من فقر وضعف وفوضى وخمول وسوء اخلاق وعادات وذوق ثم لما هو بارز من التفاوت العظيم بين طبقاتها ، وقلة انسجام وتمازج واتساق في حركاتها ومحاولاتها .

- ٢ -

والمشكلة تبرز بنوع خاص بالنسبة للقرى والبادية وعسر إمكانيات المال والمكان والمعلم ، بل ان المشكلة تكاد تتمركز هنا لان وسائل التعليم في المدن متوفرة اكثر ونسبة الامية فيها منخفضة جداً بالنسبة إلى القرى والبادية .

ولقد كانت هذه المشكلة مما واجهته الجمهورية التركية التي لم تكن حالتها احسن من حالة البلاد العربية ، وظلت معقدة إلى سنة ١٩٤٠ ، فقد كان عدد الذين هم في السن المتراوح بين السابعة والسادسة عشرة (٣،٧٤٩٩٠٩) ٨٠٪ منهم قرويون ، وكان عدد المداومين على المدارس منهم (٨٨٤٧٠٩) أي ٢٣٪ فقط من المجموع ، وقد كان عدد مدارس القرى في سنة ١٩٣٨ (٤٧٨٨) من أصل نحو (٣٦٠٠٠) قرية ، وبكلمة اخرى ان نحو ٨٥٪ من القرى لم يكن فيها مدرسة إلى هذه السنة .

وفي هذه السنة خطت الحكومة التركية خطوة حاسمة في سبيل حل المشكلة واعقبتها بخطوة متممة لها في سنة ١٩٤٢ بعد ان رأت ان المحاولات النصفية لم تحلها وقد أسفرت الخطوتان عن نتائج عظيمة مما يسوغ القول ان تركية ستبلغ بها الغاية خلال عشر سنين من اليوم .

وقد انطوى في الخطوتين حل مشكلة التهذيب والارشاد والتوجيه الزراعي والصناعي في نفس الوقت ايضا. وكانت الخطوة الاولى إصدار قانون معاهد القرى حيث أوجب على وزارة المعارف إنشاء معاهد قروية لتنشئة معلمي القرى واختصاصيين بالمهن المتنوعة التي تحتاج اليها القرية، وأوجب على طلابها خدمة عشرين سنة في التعليم القروي ونص على حرمان من يخل بهذا الواجب من وظائف الدولة الاخرى مع واجب إعادته نفقات تعليمه مضاعفة ، واوجب دفع مرتباتهم من ميزانية الدولة ، واعطاءهم الآلات والوسائل اللازمة للزراعة من بذور ومواش وغراس وآلات زراعية من ميزانية الدولة كذلك مقابل قيامهم بكل نوع من انواع التعليم والتربية بما في ذلك إنشاء مزارع وحدائق وكروم نموذجية وفنية وارشاد اهل القرية وتدريبهم .

وقد كان التعليم الابتدائي ودور المعلمين الابتدائية مما تتحمله الولايات من ميزانيتها المحلية ، وكان يسير بسبب ذلك سيراً بطيئاً وضعيفاً فكان تحميل نفقاتها على مالية الدولة من أهم مظاهر الخطوة الحاسمة .

وكانت الخطوة الثانية قانون تشكيلات مدارس القرى ومعاهدها حيث نص على واجب مجلس القرية في إنشاء بناء للمدرسة وتقديم نفقات المدرسة الدائمة - غير مرتب المعلم - وتخصيص ارض مناسبة للمزارع النموذجية إستناداً إلى قانون القرية الذي يخوّل هذا المجلس فرض الضرائب لهذا الغرض وغيره من احتياجات القرية ، وحيث نص على مسؤولية المجلس المالية والجزائية إذا أبطأ أو قصر أو أهمل في واجبه هذا .

وقد فصل القانون واجب معلمي القرى ومرشديها كما يلي :

« تشغيل أراضي المدرسة لتكون مزرعة نموذجية وانشاء مصنع وحديقة للمدرسة وتشغيل مصنع المدرسة على وجه ينتفع به اهل القرية واتخاذ التدابير اللازمة لتعليم

وتهذيب أبناء المدرسة وحمل الاهالي على ذلك ، ورفع كل ما يهدد صحة الطلاب واتخاذ التدابير اللازمة لذلك وحمل الاهالي عليها ، وترقية مستوى الثقافة الوطنية في اهل القرية وتوجيههم وفق ما يقتضيه الزمن والحياة الاجتماعية ، واقامة حفلات في ساحة المدرسة في الاعيـــاد والمواسم المحلية والقومية وانشاد الاغاني الوطنية والقومية ، واستعمال الآلات الموسيقية في أثنائها ، وتشجيع وتدريب أهل القرية على ذلك ، وجعل اهل القرية يستمتعون بالراديو بأوسع نطاق ممكن ، وعمل أعمال زراعية وصناعية وميكانيكية فنية تكون نماذج لأهل القرية ومفيدة في تحسين إقتصادياتهم ، واقامة معارض في المدرسة ، وبذل الجهد لاقامة أسواق عامة في المكان والزمان المناسبين ومساعدة أهل القرية فيما يقتضي من التدابير والوسائل لانعاش حياة القرية وزيادة غلاتها ونشاطها ، واشراك الطلاب واهل القرية في الاسواق والمعارض العامة التي تقام في أماكن يسهل عليهم الذهاب اليها واثارة إهتمامهم وارشادهم ، وتوسيع معلومات أهل القرية في شؤون الاحراج وفوائدها ، والاهتمام لصيانة الآثار التاريخية والفنية والبدائع الطبيعية في القرية وجوارها ، والتعاون مع القرية على عدم اندثار الاجناس الجيدة من الحيوانات وتحسينها ، ومساعدة اهل القرية في كل ما يمس حياتهم من خير وسوء ونفع وضرر واعلام مؤسسات الحكومة بكل ما يتصل بذلك ، والاهتمام بمصلحة القرية ومصلحة الدولة والدفاع الوطني، وبث فكرة التعاون في وسائل الزراعة والنقل المشتركة وتأسيس منظمات تعاونية متنوعة ، واتخـــاذ التدابير المتناسبة مع المحيط والوسائل لتعليم وتعويد شباب القرية على السباحة والزحلقة والمصارعة والفروسية والرمي والصيد واستعمال الدراجة العادية والبخارية والآلات الزراعية الحديثة . »

ولقد انشيء وفقا للقانون الاول خلال ثلاث سنين عقب صدوره عشرون معهداً داخليا يتبع كل واحـــد منها مزرعة تجارب كبيرة ومعملاً للصنائع اليدوية والميكانيكية المتنوعة .

والخطة المرسومة هي تخريج عدد يتراوح بين ٢٠٠٠ و ٣٠٠٠ معلم ومرشد سنويا وفتح مدارس جديدة في القرى بنسبتهم ، وقد وزعت المعاهد توزيعا حسنا بحيث انتشرت في مختلف أنحاء البلاد واهتم خاصة ليكون طلاب كل معهد من أبناء

منطقته وكيفت دروسها وحقول تجاربها ومصانعها حسب بيئة كل منطقة ومناخها.

والخطوة ستيسر حل مشكلة امية الكبار في القرى وهي ناحية بارزة من نواحي المشكلة لان سواد الامة الاعظم في القرى ، لان هذه المشكلة منوطة هي الاخرى بمسألة المكان والمعلم ، فكلما فتحت مدرسة جديدة في قرية تيسر لكبارها الاميين ان يتعلموا القراءة والكتابة في بناء المدرسة وعلى ايدي اساتذتها أو باشرافهم وفي اوقات خاصة وبكلفة إضافية يسيرة .

ولقد تبع هذه الخطوة خطوة فنية مهمة ، حيث انشيء بالمعاهد الريفية المذكورة فصول لتخريج قابلات ومأموري صحة ، واستهدف تخريج (٥٠٠) قابلة و (٥٠٠) مأمور صحة سنويا لاستخدامهم اجباريا في القرى ، فجاءت هذه الخطوة متممة للعمل العظيم من ناحيته الاجتماعية والصحية إزاء القرية ايضا .

- ٣ -

فجدير بالحكومات العربية إقتباس هذه الخطوات في سبيل حل مشكلة تعليم القرية التي هي المشكلة الاولى في تعميم التعليم كما قلنا على ان تكون الخطة كفيلة بحل المشكلة حلاً حاسماً ونهائيا خلال عشر سنين أو خمس عشرة سنة على الاكثر ، وفي ذات الوقت يجب على الحكومات ان تستفيد مما تيسره هذه الخطوات من إمكانيات في مجال إزالة الامية من الكبار من جهة وان تضاعف جهدها لاستكمال اسباب ايجاد مقعد لكل طفل في مدارس المدن وازالة الامية من كبارها . ومن الواجب ان تشتد الدعوة إلى ذلك إشتداداً لا يجد القائمون بأمر الحكم معه مناصا من الجد في الامر وتحقيقه في اقصر مدة ممكنة .

- ٤ -

واجب اصلاح الاخطاء في مجال التعليم

وهناك امور مهمة متصلة بالتعليم لا يتسع المقام لتفصيلها وتتحمل دراسات خاصة مثل المناهج ونظام الفحوص الخاصة والعامة والدورات الدراسية ، ونظام قبول الطلاب للمدارس الثانوية والعالية والمدارس المهنية والزراعية والصناعية والمتوسطة ، واعداد المعلمين الصالحين الخ الخ ، فان كثيراً من النظم والاسس القائمة في بلادنا

من وضع الاجنبي المستعمر الذي استهدف ايجاد الثغرات والامراض في بيئتنا القومية والاجتماعية والثقافية والاخلاقية . فمن الواجب مضاعفة الجهد والعناية في إصلاح الأخطاء واقامة نظم التعليم والثقافة عندنا على اسس مستوفاة الدراسة ومتسقة مع حاجات البلاد والامة واهداف حركتها القومية .

- ٥ -

خطوط وتوجيهات

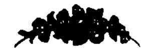
واذا كان من شيء معين نقوله هنا فهو ان من مصلحتنا القومية والثقافية والاقتصادية ان يكون الجهد الاكبر مصروفا إلى تعميم التعليم الابتدائي الذي يجب ان يضمن تخريج الطالب ملما بأوليات المعارف على اختلافها وقادراً على الانتفاع منها وان يكثر من المدارس الزراعية والصناعية والمهنية المتوسطة ويوجه القسم الاكبر من خريجي المدارس الابتدائية الذين يريدون مواصلة التعليم نحوها حيث يمكن بذلك تخريج أجيال صناعية وزراعية وفنية ومهنية ماهرة وعملية فيزداد بها النشاط والانتاج ويتحسن ، وان يجعل قبول المتخرجين من المدارس الابتدائية للمدارس الثانوية ومن هذه للمدارس العالية رهنا باسلوب من أساليب الاصطفاء يضمن به عدم تكثير الطبقة التي تحمل شهادات عالية وتكون في ذات الوقت ضعيفة المواهب والقابليات فلا تعمل في المجال الرفيع الذي تخرجت له ولا تنزل إلى المجال الادنى منه فتظل عاطلة حائرة متذمرة وان ينقذ الطلاب من الصدفة العمياء التي تغلب في الفحوص النهائية وان يجعل للدراسة والجهد اليومي والشهري نصيب وأثر في مصائرهم السنوية ايجابا وسلبا ، وان يجعل للتربية الاخلاقية والاجتماعية حيز كبير في المناهج والتنظيمات الدراسية لتلافي ما ارتفعت الاصوات بالشكوى مما يلمس في أبناء الجيل الجديد من ميوعة في الاخلاق والعادات والاجتماعيات والذوق ، ومن ضعف روح النظام والتنظيم ، ومن التحلل من الواجبات والتبعات والتقاليد .

- ٦ -

يجب تدبير المال على كل حال لهذه المشكلة

ولا ينبغي ان تقف المسألة المالية في الطريق . فكل شيء يجب ان يهون في

سبيل هذه المشكلة التي هي من امهات مشاكل الامة العربية. والحكومات العربية ما زالت تنفق على التعليم نسبة أقل بكثير من نسبة ما تنفقه البلاد الاخرى عليه مع ان تلك البلاد لا تقاسي محنة المشكلة التي تقاسيها بـــلاد العرب . وتستطيع الحكومات العربية إذا جدت وحسمت – وآن لها ان تجد وتحسم – ان تحل المسألة المالية باسلوب ما ، ولا سيما ان جهازها فضفاض وموظفيها اكثر بكثير من حاجتها والكماليات والمظاهر والفخفخة تستغرق كثيراً من المال عبثا . وهـذا فضلا عن قدرة البلاد وواجبها معا في الدفع لحـــل هذه المشكلة الحيوية ، وفضلاً عن حق الحكومة وواجبها معا في الاخذ من القادرين المتخمين بقوة القانون ما يكفي لحلها .



الفصل الرابع

- ١ -

مشاكل الفوارق الطائفية وتنوع المناهج والمدارس

وهناك مشكلتان من مشاكلنا القومية يجب بـــذل الجهد في معالجتها . وهما متصلتان في ذات الوقت بالتعليم من ناحية ما .

- ٢ -

مشكلة الفوارق الطائفية

اولاهما مشكلة الفوارق القائمة بين مختلف الملل والنحل والطوائف . وهي من دون ريب من أهم نقاط ضعف الامة العربية ومن أهم الثغرات التي نفذت وتنفذ منها دسائس الدساسين ووساوس الشياطين وكيد الكائدين كما انها مما توصم بـه الامة العربية في حركتها القومية الحديثة وتعرقل سيرها .

- ٣ -

ومن هذه الفوارق ما هو بين المسلمين انفسهم ومنها ما هو بين المسلمين والنصارى العرب . ولسنا نقصد الى توحيد الملل والنحل وجعل الناس ملة واحدة ، فهذا غير وارد ولا هو ممكن مع كونه مرغوبا فيه ومفيداً جداً للمصلحة القومية ، وانما الذي نعنيه بذل الجهد في إزالة أسباب الحقد والضغينة والانكماش والحذر وسوء الظن والروح المتعصبة المتناظرة .

فالدم العربي الاصلي يجمع بين الشيعة والسنة والدروز والعلويين كما ان الاسلام من حيث المبدأ والتاريخ يجمع بينهم . غير ان بينهم من الفوارق والافكار المتضادة ما يجعل التضامن والتمازج الروحيين الصادقين غـــير قائمين او ضعيفين ، والفوارق في أصلها تمت إلى أسباب سياسية امتزجت بالدين وتغذت بالدعاية من جهة وبحوادث وإعتبارات متنوعة في مختلف المناسبات والادوار من جهة اخرى . وقد حاول الاجنبي المستعمر إستغلالها واثارتها بل ونجح بعض الشيء في محاولته ، وساعده على هذا النجاح بعض المتحركين والطامعين من أبناء هذه الملل والطوائف

حتى رأوا في بقاء طوائفهم متميزة منافع ووجاهة ومناصب قد لا تتيسر لهم إذا اعتبرت الطوائف الاسلامية واحدة .

ويوجد في كل طائفة فئة صالحة تستنكر هذا التميز وتتأذى من إستمراره وتعرف ان بقاءه عظيم الضرر والخطر على المصلحة القومية العامة اولا وعلى مصلحة كل طائفة ثانيا كما ان كثيراً من أبناء هذه الطوائف يعرفون ان أسباب الفرقة قد تطوت في طيات الزمن المديد ، وان الاستمرار فيها عبث لا معنى له ولا سند له من دين وخلق ومصلحة وعاطفة .

فحملة صادقة مخلصة يتعاون فيها مثقفو هذه الطوائف ومخلصوها تعاوناً صادقا وتدار بلباقة وجد واستمرار ، ويتوسل اليها بشتى الطرق والوسائل وفقاً للظروف والمناسبات وتضطلع برسم خططها وتنفيذها المنظمات القومية العامة بالتضامن مع المنظمات المحلية من جهة ومع الدوائر الحكومية الاجتماعية والثقافية من جهة اخرى من شأنها إضعاف قوة التميز والفرقة .

هذا بالنسبة للكبار والجيل الحاضر . اما بالنسبة للأطفال فيجب ان تتكفل مناهج التعليم بمعالجة هذه المشكلة فيهم بحيث يكون التعليم القومي المشترك هو سياسة التعليم العامة في الوطن العربي ، حتى يسهل بذلك اندماج الجيل الجديد والاجيال القادمة تحت لواء القوميه الخفاق اندماجاً يصبح شاملاً وتاماً .

- ٤ -

وكما يجمع الدم العربي الاصلي بين كثيرين من مسلمي العرب على اختلاف نحلهم وكما يجمع التاريخ واللغة منذ القرون الطويلة بين كثير منهم ايضا فان الدم العربي من ناحية والتاريخ واللغة من ناحية ثانيه يجمع بين مسلمي العرب ونصاراهم كذلك في الشام ومصر والعراق . ومـــا قيل في أغراض المباينة بين الفرق الاسلامية واستغلال الاجنبي المستعمر لها يقال بتمامه بل وبأكثر منه بالنسبة إلى المباينة بين مسلمي العرب ونصاراهم . وما كان من أحداث التاريخ في بعض الحقب إنما كان نتيجة ظروف واعتبارات ومواقف خاصة ودسائس أجنبية ونفعية متنوعة ، وقد كان الجهل والحمق وضيق الافق والفهم من أقوى مغذياته . وبين المسلمين والنصارى فئة صالحة وغير قليلة تستنكر هذه الفرقة وتتأذى من إستمرارها وتلمس في ذلك

عظيم الضرر والخطر على القضية القومية العامة وعلى مصلحة كل من الفريقين معا ، وتعرف انه ليس في الحقيقة بين مصلحة المسلمين والنصارى أي تباين سواء في مجال السياسة والحكم والنظم والتشريع او في مجال الحقوق والواجبات المتقابلة او في مجال الاقتصاد والاجتماع ، او في مفهوم واهداف الفكرة العربية ومـا يعود على الفريقين من منافع وعز وسؤدد من تحققها . ولقد انطوى عهد الجهل وضيق الافق والفهم وانفتح عهد جديد يجعل التضامن في المصلحة الوطنية والقومية هـو الأصل النافع الضروري دون ان يكون لفوارق الدين أي تأثير فيه . والعرب الذين يندمجون في هذا العهد لا يمكن ان يكونوا بدعاً في هذا الباب ، وليسوا في الحقيقة بدعاً . وعلى اعتبار ان اكثرية العرب الساحقة مسلمة فان في الشريعة الاسلامية في نصوصها الاصلية والسنن في العهود الاسلامية العربية الاولى ما يمهد لاقرار هذا المعنى قويا وطيداً بين العرب عامة في صدد ما يكون من اختلاف بعضهم عن بعض في الدين ، يضاف الى هذا ما انكشف من نيات الاجنبي المستعمر الدساس ومأجوريه وخاصة الذين يتنطعون للتبشير منهم نحو العرب مسلميهم ونصاراهم على السواء من الكيد والمكر وسوء النية وقصد التفريق واستهداف استغلال الجميع واحتقارهم . فكل ذلك اسباب مسهلة لمعالجة هذه المشكلة التي يجب ان يتضامن فيها مثقفوا المسلمين والنصارى معاً ويقوموا بحملة صادقة وقوية في سبيلها ، ويتوسل اليها بشتى الوسائل وفقاً للظروف والمناسبات وتضطلع برسم خططها وتنفيذها المنظمات القومية العامة بالتضامن مع المنظمات المحلية من جهة ومـــع الدوائر الحكومية الاجتماعية والثقافية من جهة اخرى .

هذا بالنسبة للكبار والجيل الحاضر . اما بالنسبة للاطفـــال فيجب ان نتكفل مناهج التعليم بمعالجة هذه المشكلة فيهم بحيث يكون التعليم القومي المشترك الذي يجب ان يكون اساس سياسة التعليم العامة في الوطن العربي وسيلة ناجعة الى ذلك حتى يسهل اندماج الجيل الجديد والأجيال القادمة تحت لواء القومية الخفاق اندماجا يصبح مع الزمن شاملاً وتاماً .

- ٥ -

مشكلة تنوع المناهج والمدارس ومعالجتها

اما المشكلة الثانية فهي مشكلة تعدد اساليب ومناهج التعليم، والتعليم الطائفي والأجنبي في البلاد العربية. وبقاء هذا التعدد ضار كل الضرر بالروح القومية والمصلحة القومية اللتين تقضيان بتوطيد الوحدة الثقافية والانظمة الثقافية في جميع درجات التعليم وطبقات المتعلمين اولا وفي جميع معاهد التعليم ثانيا، وان ينتظم هذا جميع البلاد العربية ثالثا، ويتناول جميع ابناء وبنات الامة على اختلاف مللها ونحلها رابعا بحيث يكون من ذلك بوتقة تصهر الجميع وتخرجهم امة متجانسة في العقول والقلوب والاسلوب متحدة في الاهداف والغايات ترمي عن قوس واحد وعقيدة قومية واحدة

والناظر اليوم فيما هو عليه التعليم ومعاهده في بلادنا يرى صوراً عديدة متناقضة مع هذه الغاية ونقصا شديداً في كل ناحية، ويدرك سراً من اسرار ما تتمرغ فيه امتنا من ضعف البنية والاخلاق واختلاف الميول والامزجة والغايات والاساليب.

- ٦ -

المدارس الاجنبية وسيرتها وآثارها

فمن هذه الصور ما يقوم في بلادنا من المدارس الاجنبية المتعددة الجنسيات المتنوعة المناهج والغايات والتي استعمل في الأعم الأغلب في اتجاه معاكس للغاية التي ذكرناها سراً وعلنا ومباشرة ومداورة .

وموضوع المدارس الاجنبية من المواضيع الخطيرة الأثر في حياتنا وحركتنا ومصلحتنا يجب ان يعار اهتماما كبيراً وعاجلا من جانب منظماتنا وحكوماتنا وان تشتد الدعوة الى ذلك . واذا كان حقا ان لهذه المدارس بعض الفائدة في توسيع نطاق العلم فان مما لا يمكن ان يمارى فيه انه كان لها آثار سيئة ايجابية وسلبية في حياتنا القومية أضعاف ما كان لها من فائدة .

فأكثر المدارس الأجنبية أو بالأحرى كثرتها الكبرى هي مدارس تبشيرية سيرتها وسيطرت عليها روح المبشرين المتعصبة التي يعرفها الخبيرون في مؤلفاتهم وابحاثهم وجدلهم ومطاعنهم الصريحة والضمنية التي تصدر عن غرض وهوى وحقد

وافق ضيق . وهذه الروح كانت عاملا قويا خاصة في بث روح الخوف والحذر والحقد والريبة والانكماش بين المسلمين والنصارى العرب ، وفي صرف كل اتجاه يمكن ان ينبثق في نفس النصارى نحو العرب والعروبة على إعتبار ان الاسلام والعروبة لفظان مترادفان ، وفي إثارة الحقد بل والاحتقار في نفوس الناشئة النصرانية العربية نحو العرب ، وفي تشويه تاريخهم تشويها منكراً .

ولقد كانت هذه المدارس من الناحية الاخرى وسائل استعمارية مباشرة ومداورة بما كانت تقتصر عليه تقريبا من ملء ذهن الناشيء بالأجنبي ولغته وآدابه وتاريخه . وفي حين لا يكاد يكون قد عرف شيئا أو عرف ما هو مشوه وناقص وتافه من اللغة العربية والآداب العربية والتاريخ العربي يكون قد تشبع بتاريخ الأجنبي ولغته وآدابه وابطاله ومزاياه وفضائله وبالتالي قد استغرق فيه استغراقا شديداً. وهكذا ينشأ الناشيء الذي يتخرج في هذه المدارس غريبا عن العرب والعروبة في لسانه وروحه وعقله وعلمه مندمجا بالأجنبي بكليته ، فترى كثيراً من فتياتنا وفتياننا مسلمين وغير مسلمين لا يكادون يبينون باللغة العربية ، ولا يكادون يفهمون شيئا عن العرب ولا يكادون يتحسسون بشيء من الشعور القومي العربي والكرامة القومية العربية في حين يكونون ملمين شديد الالمام بتاريخ الافرنسيين أو الانكليز ولغتهم وآدابهم مندمجين في عاداتهم وتقاليدهم وشعورهم ، وقد اتخذوا من اللغة الانكليزية أو الافرنسية لغة بيت ومجالس أو على الاقل صاروا يرقعون لهجاتهم العامة العربية بالرطانة الانكليزية أو الافرنسية . وهذا سر ما نراه في موارنة لبنان وكاثوليكه بنوع خاص من التعلق الشديد والاستغراق التام في كل ما هو افرنسي والكره والخوف والانقباض الشديد من كل ما هو عربي اسلامي مما هو من مشاكل قضيتنا العربية في هذا القطر العربي على ما ذكرناه في الجزئين الاول والثاني من هذه السلسلة ، لان غالبية ناشئتهم تدرس في مدارس افرنسية بحتة أو مصبوغة بالصبغه الافرنسيه فضلا عن الصبغه التبشيرية العامة فيها .

هذا من جهة ، ومن جهة ثانية فان تعدّد انواع وجنسيات المدارس الأجنبية ادى بطبيعة الحال الى تنوع الشعور في ناشئتنا التي تتخرج منها وادى بالتالي الى تناقض الامزجة والمظاهر والميول والاساليب تناقضا عجيبا حتى صارت الامثال تضرب بنا وخاصة في بلاد الشام التي نكبت بالتنافس الأجنبي الاستعماري على

اختلاف الميول والامزجة والاساليب ليس في البلد الواحد بل في الاسرة الواحدة.

ولم يكن هذا التعليم الأجنبي الاستعماري والتبشيري قاصراً عـلى الطوائف النصرانية بل كان وما يزال ينهل منه عدد كبير من ابناء المسلمين . منهم من يرسله ذووه عـلى اعتبار ان النظام والتربية في المدارس الأجنبية خير منها في المدارس الحكومية والأهلية ، ومنهم من يرسله ذووه لاكتساب اللغة الاجنبية ، ومنهم من يرسله ذووه للمباهاة او التزلف دون ان يفكر هؤلاء جميعهم بما يترتب عـلى ذلك من أثار سلبية وايجابية في حياة ابنائهم واتجاهاتهم وشعورهم ومقوماتهم . وهكذا شمل سوء أثر هذا التعليم وضرره طبقة غير قليلة من نصارى العرب ومسلميهم على السواء حيث أساءت لأبنائها هذه النشأة المسيخة المشوهة المغايرة كل المغايرة للكرامة القومية والمصلحة القومية والمعطلة للانسجام الذي يجب توطـده بين أبناء الامة الواحدة في الامزجة والميول والاساليب والغايات والشعور .

وجوب التخلص منها او تحديد ضررها وتلافيها

ومهما قيل أن هذه المدارس ساعدت على اتساع نطاق العلم والتهذيب في بلاد العرب ، وانه قد نشأ في بعضها أفراد كان لهم جهد ومشاركة في الحركات القومية والوطنية وكانوا متشعبين بمبادئ الحرية والاستقلال والكرامة القومية فمما لاشك فيه أن هؤلاء قليلون من جهة وان ما كان قد كان من قبيل رد الفعل من جهة اخرى ولم يكن على كل حال نتيجة جهد وتوجيه مخلصين ، وليس من شأنه على أي حال أن يبرر استمرار هذه المعامل البشرية في عملهـا لتشوه اخلاق أبنائنا وأرواحهم وتعطل شعورهم القومي ، وتجعلهم يستغرقون شعوراً وانجذاباً في الأجنبي وتاريخه وآدابه وأبطاله دون تاريخهم وأدابهم وابطالهم ، وخاصة ان الشعور القومي فينا لم يرسخ ويعم ويقوى ويكون لنا منه مناعـة كافية ، وان بعض بلادنا ما تزال منكوبة بالاجنبي ، وان بعضها الآخر عرضة لمطامعه ودسائسه وتربصاته ، وقد آن لنا أن نتخلص منها وأن تشتد الدعوة الى ذلك .

وإذا لم يكن امكان للتخلص منها في الحال فان الواجب يقضي ببذل الجهد السريع القوي لاستدراك امرهـا الى ان يصبح في الامكان ذلك مما هو ضرورة لا مناص منها وغاية لا يجوز النكوص عنها . وفي المثل الذي ضربه الكماليون

احسن الاسوة . فقد ساروا في سياسة رشيدة وحازمة في سبيل ايقاف هذه المعامل وحدّ اذاها وتتريك من رغب في البقاء فيها ، حيث حظر التبشير والطابع الديني الكهنوتي على اي مدرسة اجنبية ، وحيث وضعت قيود وشروط شديدة على المدارس الاجنبية ، مما أدى الى اقفال كثير مما كان موجوداً ، ولم يبق في تركية مدرسة واحدة تحمل طابع التبشير او تسير في اي اسلوب من اساليبه ، واصبحت اللغة التركية في ما بقي منها لغة اجبارية تعلم بواسطة اساتذة من الاتراك ترشحهم وزارة المعارف ، كما غدا هذا الباقي خاضعاً في كل شيء للسلطات الحكومية وتفتيشها اولا ، وفيها مدير ثان تركي ثانياً ، وتكتب حساباتها وسجلاتها باللغة التركية ثالثاً ، ويدرس التاريخ والجغرافية والعلوم الاجتماعية باللغة التركيــة من قبل اساتذة اتراك وطبقاً للمنهج الثقافي العام رابعاً ، وهـــذا فضلا عن تحريم تعليم التلامذة الاتراك جنسية (١) تعليما ابتدائياً في المدارس الاجنبية ، وقصر التعليم فيها عـــلى ابناء الجالية الاجنبية او التعليم الثانوي ، وعدم السماح بانشاء اي مدرسة اجنبية جديدة .

وقد كان عدد المدارس الاجنبية في تركية يبلغ المئتين فظل يتناقص حتى وصل الى واحد وثلاثين في سنة ١٩٤٣ يقتصر التعليم فيها على الاجانب والتعليم الثانوي وفي نطاق الشروط والقيود التي شرحناها آنفاً .

ومهما تكن هذه الخطوة شاقة ومعقدة بالنسبة الينا فان شدة أثر هذه المدارس في حياتنا القوميـــة وشدة ضررها تتحملان كل شيء في سبيلها . ومن واجب الحكومات العربية الشرقية المعترف باستقلالها والتي تمارس سيادتها ان تسارع الى ممارسة هـــذه السيادة في هذه الساحة الخطيرة وبكل حزم ولو باقتباس ما فعله الكماليون ، ونعتقد ان النجاح فيها غير عسير ، ولن يستطيع أحد أن ينكر حقنا في تنظيم تعليم ابنائنا وتربيتهم والاشراف على تنشئتهم ومنع كل ما من شأنه ان يمسخ اخلاقهم وعقولهم ويشوهها ويعطل شعورهم القومي ، وليس فيه اي تعنت ولا بغي ، وليس فيه الا الحق والعدل ، ولا يكابر فيه منصف مهما كانت نحلتـــه وجنسيته . وعلى منظماتنا القومية ان تدفع الحكومات في هذا السبيل بكل قوة .

(١) يشمل هذا التعبير المسلمين وغير المسلمين من رعايا الدولة

- ٥ -

المدارس الطائفية وسيرتها وآثارها

ومن هذه الصور المدارس الطائفية المتنوعة . وخطورة اثر التعليم الطائفي في حياتنا القومية كخطورة اثر التعليم الاجنبي في الروح وفي بعض الظروف والخصوصيات.

فطلاب هـــذه المدارس ينشئون في جوهم الطائفي ، وتظل روح الافتراق والتميز والانكماش والحذر بل والبغض المتقابل هي السائدة فيهم . ومما يزيد الطين بلة ان كثيراً ما يكون اساتذة هذه المدارس من رجال الدين الذين لا يدركون خطورة التربية القومية والمصلحة القومية او الذين ينحرفون عنهما قصداً انسياقاً وراء ذهنية ضيقة الافق تدفعهم الى تنشئة تلامذتهم تنشئة طائفية بحتة في حين أن الذي يرجى من التعليم ومعاهده بالاضافة إلى تثقيف الذهن وتوسيع دائرة المعرفة القضاء على الروح الطائفية السائدة في أوساطنا البيتية والاجتماعية على السواء .

واستمرار الروح الطائفية قوية في كثير من ابناء الطوائف المختلفة مع ما صار لهم من الحظ الوافر في الثقافة والعلم واتساع الذهن والافق يعود فيما نعتقد إلى درجة كبيرة إلى التربية الطائفية التي تلقوها في المدارس الطائفية على ايدي اساتذة طائفيين في روحهم وافقهم وانحرافهم ، وغدوا بها تحت سلطانها اللاشعوري رغم ما يتظاهرون به .

وإذا كان ليس في الامكان ازالة الروح الطائفية بالمرة في برهة وجيزة لانها متصلة بحياتنا البيتية والاجتماعية الخاصة ايضاً ، وأن هذا المقصد السامي يقتضي زمناً طويلا فان بقاء التعليم الطائفي مما يؤدي الى استمرار تلك الروح في حين أن التعليم هو معتمدنا ومرجوّنا في ازالتها مع الزمن وتبدلها بالروح القومية .

- ٦ -

وجوب معالجتها واسلوبه

وليس من ريب في أن الوجه الصحيح هو الغاء التعليم الطائفي الخاص وجعل التعليم مشتركا منذ درجاته الاولى فلا يكون الا تعليم قومي واحد ومدارس قومية واحدة تضم ابناء الطوائف على اختلافها وتسود فيها الصبغة القومية البحتة

وفقاً لمنهج ثقافي عام ، وبهذا يستطاع اضعاف الروح الطائفية السائدة في أوساطنا البيتية والاجتماعية تدريجياً الى أن تزول وتتواري هذه المشكلة الخطيرة نهائياً. ومن الواجب على منظماتنا القومية وحكوماتنا أن تبذل جهودها القوية في هذا المجال كما أنه يترتب على مثقفي الطوائف المختلفة أن يتضامنوا في تدعيم هذا الجهد وانجاحه وهذا مطلب قومي عظيم يستحق عناية كبيرة وجهداً جليلا .

وقد لايكون تحقيق هذا المطلب سهلا، فنحن نعرف شدة رسوخ الروح الطائفية والاعتبارات المتنوعة التي تغذيها. فمن الواجب والحالة هذه بدء الجهد في استدراك امر المدارس الطائفية ، وذلك في ايداعها الى ايد نيرة واسعة الافق تدرك معنى الفكرة القومية وما فيها من مصلحة عامة للجميع ، وابعاد الطائفيين المتعصبين عنها ، ونزع الكتب الطائفية من ايدي التلامذة وإبدالها بكتب قومية وتطبيق المنهج الثقافي العام بجد وعناية وجعل هذه المدارس تحت المراقبة والترصد القوي المستمر ، ونعتقد أن هذه الخطوة الاولى ستمهد السبيل الى الخطوة الحاسمة التي ذكرناها قبل إذا ما خطيت بحزم وجد ولباقة، ومهما يكن في هذه الخطوات من صعوبة وتعقيد فان ما يعود منها على المصلحة القومية والحياة القومية من الخير والفائدة يهون في سبيلها كل تعب وتضحية وجهد .

- ٧ -

المدارس الخصوصية الاخرى

ومن هذه الصور المدارس الخصوصية المتنوعة الموجودة هنا وهنا ، والتي تقوم بجهد الافراد والهيئات الخاص ولم يبرز فيها الطابع التبشيري والطائفي أو هي خلو منهما بالمرة . ومهما يكن من خفة خطبها بالنسبة الى النوعين السابقين فان المصلحة القومية توجب استدراك امرها هي الاخرى بالاشراف الدقيق والتوجيه الصحيح ، وبتطبيق المنهج الثقافي العام وصبغها بالصبغة القومية البحتة، وعدم السماح لها في اتخاذ منهج خاص ونظم خاصة وكتب خاصة وتوجيهات خاصة الا ما يكون فيه اتساق مع تلك الصبغة أو تدعيم لها من ناحية من النواحي .

- ٨ -

وجوب التعجيل في سبيل الوحدة الثقافية

هذا ، وغني عن البيان أن الجهود يجب أن تبذل في سبيل هذه الخطوات وفي سبيل الوحدة الثقافية العامة الشاملة لجميع البلاد العربية وخاصة البلاد المتقاربة في الانكشاف العلمي والثقافي بدون توان . فالوحدة الثقافية والصبغة القوميـة في المناهج ونظم التعليم ضرورة عاجلة، ولا يقوم أمامها ما يقوم أمام الوحدة السياسية والاقتصادية من عراقيل وصعوبات من جهة وهي دافع قوي الاثر الى الاهداف القومية القريبة والبعيدة من جهة ثانية .

ونحن نعرف أن هذا الموضوع من المواضيع التي اخذت الجامعة العربية تعالجها منذ سنين ، غير أن السير السلحفائي وعدم الجد الذي اصطبغت به محاولات هذه الجامعه في هـذا الموضوع وامثاله ابقياه في نطاق الكلام دون العمل والتنفيذ . فعلى القائمين بأمر هذه الجامعة إذا كانوا حقيقة قوميين يحبون خير امتهم أن يجدّوا على الاقل في هذا الموضوع الخطير الذي له أثر كبير في مستقبل حياتنا القومية ؛ وعلى المنظمات القومية أن يشتدوا في الدعوة الى ذلك وان لا يدعوا الامر عـلى سجيته ، وان يدفعوا بالجامعة وبالحكومات العربية الى سبيله القويم بالقوة والسرعة .

- ٩ -

وجوب الاهتمام بالتعليم الديني

ونحب بهذه المناسبة أن ننبه على نقطة هامة، وهي اننا لسنا فقط لانرى ضرورة الى اقصاء التعليم الديني عن مدارسنا القومية بل نراه ضرورياً في دائرة التدابير الخاصة والحدود المعقولة من حيث الزمن والمكان والاسلوب ومن حيث الارتفاع بروح ابناء الامة الواحدة والوطن الواحد الى أوج الصفاء والتعاطف والمحبـــة والتضامن والتمازج كما تأمر بـه الاديان الكريمـة ولا تتناقض في أسسه وجوهره .

وهذه التدابير مما يدخل بدون ريب في نطاق الامكانيات واليسر وليس فيهاما هو عسير إذا صدقت النيات وصحت الرغبات .

فالتعاليم الدينية في اصلها صافية نقية سمحاء من شأنها أن توقظ الضمير وتقوي وازع الخير وتصف نوازع الشر في الانسان ، وتلطف روحه وتجعله باراً رؤوفاً عطوفاً هيناً لينا متسامحاً من جهة ، وعزيزاً كريماً قوياً آخذاً باسباب الحضارة غير مستنكر للدنيا من جهة ، ومضحياً لا يقر الظلم والبغي والعدوان من جهة ، ثم تنأى بالانسان عن الاستغراق الشديد بالمادة استغراقاً يشغل جميع قواه وافكاره ويجعله جافاً جافياً من جهة . وفي كل هذا من الكنوز الروحية والقوى التهذيبية ما هو خليق بالتمسك به والعض عليه بالنواجذ ولا سيا انه مظهر فيض الشرق العربي وطابعه القوي الزاخر بالاشراق والنور اولا ، وإن اثر تحكم المادة وضعف الروح الدينية في الغرب قد وصل الى حد شديد الخطورة بمايبدو من دوله وشعوبه من شرور وطغيان وبغي واستغراق واستهتار ثانيا .

والمهم في هذا ان يجاد تلقين هذه التعاليم وتجليتها اجادة متسقه مع سنائها ونقائها وهو ما يجب على منظماتنا وحكوماتنا ونبهاء علمائنا العناية به كل العناية .

الفصل الخامس

- ١ -

وجوب الدعوة الى الهدى القرآني وتنشئة الناشئة عليه

ونرى من واجبنا ان نتوسع قليلا في موضوع وجوب الاهتمام بالتعليم الديني بالنسبة للهدى القرآني خاصة على اعتبار ان كثرة العرب الساحقة مسلمة .

ولقد كان القرآن هدى الامة العربية الذي اهتدت به في صدر الاسلام الاول واستمدت منه نشاطها وحيويتها حتى كان لها تحت رايته تلك الصورة الرائعة الفخمة من قوة في السلطان وبسطة في الارض وحضارة ساطعة . وسيظل أقوى مؤثر في حياتها لانه كتاب دين كثرتها الساحقة ، ولانه احتوى من الاسس والقواعـــد والمبادىء والتلقينات ما من شأنه ان ينهض بها الى ذرى الكمال في كل مجال من مجالات الحياة ، وبوجهها في احسن السبل واشرفها وانزهها واتمها سناء وصفاء وكمالا وحقاً ، ولان الدين الاسلامي الذي يمثله ليس دينا روحيا او اخلاقيا او عنصريا او اقليميا وحسب كما هو حال الديانات الاخرى او جلها بل هـو دين عقيدة وسياسة ونظام وعمل وواقع معاً ثم هو دين انسانية كاملة واخاء عام سياسي واجتماعي يدخل في نطاقه جميع الناس .

من اجل هذا نعتقد بوجوب تنشئة الناشئة عـلى هداه وبوجوب الاهتمام العظيم لبث تعاليمه وتجليتها في مختلف اوساط الامة واتخاذ التدابير الكفيلة بتخريج دعاة بارعين ووعاظ نابهين للقيام بهذه المهمة .

- ٢ -

دعوة الاخوان المسلمين وما آخذها

وانه ليجمل بنا في هذا المقام ان نشيد بذكر منظمة الاخوان المسلمين التي قامت على هذه الفكرة والدعوة اليها . ولقد استجيبت دعوتها في القطرين المصري والشامي بنوع خاص بمقياس واسع وانضوى تحت لوائها عشرات آلاف المسلمين من مختلف الأوساط وفيهم طبقة كثيرة العدد من المثقفين وذوي المراكز الاجتماعية المرموقة فكانت حركة مباركة في حقيقتها ومظهرها بما كان من تحلي هـــذه الآلاف المؤلفة

باخلاق القرآن الكريمة وانفتاح الاذهان والاسماع لهذه الدعوة الفاضلة . وكل ما تأخذه على القائمين بهذه المنظمة خلطهم الدعوة بفكرة الدولة قبل الاوان حيث اغتروا بالعدد الذي انضوى تحت لواء دعوتهم وظنوا انه آن لهم ان يعملوا للوصول الى الحكم فأثار ذلك روح النزاع والمنافسة ونبـــه اعداء الفكرة من ملحدين ومستعمرين ومتربصين فاخـــذوا يدسون عليهم ويمكرون بهم ويحاربونهم بالسر والعلن ويشغلونهم عن دعوتهم . وكم كنا نتمنى - ولا نزال نتمنى ولم يفت الوقت - ان يظلوا متفرغين لنشر الدعوة والعناية ببلوغها الى اعماق القلوب في اوسع افق حتى تشمل اكبر عدد ممكن من الامة العربيـــة ، حيث يؤدي هذا الى انقلاب اخلاقي واجتماعي وسياسي عظيم .

- ٣ -

ما يمكن توجيهه الى هذه الدعوة

وقد يكون موضوع هذه الدعوة موضع اخذ ورد من نواح عديدة . حيث يمكن ان يقول قائلون (١) ان فيها دعوة الى الرجعة الى الوراء اربعة عشر قرناً بينما العالم يطير الى الامام و (٢) ان فيها تناسيا لما كان عليه المسلمون وحكوماتهم من الفوضى والجهالة والشذوذ والتناحر مع ان الملوك والخلفاء والامراء والحكام والوزراء والموظفين كانوا مسلمين وكان القرآن بين ايديهم ، وكذلك الحال في سائر المسلمين الآن مع ان صلتهم بالقرآن غير منقطعة ، و (٣) ان فيها ابقاء للامة العربية ضمن الاطار الشرقي القديم الضيق والتعاليم التي افقدتها قد سيتها الدينية المرونـــة والحركة وقابلية التطور في حين يجب ان تشتد الدعوة الى الانطلاق التام واعتناق اساليب الغرب في جميع مظاهر الحياة لانها هي الافق الاوسع ولانها هي القائمة على العلم والتجربة والضامنة لحرية الفكر وانطلاق العقل والتجدد المستمر دون ما عائق من دين وعثرة من تقليد قديم ولان الجمود أمامها انما يؤدي الى الانكسار والخذلان والبقاء في حالة الضعف والذل والهوان وتحت وطأة الغربيين وسيطرتهم واستغلالهم و (٤) انها تتعارض مع المطامح القومية العربية والوحدة القومية العربية والفكرة القومية في أصلها حيث يعتبر الاسلام ذلـك دعوة الى العصبية ويشجبها ، وحيث فتح الاسلام الباب لغير العرب فدخلوا فيه فكادوا يبتلعون العرب واستغلوا

المساواة التي منحها لهم الاسلام فدحروهم وتسلطوا عليهم في الكيان العام الذي تألف من العرب وغير العرب دون أن يجد العرب أو سوادهم في ذلك غضاضة وكبير أمر ودون ان يحفزهم الى العمل على استرداد سيادتهم بجد ودافع قومي ، وادى هذا الى ذل العرب وتمزقهم .

- ٤ -

ردود على ما يمكن توجيهه الى هذه الدعوة

ويمكن ان يقال جوابا على هذه الاقوال (١) ليس في الدعوة الى القرآن رجعة ولا قهقرى بل ان فيها تجديداً وثورة، وان ما في القرآن من سعة في الافق ومرونة في التطبيق وسمو في الاسس والاهداف حينما يدرس بترو وامعان ما لا يبقى محلاً للمراء وما يضمن للامة التي تسير عليه كل أسباب التقدم والانطلاق . و (٢) انه يمكن لاي كان ان يدعي صادقا ان اي عصر استطاع ان يتفلت من تأثير المثل العليا الاخلاقية والاجتماعية والانسانية والسياسية التي الهمتها الاديان والفلاسفة والحكماء منذ القديم ، وان مما لا يمكن لاحد ان ينكره ان ما عند الغرب اليوم من آداب وافكار ونظريات ومثل ونظم وتقاليد يرجع كثير منه الى ذلك القديم، فالدعوة الى استلهام القديم لايمكن ان تكون دائما دعوة الى الرجعة والقهقرى مادام في هذا القديم من المثل العليا ما يساعد على افضل وسائل الحياة ومظاهرها . و (٣) ان من الحقائق التي لا يمكن المماراة فيها ان النظام شيء وتطبيقه شيء آخر وان عدم تطبيق نظام ما لا ينتج عنه دائما عدم صلاح ذلك النظام ، وان شذوذ أمة او دولة في ظرف ما عن الطريق القويم لا يتأتى دائما عن عدم صلاح ما عندها من نظم ، وان هذا ليس محصوراً في بلد دون بلد وزمن دون زمن . و (٤) ان جذور الدين متأصلة في الناس الى درجة لا يمكن لاي قوة أو دعوة ان تقتطعها منهم ، وان وجود واحد في كل خمسين الف او مئة الف يفكر هذا التفكير الذي يفكر به القائلون لا يعني ان من الممكن أن يتفلت الناس من تأثير الدين ونفوذه، وما دام ان القرآن الذي هو كتاب المسلمين المقدس عامة وكتاب الكثرة الساحقة من العرب خاصة بين ايديهم يتلونه صباح مساء ويعتقدون انه نبراسهم وفيه من الاحكام والمباديء والحدود ما يتناول حياتهم الفردية والاسرية والاجتماعية

والثقافية والاقتصادية والسياسية مما لا يقاس به اي كتاب ديني آخر فان صلتهم به وتأثيره فيهم لا يمكن ان ينقطع مهما تقلبت الظروف وتطورت الأحول . و (٥) انه ما دام في هذه الاحكام والمباديء والحدود من المرونة وسعة الافق والسمو والاحاطة ما لا يكابر فيه الا مكابر فان من الخير كل الخير ان تشتد الدعوة الى تفهم القرآن والاستبصار به والاستمداد منه وان من الشر كل الشر ان يترك السواد الاعظم من الامة التي تدين به وتقدسه في غفلة وجهل وعماء عما فيه يستغلهم المستغلون ويتحكم فيهم الجامدون و (٦) ان الدعوة الى القرآن لا يمكن ان تكون سببا في اي جمود وتوقف لان في ملهماته ومبادئه وأحكامه ما يبيح اقتباس كل صالح نافع من أي كان وبقطع النظر عن جدته وقدمه ، وفيـــه ما يأمر بنبذ كل ضار فاسد مهما كان أصله وقدمه ، وفيـــه ما يدعو بكل قوة الى الاخذ باحسن الوسائل والاستعداد في كل ناحية من نواحي الحياة واثارة الهمم وايقاظ النشاط في الناس ، وفيه ما يفتح الطريق واسعاً ليقوم بنيان الامة وكيانها على التفكير الحر والعلم الصحيح دون مانع ولا عثرة . و (٧) ان المادية والتفكير المادي قد طغى على المدنية الغربية حتى كاد يكون طابعاً عاماً لها وحتى كاد يعطل في الناس شعور الرحمة والبر والتسامح والوئام والاخوة الانسانية وحتى كاد يميت في الانسان — او هو اماته فعلًا — الضمير الانساني والحياء الانساني اللذين من طبيعتهما ان يمدا الانسان بنوازع الخير والبر والحق والاحسان والحشمة والتعفف والاتزان ، وحتى صار وجه الحياة الانسانية كالحاً وصارت الحياة جحيما لا يطاق لان ميزانها الوحيد صار هو المادة وما يلازمه من إلحاد بشع وقسوة وتناحر وانانية وجشع وضعف شعور واباحية واستغراق في الشهوات والفواحش وتحلل من كل رابطة من روابط التقاليد والآداب الكريمة والعواطف الانسانية ، وتحليل كل وسيلة في سبيل تحقيق نزوات النفوس ومطامعها ورغباتها ، وقد انفقد التوازن بالمرة تقريبا بين القلب والعقل والعاطفة والعلم مما أقضّ مضاجع العلماء والباحثين من الغربيين انفسهم ، فمن الحق والخير ان تحصن امتنا من هذه الاوبئة المهلكة ، ومن الشر والخطران يسترسل بعض مثقفينا في الدعوة الى الانسياق في تيار الغرب المادي بدون تبصر ولا روية وبدون حسبان للعواقب ، ومن الحق والخير ان نعمل جميعاً على اعادة التوازن المفقود والانتفاع بعثرات الغرب وعيوبه ، وتغذية ضمير امتنا وخاصة

ناشئتنا بما يقوي فيها توازع الخير والبر والحق والعدل والكرامة والحياء والاتزان وكل ذلك كفيل به الدعوة الى القرآن فيما نعتقد . و (٨) انه ليس لاحد ان ينكر ان للامجاد التاريخية اثراً عظيما في حياة الامم وقوة حيويتها ومقاومتها لصروف الدهر وموجع ضرباته ، وان الاسلام الذي جاء به الرسول العربي والقرآن العربي الذي نزل على هذا الرسول فخلدت به اللغة العربية وتقدست وكان له الاثر العظيم في حياة البشر وحضارتهم وتوجيههم نحو المثل العليا هو اعظم الامجاد التي تستطيع الامة العربية ان تفخربها وتعتز ، وان في استمداده في تحريك الامة العربية وبعثها من جديد اعظم الفوائد والوسائل واقواها، وان في محاولة اهمال ذلك او التهوين منه او تجاهله جحوداً منكراً لتلك الامجاد وتعطيلا جانباً لهذه الحوافز والوسائل والفوائد . و (٩) ان القرآن قد خلد حق العرب وشأنيتهم في الكيان الاسلامي في آيات عديدة منها ما هو صريح ومنها ما هو ضمني (١) ، وانه ليس من تعارض بين الدعوة اليه والدعوة الى القومية العربية والمجد العربي والفكرة العربية القومية ولا تدخل هذه الدعوة في متناول ما هو مشجوب من الدعوة الى العصبية لان هذا انما كان موجها الى العصبية القبلية التي كانت تقوم عليها تقاليد العرب والتي كانت تحول دون تكتل العرب ووحدتهم القومية مما كان من غايات الدعوة النبوية البارزة ومما هو معلوم لكل من درس الدعوة والسيرة النبوية . و (١٠) ان ما نوه به القرآن وخلده من شأن العرب في الكيان الاسلامي وتقديس اللغة العربية بسبب كونها لغة القرآن وتحميله لهم واجب الدعوة اليه وتقريره لمسؤليتهم عن ذلك قد جعل للعرب شأناً عظيما في العالم الاسلامي من الممكن ان يعود عليهم منه اعظم المنافع والمفاخر المادية والمعنوية والسياسية والاجتماعية ، فمن الشر والخطر والحمق ان يغفل هذا المعدن الغني وان لا ينتفع به الى اقصى حدود الانتفاع لصالح العرب

(١) تمعن في الايات التالية : «١» وكذلك جعلناكم امة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً البقرة ١٤٢ «٢» وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة ابيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس . الحج ٧٨ «٣» كنتم خير امة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله آل عمران ١١٠ «٤» ولتكن منكم امة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر واولئك هم المفلحون . آل عمران ١٠٤ «٥» وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون . الزخرف ٤٣

وصالح المسلمين وصالح الانسانية معاً . فقوة الفكرة الاسلامية قوتهم ومجدهـا مجدهم واعتلاؤها اعتلاؤهم وعليهم من اجل هذا الرجوع بالاسلام في معناه ومبناه واسسه واهدافه الى اصله الوضاء الصافي النقي وهو القرآن وتجلية مبادئه وبثهـا ورفع ما تراكم عليه من طبقات قرون الانحطاط والجهل والتغلب التي غطت محاسنه وغيرت معالمـه وكان من جرائها في كثير من الظروف من الصور والاشكال والمفهومات مالايمت الى ذلك الاصل الصافي الوضاء بسبب صادق ، وتجليته للعالم نوراً وهاجاً ومناراً هادياً فيه كل مبادىء الخير والحق والعدل والاخاء والمساواة والحرية والبر والكرامة والتضامن والمرونة لمتبعيه وللانسانية جمعاء والوقوف في وجه كل محاولة لتشويهه وتعطيله وقيام المشاهـد الروحية والدينية والتعصبية المتناقضة معه .

ويخيل لنا بل تكاد تكون على مثل اليقين ان الذين يقولون تلك الاقوال قد اخذوا باقوال ودعايات المغرضين من مبشرين ومستشرقين ومستعمرين وكائدين وماكرين ودساسين وهدامين واباحيين وملحدين من جهـة ولم يدرسوا من جهة اخرى القرآن دراسة كافية واكتفوا بما قرأوه من نظريات علماء الغرب وتوجيهاتهم ومن كتب التاريخ الغربي واحداثه وصوره بوجه عام ومن كتب التاريخ العربي الاسلامي بعهد العهود العربية الاولى وصوره واحداثه بصورة خاصة .

ومما يمكن ان يوجه الى الدعوة القرآنية من نقد وتحفظ ان في كل بلد عربي فريقاً عربياً او مستعربا غير مسلم وبتعبير ادق نصرانيا وان الفكرة العربية وحدها مجردة عن تلك الصبغة هي التي يجب ان تكون ناظم الدولة حتى ينسكب الجميع في بوتقتها ، وان من الممكن ان تؤدي تلك الدعوة الى إثارة العصبية الطائفيـة او تغليب الصبغة الاسلامية في الدولة العربية مما يتناقض مع ما ندعو اليه من وجوب شمول الفكرة العربية القومية والصبغة القومية العربيـة جميع العرب مسلميهم ونصاراهم على السواء، ومن بذل الجهد في ازالة النعرة الطائفية في الملل والنحل العربية

ولا نرى هذا وارداً وصحيحا . فليس من تعارض عـلى ما ذكرناه قبل بين الفكرة العربية والدعوة القرآنية ، وقد شرحنا الاسباب التي تجعلنا نرى وجوب بث الروح الدينية الصافية والمبادىء الدينية الكريمة في نفوس الناشئة العربية مسلمة ونصرانية وفوائدها ، والدعوة القرآنية ليست في الحقيقة الا من هذا القبيل ،

وإذا كانت تصطبغ بصبغة الشمول والسعة فان ذلك بسبب كون كثرة العرب الساحقة مسلمة اولا وبسبب طبيعة شمول المباديء الاسلامية القرآنية ثانيا . وفيما انطوى في التعاليم القرآنية والسنن النبوية والراشدية بالنسبة للمسالمين من غير المسلمين ضمانات وافية ، وهذه الضمانات تصبح أشد والزم بطبيعة الحال بالنسبة للنصارى العرب المندمجين في الفكرة القومية والمتشاركين المتواثقين مع المسلمين العرب في العواطف والمصالح والدماء والاوطان واللغة . ولا عبرة بما كان من مشاهد واحداث في التاريخ الاسلامي ، فان لذلك اسبابا سياسية وغير سياسية . وكان منها دسائس الدول الاجنبية بل وكانت هذه الدسائس هي السبب الجوهري الاقوى كما يعرف ذلك من درس هذا التاريخ .

ونظن اننا لا نعدو الصواب اذا قلنا ان ما في احداث التاريخ الاسلامي العربي الاولى من مفاخر وامجاد خالدة وما في الفكرة الاسلامية وصلتها بالجنس العربي والنبوة العربية والقرآن العربي من مفخرة للعرب في الدرجة الاولى جدير بأن يكون مفخرة للنصارى العرب كما هو شأنها للمسلمين منهم .

- ٥ -

استدراكات حول هذا الموضوع

ونريد ان نستدرك بعض الاستدراكات في صدد ما نحن فيه . فأولا إننا لا نقصد بما قلناه عن شأن العرب في العالم الاسلامي اننا نتطلع الى جامعة اسلامية سياسية عامة او خلافة اسلامية سياسية عامة يكون العرب على رأسها كما اننا نعرف ان مجال ذلك مسدود اليوم فلا محل للتخوف منه . ولا يقاس الامر بما كان عليه وضع السلطان الاسلامي عامة والسلطان الاسلامي العربي خاصة في سالف الدهر فاتساع السلطان العربي الاسلامي وشموله للاقطار التي دخلت في حوزة جيوش الفتح وقيام ذلك السلطان العام او تلك الخلافة الاسلامية السياسية انما

كان نتيجة لطبيعة وظروف الحركة الاسلامية واستمرارها طيلة المدة التي ساعدت الظروف على استمرارها هو كذلك امتداد لتلك الطبيعة والظروف . وقد انحلت هذه الجامعة السياسية العامة وانفصمت العرى التي كانت تجمع اقطارها فبرزت في كل قطر شخصية سياسية مستقلة اصطبغت مع الزمن بصبغة القطر القومية وشخصيته المتميزة واصبحت هي الراسخة المستقرة ، فليس من مجـــال الى عودة الحال كما بدأت كما انه ليس هناك باعث له وليس له ضرورة اجتماعية أو اقتصادية او حربية، وليس له موجب وأصل ديني والسلطان في الاسلام وازع يقوم لمصلحة المجموع ضمن نطاق صالحهم وخيرهم العام ، وليس من صفاته المحتمة أو من موجباته أن يكون جميع المجتمعات والاقطار الاسلامية تحت لواء سلطان واحد، وليس هناك ما يمنع ان تكون الاقطار الاسلامية مجموعات مستقلة متميزة بطبيعة الحال. وقد كان الامر كذلك منذ الف ومئتي عام ، وكان وقت تلقب فيه ثلاثة من ملوك العرب بلقب الخليفة وامير المؤمنين في ظرف واحد في القاهرة وقرطبه وبغداد .

على ان هذا لا يعني اننا لا نحبذ ان تقوم رابطة باسم رابطة الشعوب الاسلامية على اسس تعاونية سياسية واقتصادية وثقافية وعسكرية . بل اننا نعتقد ان في ذلك كل الخير للعرب خاصة وللمجموعة الاسلامية عامة . ولعل فيه علاجاً ناجعاً لوقاية العالمين العربي والاسلامي من استغلال الغرب وتحكمه وسيطرته ومكائده فضلاً عن فوائده العظيمة المشتركة في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافيـة . ولا حرج على العرب ان يكون ذلك غاية من غاياتهم بل نعتقد انه واجب عليهم ، وليس فيه تعارض قط مع الفكرة العربية الحديثة واهدافها ، وفيه مجال ليقوموا بالدور الرئيسي في هذا الميدان مستمدين من شأنيتهم التي خلدها القرآن لهم والتي يجب على المسلمين التسليم لهم بها ومن قدسية لغتهم التي يمكن ان تكون اللغـــة الرسمية لهذه الرابطة. وهذا العمل مستساغ اليوم بعد ان اتجه العالم الى عقد الاتحادات الكبرى بقصد ضمان المصالح المشتركة والسلامة المشتركة بين المجموعات المتماثلة أو المتجاورة ، ولا يمكن أن تكون الصبغة الاسلامية موضع نقد لان الاسلام كما

قلنــا ليس ديناً روحياً وحسب يجب ان لا يخرج من نطاق القلب والمسجد .
وثانياً ينبغي ان لا يفهم بما ذكرناه ان جميع الوان حياة المسلمين يمكن أو يجب ان تغدو مصبوغة بالصبغة الدينية . فنحن ابعد ما نكون عن هــذا القصد من جهة والشريعة الاسلامية هي من جهة ثانية مدنية في جل احكامها وما يتصل بمعاملات الناس وحقوقهم وسياسة الدولة ونظمها والاسرة وتشريعاتها كما يتضح لكل من أمعن النظر في النصوص القرآنية ، وليس فيها سلطات ومظاهر كهنوتية مما كان مثله يتصادم مع السلطات والمظاهر المدنية والسياسية في الغرب ومما أثار ذلك التيار الذي جرى في اتجاه ايجاب فصل الكنيسة عن الدولة والذي تأثر به على ما يبدو بعض كتاب المسلمين ومثقفيهم فصاروا يقيسونه على الاسلام ويدعون الى فصل الدين عن الدولة في الدول الاسلامية مع انه قياس مع الفارق على ما هو واضح ، كما انها ابعد ما تكون عن تلقين التعصب وضيق الافق نحو غير المسلمين الاصدقاء والموالين والمواطنين والمسالمين والمعاهدين بل اقوى ما تكون تلقيناً بالبر والعطف والوفاء والاحترام والمودة لهم وخاصة النصارى حينما تجلى وتفهم على حقيقتها .

الفصل السادس

الافكار السامة ووجوب الحذر منها

- ١ -

ومما يجدر الحذر منه ومكافحته الافكار المسمومة التي من شأنها ان تكون سوساً ينخر مقوماتنا وكياننا القومي وعثرة في سبيل تحقيق اهداف الحركة العربية الحديثة .

- ٢ -

الاقليمية الضيقة وتفنيدها

١ - منها الاقليمية الضيقة . ففي كل قطر من الاقطار العربية اناس يتجاهلون ما يربط بلادهم بالبلاد العربية الاخرى من روابط كثيرة تجعلها وطناً عربياً واحداً وتجعل اهلها امة عربية واحدة او يسيئون فهمها وتأويلها ويدعون الى الانضواء في النطاق الاقليمي الضيق وتفريغ الجهد لترقية بلادهم ومصلحته الخاصة وعدم هدر قواها خارج هذا النطاق .

وتصدر هذه الدعوة من هؤلاء الناس بأشكال واساليب متنوعة . فمنهم من يسوق التفاوت الثقافي والاقتصادي بين بعض الاقطار ليدلل على عدم امكان الانسجام وعبث المحاولة في سبيله . ومنهم من يسوق الظروف الجغرافية ويذكر ما يفصل بين الاقطار من ابعاد شاسعة ليدلل على ذلك. ومنهم من يسوق الظروف التاريخية واختلاف الاصول والحضارات والملهيات . ومنهم من يرى في الاندماج في فكرة العروبة العامة متاعب ومشاكل يجب ان يكون قطرهم في نجوة منها . ومنهم من يرى الفكرة العربيةهي الفكرة الاسلامية وبالتالي يرى فيها صبغة دينية اسلامية . ومنهم من يرى انه لا يمثل الفكرة العربية العامة إلا وحدة اللغة دون وحدة الجنس والاصل والثقافة والمشارب مما لا يصلح ان يكون وحده اساساً صحيحاً لوحدة قومية . ومنهم من يرى لاسباب جغرافية وتاريخية واصولية جنسية ان الهلال الخصيب الذي يشمل العراق والشام وحدة قائمة بذاتها فقط وان تلك

الاسباب لا تجعل الانسجام العربي العام مبرراً ولا ضرورياً ولا تسمح به .

وواضح ان في هذه الاقوال مغالطات ومفارقات كثيرة .

فالتفاوت الثقافي والاقتصادي قائم على اشد ما يكون بين طبقات كل قطر من اقطار العرب نفسها ؛ فثلاثة ارباع المصريين مثلاً في جهل وفقر مريعين والتفاوت بينهم وبين الربع الباقي اشد في جملته من التفاوت بين مصر كمجموعة وبين الحجاز واليمن ولا نقول بين سوريا ولبنان. ومثل هذا يمكن ان يقال بالنسبة الى الاقطار الاخرى . والتفاوت الاقتصادي والثقافي المذكور ليس اصلاً طبيعياً مع ذلك في جبلة الامة العربية ففي الامكان زواله . ولا يصح ان يكون مبرراً لعدم شمول الفكرة العربية لمختلف الاقطار العربية او دعوى استحالة الانسجام بينها .

ووسائل الاتصال العصرية قد طوت المسافات وقربت الابعاد . وليست المسافة بين آخر واول نقطتين في مصر شمالاً جنوباً اقل من المسافة بين القطر المصري وسوريا والحجاز واليمن . وليس من المستحيل ان ترتبط الاقطار العربية في المستقبل بل وفي المستقبل القريب بالخطوط الحديدية فضلاً عن الخطوط الجوية والطرق المعبدة فيقرب ما كان بعيداً ويسهل ما كان صعباً . ويضاف الى هذا ان البلاد العربية ليست بدعاً، فالأبعاد بين اول واخر نقطة شرقاً لغرب او شمالا لجنوب بين اقاليم روسيا أو الهند او الصين او اميركا الشمالية لا تقل عن اول وآخر نقطة بين الاقطار العربية شرقاً لغرب او شمالاً لجنوب بل ومنها ما يزيد عنها فيها، ولم يكن ذلك البعد وارداً في صدد ما هو قائم من وحدة هذه الممالك الجغرافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية. وليس صحيحاً في حال ان الفكرة العربية هي الفكرة الاسلامية نفسها وبالتالي هي فكرة دينية . ولو كان هذا صحيحاً لاقتضى ان تشمل الفكرة العربية البلاد الاسلامية غير العربية مما لا يقبل به احد . وكل ما هنالك ان اكثرية العرب الساحقة مسلمون وهو شيء وذاك شيء آخر كما لا يخفى . ولم ينحصر نشوء الفكرة العربية الحديثة في المسلمين بل شارك فيه النصارى العرب ايضاً اصلاً وتطوراً . وليس صحيحاً كذلك انه لا يمثل الفكرة العربية العامة إلا وحدة اللغة . فالوطن العربي الكبير هو منبت أو موطن الجنس العربي ومهاجر موجاته التاريخية التي سميت خطأ بالموجات السامية قبل الاسلام بمدة طويلة. وقد اصطبغ بالصبغة العربية الحاسمة قبيل الاسلام وبعده .

ويجمع سكان هذا الوطن الكبير تاريخ واحد يمتد الى ثلاثة عشر قرناً بدون انقطاع كما يجمع بينهم وحدة روحية وثقافية وتشريعية ممتدة كذلك الى مثل تلك القرون الطويلة ، بحيث ظلوا يعيشون في جو تاريخي وروحي وتشريعي وثقافي واقتصادي وسياسي واحـــد تقريباً ؛ وهو بعد متصل الاجزاء بدون اي فاصل جغرافي او عنصري . وكل هذا يجعل مصالحه واحدة ايضاً ؛ ويجعل القضية العربية العامة او الفكرة العربية القومية العامة من القوة والعمق والصحة والبداهة اكثر مما هي في كثير من القضايا القومية الاخرى . . وهـــذا الذي نقوله يساق ايضاً الى الذين يسوقون الظروف التاريخية واختلاف الاصول والحضارات والملهيات التي كانت في العهود التاريخية القديمة حيث يجعل زعمهم غير صحيح . وهذا فضلاً عن ما في تخطي دهر طويل يتمثل في ثلاثة عشر قرناً بعد الاسلام الرجوع الى ما قبله من مكابرة ومفارقة في حين ان الوحدة القومية في البلاد الاخرى موطدة بسبب وحـدة لغة ووطن وتاريخ واصول لا ترتفع الى اكثر من مئات قليلة من السنين . وكذلك يساق هـذا القول الى الذين يقصرون مدى الوحدة القومية على الهلال الخصيب . ويقع هؤلاء في مفارقـــة اخرى . فهم يتخطون القرون الثلاثة عشرة المذكورة وآثارها التي وطدت الوحدة القومية بين الاقطار العربية جميعها من مختلف عناصرها ويتجاهلونها ليقولوا ان وحدة الهلال الخصيب قائمة على وحدة الاصول المتمازجة التي سكنت فيه من اشوريين وكلدانيين وبابليين وآراميين وفينيقيين وكنعانيين ، ويتناسون ان هذه الاصول ترجع الى اصل واحد هو الجنس العربي المسمي بالجنس السامي والذي يسكن انساله اليوم جزيرة العرب وغير جزيرة العرب من الاقطار العربيـة الافريقية بالاضافة الى سكان الهلال الخصيب ، والحجة دامغتهم في شمول النظرية التي يسوقونها على ما فيها من تحفظ لثلاثة عشر قرناً . ولقد انشأ الذين يقولون بهذا القول حزباً له فروع في مختلف بلاد الشام واستطاعوا ان يضموا اليه عدداً غير قليل من الشباب من مختلف الأنحاء والاديان وبدوا كأنهم اصحاب عقائد ومبادىء يدعون اليها ويدافعون عنها مع ما في دعوتهم هـذه من تلك المفارقات والمغالطات . ومن عجيب امرهم ان دعوتهم في بدء امرها كانت مقتصرة على سوريا الطبيعية ، وكانوا يخرجون العراق منها كغيره من الاقطار العربية لأسباب ثقافية واقتصادية وجغرافية وتاريخية واصولية بل ولم يكونوا يبالون بالعروبة ويقولون

انها قد طرات على سوريا طروءاً ، ثم قبلوا أن تتصف سوريا بالعروبة وظلوا على عدم امكان الانسجام بينها وبين الاقطار العربية ، ثم إذا هم يعتبرون العراق من سوريا حيث صاروا يطلقون اسم سوريا الطبيعية على الهلال الخصيب الذي يشمل العراق ، ويقولون بالعرب والعروبة ورسالة سوريا الخالدة في قيادة الامة العربية دون ان يعدلوا عن قولهم بامة سورية تامة ووطن سوري تام ودون ان يقولوا كيف يمكن التوفيق بين هذا وذاك ، حتى يبدو من هذا التبديل والتعديل في اهداف الحزب ومبادئه ومن هذا التناقض ان قصارى ما كان يهم له الذين قاموا بالحزب وجعلوا منه مؤسسة ذات نظم ومظاهر شبيهة بالنظم والمظاهر النازية ان يكون لهم منظمة ذات نظم ومظاهر خاصة وحسب ، لتنشط في سبيل ما ترسموه من خطط واهداف مما جعل بعض الناس يغمزون بهم وينسبون لهم مآرب خاصة .

اما القول بأن الاندماج في الفكرة العربية العامة يجر المتاعب والمشاكل فهو ظاهر الوهن والسقوط وخاصة في زمن يحتقر فيه ويستذل القليل الضعيف ويعتز فيه الكثير القوي، وتتكتل فيه الامم المتشاكلة والمتجانسة بل المتجاورة. وها هي روسيا والصين والهند والولايات المتحدة تتألف من مئات الملايين بينما هي شاسعة الاقطار متباعدة الاطراف حتى ليكون كل منها قارة بذاتها ، وفيها إلى هذا الكثير من الطوائف والاجناس والعديد من اللغات والاديان . .

ولقد ألمنا بشيء من هذه الافكار ونبهنا على ما فيها من مغالطات ومفارقات ومناقضات في الجزء الثاني من هذه السلسلة وفي أحد فصول هذا الجزء السابقة ، وقلنا انها نفث من سموم المستعمرين والشعوبيين والمبشرين أعداء العرب والعروبة واعداء الاسلام الذي يدين به كثرة العرب الساحقة .

ومع انهم قلة بين الجمهرة العربية ، وان الشعور القومي العربي العام قد غدا شاملاً مختلف الاوساط والاقطار كما قلنا في مناسبة سابقة فان المصلحة القومية توجب على شباب العرب القوميين ومنظماتهم ان لا يغفلوا عن سمومهم ومغالطاتهم ومفارقاتهم لانها مهما يكن شأنها لا بد من ان تترك أثراً وان تكون عراقيل وعقداً نفسية وفكرية في طريق الحركة العربية الحديثة واهدافها . .

٣ فكرة الاممية

٢ - ومنها فكرة الاممية والانسانية العامة والدعوة الى نبذ الفكرة القومية ونسبتها الى الرجعية والقرون المظلمة ووصفها بعدم الاتساق والانسجام مع مقتضيات العلم والنور والحرية .

اننا لا ننكر ما في الفكرة الانسانية والاخاء الانساني التي الشامل لا تتقيد بقيود الجنس

والحدود الجغرافية والتي تستهدف تضامن بني البشر جميعا لخير البشرية وتكاملها والقضاء على اسباب النزاع والاحقاد والمطامع والشهوات المستحكمة في مختلف الامم والطبقات والافراد ، وسيادة السلام والمحبة بينهم من خيال أخاذ يتصل بالمثل الانسانية العليا التي طالما تكلم فيها ودعا اليها كبار المصلحين وعظماء الفلاسفة في مختلف الاجيال، كما اننا لا ننكر انه قد يوجد في كل بلد وامة من البلدان والامم القوية فضلاً عن الضعيفة جماعات تعتنق هذه الفكرة باخلاص وتدعو اليها عن عقيدة وايمان

غير ان الذي نعتقده ان الذين هم في حالة مثل حالتنا وفي موقف مثل موقفنا ضعفاء في بناهم وقواهم ، وموضوع تشاد ومطامع بين الاقوياء الذين يتربصون بهم الدوائر ويتوسلون بكل وسيلة الى السيطرة عليهم واستغلالهم والتحكم فيهم لا يصح في حال ان تروج بينهم مثل هذه الفكرة . لان انبثاثها فيهم غير مؤد الى نتيجة عملية ايجابية في صددها بالذات في حين انه مؤد حتما الى اضعاف التماسك القومي ثم الى اضعاف المقاومة القومية فيهم في وقت هم أشد ما يكونون فيه حاجة الى قوة التماسك والمقاومة القومية .

هذا الى ان هذه الفكرة في سعتها التي ذكرناها مقدر عليها ان تبقى مثلاً أعلى متصلاً بالنظريات والدعوة والاماني اكثر منها داخلة في نطاق العمل والحقيقة الراهنة فالفوارق الطبيعية والاخلاقية والاجتماعية والروحية والجغرافية والتاريخية واللغوية قوية الجذور عميقة الاصول في البشر الى درجة تجعل قيام إخاء إنساني عام وشامل يزول به التنازع وتنسل منه الاحقاد وتتضاءل فيه المطامع ويكون الحق والسلام والمحبة هي السائدة هو في حكم المستحيلات وعلى الاقل الى الوف السنين . ووجود ضعيف وقوي وفقير وغني وجاهل وعالم وغبي وزكي وبليد ونشيط وقليل و كثير هو في حكم الناموس الطبيعي الذي لن يتبدل والذي سيظل يعمل عمله في الانسانية

والى هذا فان الامم القوية التي يقوم من بينها الدعاة الى هذه الفكرة والتي هي في حالة من القوة والكثرة والمكانة تجعلها قدوة وتسمح لها ان تتبنى الفكرة دون ان تخشى نتائجها من ضعف وتراخ وتعرض للارتكاس شديدة التمسك بمقوماتها القومية دائبة على التشاد والتنازع والرغبة والسعي في التحكم والتبسط في الارض وطبعها بطابعها القومي الخاص مهما استعمل كل منها ما يستعمله من الوسائل والدعايات المتنوعة الخداعة التي لا تخفي ما تحتها من راهن الحقائق وواقعها وان الامم الصغيرة والضعيفة في مختلف انحاء الارض وسواء منها التي هي في أرقى درجات الحضارة والعلم والرفاه او المتأخرة فيها شديدة التمسك بمقوماتها القومية ولا ترى في هذه الفكرة بديلاً عنها .

ولقد رأينا روسيه التي تبنت الشيوعية المنطوي فيها معنى من معاني هذه الدعوة في اثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها تعمد الى النفخ في نار القومية لالهاب عزائم

بنيها في النضال من جهة وتعـــود من جهة اخرى الى سياستها التقليدية العنصرية فتبسط ظلها على اوروبا الشرقية التي فيها شخصيات وطنية وجغرافية خاصة متذرعة بما يجمع بينها من صلات عنصرية سلافية كما انها لا تتوانى في تربص الفرص لتحقيق ما اعتادت السياسة القيصرية القديمة ان تترسمه من خطط وخطوات استعمارية بحجة ضمان ما تسميه حدودها القومية ومجالها الحيوي القومي ايضا .

ولقد رأينا الولايات المتحدة الامركية التي كانت منطوية على نفسها والتي كانت أعرق الامم حرية وأشدها إنطلاقا وأبعدها عن فكرة الاستعمار والاستغلال وأقلها تقيداً بتقاليد قديمة قومية قد غيرت اثنـاء الحرب المذكورة وبعدها من ذهنيتها وأخـذت تسير سيرة الامم القوية الاستعمارية وتحاول بسط سلطانها ونفوذهـــا الاقتصادي والسياسي او بالاحرى الاستعماري والاستغلالي على العالم وجعل كلمتها هي الحاسمة في مشاكله وقضاياه دون مبالاة بما تقترفه في سبيل ذلك من مناقضات الحرية والحق والشرف والعدالة والنزاهة ودمغ محاولاتها بطابع ذاتي وقومي خاص حينما رأت نفسها أقوى من غيرها من الامم وأغنى حتى إنها لتتشبك في نزاع خفي قوي مع بريطانية التي هي امها لغة ودما وتقاليد بسبيل ذلك .

وقد يرد على البال ان الدعوة الى الفكرة الانسانية والاممية العامة من مصلحة الامم الضعيفة المضطهدة لانها اشد من غيرها حاجة الى شيوع هذه الفكرة ورسوخها حيث تخلص بذلك مما يلم بها من ضعف واضطهاد وتضمن لنفسها ما يعز عليها في نظام الاجتماع الراهن من المساواة والحرية ضمن المجموعة البشرية . وعلى احتمال صحة هذا الوارد فان خطر هذه الدعوة اول ما يصيب الامم الضعيفة المضطهدة لانها تبث فيها ضعف المقاومة والتمسك والامل الكاذب الذي لا يغني شيئا في مجال واقع نظـام الاجتماع الراهن . واذا كان اليهود هم اكثر الدعاة الى هذه الافكار وامثالها فان ما كان يحفزهم الى ذلك وضعهم الاجتماعي الخاص من كونهم مشتتين في كل أرض ومعرضين لمختلف انواع الاذى بقطع النظر عن أسباب ذلك وبواعثه ، وليس لهم كيان قومي يهمهم ان يحافظوا عليه . وهم إنما يبثون هذه الافكار في الامم القوية وذلك من مصلحتهم ومفيد لهم دون ان يضرهم في حال . على انهم وهم الذين تبنوا بث مثل هذه الافكار وانشاء المنظمات المتنوعة الاسماء بسبيلها قد اخذوا يغيرون نهجهم الآن بعد ان صار لهم كيان ووطن قومي وصاروا يرون وجوب تقوية الدعوة والمقاومة القومية في امتهم، مما فيه الدلالة على ان وضعهم الاجتماعي الخاص هو الذي كان يملي عليهم بث تلك الافكار مما لا يمكن ان يكون سبيلاً يحتذيه العرب ولهم مالهم من الكيانات والمصالح القومية وهم معرضون لما هم معرضون له من المطامع والتربصات

فالواجب القومي يقضي والحالة هذه على منظماتنا وحكوماتنا ومؤسساتنا

الثقافية والادبية والصحافية ان تتضامن في التنبيه على ما في إنبثاث هذه الفكرة من اخطار على كياننا القومي ودرئها وسد الثغرات التي يمكن ان تنفذ منها وان لا تستهين بضعف تيارها وضيق ساحتها الآن . فاهمالها قد يساعد على توسيعها ولا سيما ان اليهود الذين هم ابرع من يمكر ويكيد ويصول ويجول في هذا الميدان والذين قد توطد بيننا وبينهم من الحقد ما توطد سيضاعفون جهودهم ومكرهم وكيدهم لنا من هذه الناحية بالاضافة الى النواحي الاخرى لانهم يعرفون ان كل ضعف يلم بنا هو قوة لهم وان كل تماسك ومقاومة فينا هو خطر وضرر عليهم . ومثل هذا يقال بالنسبة للانكليز والافرنسيين بنوع خاص الذين يتربصون بنا الدوائر ويهدفون الى إضعاف بنيتنا القومية ليضمنوا بقاءنا في فلكهم من حيث ندري ولا ندري .

ومن تحصيل الحاصل بأن نقول ان هذه الدعوة هي غير الدعوة الانسانية البارة الرحيمة التي تهدف الى توطيد المساواة بين أبناء الوطن الواحد ومساعدة الضعفاء والبائسين والمحرومين وإنالتهم حقهم المعقول في الحياة . وهي كذلك غير الدعوة التي تهدف الى تعاون الامم في مجالات الخير والبر والرحمة والسلام العام ايضاً او التي تهدف الى بث فكرة المساواة والحرية بين بني الانسان وبث فكرة مساعدة قادريهم على البر في ضعفائهم وبائسيهم ومحروميهم ايضاً بقطع النظر عن الفوارق الجنسية والدينية واللونية. فهذا كله سائغ وواجب معاً على شريطة واحدة هي ان نستوحيه من منابعنا المقدسة التي هي معين لا ينضب والتي هي أقوى من دعا اليه بأسلوب بلغ الغاية في الروعة والجلال والشمول وان لا ننساق فيه وراء دعوات أجنبية مريبة تحتوي مبادىء وأهدافاً متناقضة جميعها او بعضها مع مبادىء تلك المنابع ومع مقوماتنا ومصالحنا القومية معاً .

٤ الدعوة الى الاستغراب

٣ – ومنها الدعوة الى الاستغراب، ونعني الدعوة التي تستهدف احتذاء كل ما عليه الغرب من مظاهر مدنيته وعلومه وعاداته ووسائله واساليبه بدون قيد وشرط تفريق وانتباه

فهناك امور عامة مشتركة ليست مطبوعة بطابع امة خاصة ولا تبقى كذلك حيث تتلقاها الامم عن بعضها وتحتذيها بسهولة ويسر إذا ما سارت في طريقها واستكملت اسبابها المادية بدون حرج ولا ضرر ، كالمسائل العلمية والفنية والصناعية فالحاكي والمذياع والنور الكهربائي والسيارة والطيارة والقطار والباخرة والعلوم الرياضية والفلكية والفيزية والكيماوية والكهربائية والميكانيكية والطبية والاجتماعية والنفسية والتاريخية والحقوقية والسياسية وسائر وسائل العلم والصناعة ومنتجاتها وأساليبها الخ كل هذا مما لا يمكن ان ينطبع بطابع قومي خاص او مما لا يمكن ان

يبقى مطبوعا بطابع الامة التي نشأ فيها لاول مرة ، واكثرها وان كان اليوم غربيا فهو ملك الانسانية المجتهدة الدؤوبة التي تتصل اصولها بالاجيال، والتي قد تكون اشتركت في اصلها وتطوراتها جميع الامم التي كان لها شأن ما في تاريخ الحضارة والمعرفة والتي لا شك في ان لامتنا العربية حصة غير يسيرة فيها . فنحن لا نرى فقط مانعا من احتذائها واقتباسها والسير فيها أبعد شوط ممكن بل نرى ذلك واجبا قوميا محتما. فهي من جهة اسباب تفوق الغربيين علينا هذا التفوق العظيم الذي نلمسه في كل مظهر من مظاهر الحياة العملية والنظرية ، وضعفنا فيها من اهم اسباب ما نحن فيه من ضعف وفقر وما نحن معرضون له من استغلال وتهضم ، ولن نزال كذلك حتى نأخذ حظنا منها ونباري الغربيين فيها مباراة تامة تجعلهم ينفضون يدهم من امم وبلاد صغيرة قد اخذت حظها التام من ذلك كله وبارت به الامم الكبيرة فلم يبق مجال لهذه في سبيل التسلط والاستغلال عندها ، وهي من جهة ثانية وسائل واسباب رفاه وقوة وتمكن وحضارة وعمران ومعرفة وسعة افق ونظام من حقنا وواجبنا معاً ان نأخذ بنصيبنا منها على اوسع ما يمكن لنستمتع بنعيم الحياة وعزها وسؤددها واطايبها استمتاع الانسان العاقل لا البهيمة البلهاء. وليس في تقاليد آبائنا ومنابع شريعتنا النظرية والعملية ما يمنع من ذلك البته ، بل فيها كل ما يحض على الاقتباس والاحتذاء فيما يكفل لنا القوة والسؤدد والرفاه والسعادة المادية والمعنوية وقد يدخل في هذا القسم مسائل ووسائل اللباس والاثاث والبناء والطعام والشراب فكل ما ليس فيه مغايرة للمحظورات الدينية التي حظرت في الحقيقة للمصلحة الانسانية والصحية والخلقية والاجتماعية ليس من مانع من اقتباسه واحتذائه بل وفي هذا الاقتباس خير للامة والبلاد من ناحية انسجامها واتساقها في هذه الوسائل والمظاهر وخاصة اللباس حيث ان من الثابت ان الزي الغربي اي السروال الضيق والسترة او القميص ادعى الى سهولة الحركة والعمل من القنباز والاردية والسراويل الفضفاضه . اما الرأس فان تنوع اشكال غطائه في مدننا يجعل المنظر متنافراً جداً حيث يستطيع المراقب ان يعد عشرين نوعاً منها من الطربوش الى اللبده الى القاووق الى القلبق الى الكوفية والعقال الى الكوفية اللف بدون عقال الى الطواقي والعمائم المتنوعة الاشكال والالوان ولقد اخذت العادة تجري على كشف الرأس وليس لهذا مانع من دين ولا ذوق ولا تقليد . وللذين يودون ان يغطوا رؤوسهم في المدن وخاصة

في شدة الحر والبرد ان يستعملوا القبعات ، فليس لذلك كذلك مانع من دين ولا ذوق ولا تقليد ، وقد اخذت قوات الامن والدفاع ضباط وانفار يستعملونها فجاءت مقبولة غير مستنكرة . ويعلم الجميع ان الطربوش الذي يغطي العرب بـه رؤوسهم في المدن ليس عربيا في اصله . وقـد خصصنا المدن بالذكر لان الكوفية والعقال زي جميل ونافع في القرى والبادية .

وهناك امور ليست امية مشتركة وهي مطبوعة عند كل امة بطابع تلك الامة الخاص كالاخلاق والعادات والتقاليد والآداب والذوق والروح. فليس من إمكان للمراء في ان هناك خلقاً وتقاليـــد وآداباً وذوقاً وروحاً انكليزية ومثلها افرنسية ومثلها المـانية ومثلها روسية الخ ، وليس هناك مجال للمكابرة في ان للعرب ايضا خلقا وتقاليد وآدابا وذوقا وروحا خاصة بهم ، وهذه الامور هي مقومات كل امة ومنبع الهامها ودعامة قوتها المعنوية . واصولها أو جراثيمها راسخة عميقة ترجع الى الاحقاب الطويلة المتباعدة ويشترك في تكوينها وترسيخها عوامل كثيرة ذاتية من الدم الى الجنس الى البيئة الى الدين الى اللغة الى التاريخ الى الحروب الى القصص والسجايا والمفاخر الخ حتى تصبح معقدة تعقيداً عجيبا وتصير من اجـل ذلك طابع الامة اللاشعوري الخاص في الوقت نفسه . فالاستغراب في هـذه الامور أي تخلي العربي عن مقوماته هذه وتحليه بمقومات امـة غريبة اخرى مؤد اولا الى الارتباك والتشويش وغـــدو اذواقنا واخلاقنا وتقاليدنا وثقافتنا وآدابنا مرقعة متناقضة ، وثانيا الى إضعاف مقوماتنا وبنيتنا ومقاومتنا القومية ، ولن يؤدي في حـال الى إستبدال تقليد بتقليد وذوق بدوق وروح بروح وأدب بأدب إستبدالا صادقـــا وشاملا للأسباب والتعقيدات التي ذكرناها .

ومما يؤسف له ان شيئاً من هذا قد طرأ على بعض بيئاتنا بتأثير ضعف الشعور بالذاتية القومية وناموس تقليد الاقوى ، مما كان أثراً من أثار الدعايات والدسائس والاغراء والمدارس الاجنبية والتبشيرية فصار ابناء هذه البيئات مرقعين متناقضين في أذواقهم وميولهم وأخلاقهم وتقاليدهم وروحهم ، اختلطت فيها الطوابـــع الانكليزية والافرنسية والالمانية والاميركية والطليانية اختلاطاً ظاهريا مزيفاً صاروا به اعجوبة واضحوكة ، وضعفت به مقوماتهم ومقاوماتهم القومية وكادوا يفقدون به ذاتيتهم .

فالواجب القومي يملي علينا التفريق بين الامور وعدم الاندفاع مع الريح كيفما هبت ، والواجب يملي على منظماتنا وحكوماتنا ومؤسساتنا الثقافية والاجتماعية والادبية والعلمية والصحافية الاهتمام لهذه الناحية إهتماما كبيراً وللتضامن في التنبيه على ما فيه من أخطار على كياننا القومي ودرئها وسد الثغرات التي يمكن ان تنفذ منها كذلك ولو كانت الآن ضيقة محدودة والاحتفاظ بطابعنا القومي الخاص فيما لنا من تقاليد وعادات وثقافة وأدب وفن وذوق وروح وخلق وسجايا مما يمكن ان يذكر امثالا منه كعواطف المروءة والغيرة والاريحية وتقاليـــد الضيافة والجوار وروابط الاسرة وحياة البيت والحياء واحتشام المرأة وتحفظها وقوامة الرجل على البيت واستقلاله بعبء نفقاته الخ الخ وتقوية المهمل الضعيف منها إذا كنا نريد ان نكون امة قوية محترمة بين امم الارض الكبرى .

واذا كان هناك ما يجب تعديله مما هو غير مستحب او غير متسق مع ظروف الزمان وضروراته وليس في تعديله حرج ولا ضير فان هذا يجب ان يجري بكل احتياط وتؤدة وروية وان يكون منسجما ومتفقا مع ارواحنا وسجايانا وما تتحمله اصول تقاليدنا الحسنة ولا يخرج عن ملهمات منابعنا وان لا يترك فوضى دون ما ضابط ولا ناظم .

على اننا لا نخشى التخطئة إذا قلنا ان كثيراً مما يرى مكروها او معوجا مما عندنا من عادات وأذواق وأفكار شخصية او اجتماعية او بيتية لا يمت الى اصول تقاليدنا ومنابعها بسبب وثيق، وهو طاريء علينا في أدوار انحطاطنا الاخـــيرة وأثر من آثارها ، واننا إذا رجعنا الى منابعنا وملهماتنا وعصورنا الاولى استطعنا ان نجد معيناً لا ينضب نستمد منه القوة والجدة والحيوية ، كما اننا إذا تفقدنا تقاليدنا وأخلاقنا وأذواقنا ومقوماتنا وآدابنا القومية وجدنا في اصولها ومقاصدها كثيراً مما يجب ان نحتفظ به فخورين معتزين .

الفصل السابع

مسألة المرأة العربية

- ١ -

خطورة هذه المسألة وصلتها بالحركة العربية

ولقد اشرنا الى مسألة المرأة وما يجب ان يحتفظ به من التقاليد العربية في امرها اشارة عابرة . وليس هذا كل شيء في شأنها بطبيعة الحال . فان مسألة المرأة العربية مما يجب ان يكون له حيز مهم في حركتنا القومية ومناهجها . فهي احد الركنين اللذين يقوم عليهما بنيان الامة فضلاً عن كونها الام والمربية وربة البيت . وكل هذا يسبغ على مسألتها خطورة عظمى ويجعل لها آثاراً في حاضر الحركة العربية ومستقبلها تختلف قوة وضعفا وسلبا وايجابا حسبما تكون عليه حالة المرأة العربية وحركتها وسيرتها ومركزها في الدولة والمجتمع والاسرة .

ولقد كان هذا الموضوع من المواضيع التي اهتم لها الناهضون من الامة العربية منذ بدء اليقظة الحديثة ، وكان من أهم المواضيع التي دار حولها البحث والجدل والاخذ والرد والتجاذب والتدافع باساليب عديدة ولاعتبارات متنوعة .

- ٢ -

بدء الحركة النسائية العربية الحديثة

فالشباب العرب الذين احتكوا بالغربيين أو تعلموا في بلادهم لمسوا ما تقوم به المرأة الغربية من أدوار عظيمة في حياة المجتمع عامة وفي حياة البيت وتربية النسل خاصة ، وما تتمتع به من نصيب كبير من الحرية وما هي عليه من الثقافة التي تساعدها أهم مساعدة على القيام بتلك الادوار ، فاخذوا ينعون جهل المرأة العربية وخاصة المسلمة وإهمالها وما هي فيه من تضييق وحرمان وعزلة وقيود ، ويدعون الى تعليمها وتحريرها ، وأخذ فريق منهم يدعو الى سفورها ويرى انها لا يمكن أن تؤدي الادوار العظيمة التي تترتب عليها في المجتمع والاسرة ولا ان تنال ما ينبغي أن تناله من العلم والثقافة والمركز الاجتماعي الا به .

ولقد نقل في هذه الاثناء عن الغرب ما يوجهه كتابهم وباحثوهم ومفوضوهم الى الشريعة الاسلامية من انتقاد، ويتهمونها به من جمود واستبداد بشؤون المرأة من حجاب وقيود وتجهيل وعزلة وطلاق وارث وتعدد الخ فانبرى الكتاب والعلماء المسلمون للرد عليهم، يدفعون عن الشريعة الاسلامية ما نسب اليها من جمود وقصور واستبداد وقيود، ويبينون الحكمة فيما احتوته من شؤون الطلاق والتعدد والارث، ويقررون انها لا تمانع بل تحث على تعليم المرأة وانها قد ضمنت لها من الحقوق مالا نظير له في الغرب، ويضربون الامثال على ما كان لها في العصور الذهبية الاسلامية من مكانة وحرية وأثر علمي وأدبي وسياسي، وينسبون ما يمكن أن يكون واقعا عليها من التشديد والتقييد والارهاق الى الجهل الذي ألم بالمسلمين في سلسلة قرون انحطاطهم وجمودهم، ويؤيدون الدعوة الى وجوب تعليمها وتمتعها بما قررته لها الشريعة من حقوق وحريات، وينبهون على قبح ما اعتيد عليه من عادات مغايرة للشريعة نصا وروحا.

- ٣ -

آثار هذه الحركة

ومن الحق أن نسجل بان ما كان من أخذ ورد وبيان حول حقوق المرأة وما أورد في هذا الصدد من النصوص والامثلة الشرعية والتاريخية قد جلا تلك الوصمة التي حاول الغربيون الصاقها بالشريعة الاسلامية جهلا او عمداً، وجلّى بصورة ساطعة الاسباب الحكيمة والشروط الشرعية المعقولة في الطلاق والتعدد والارث، وكان عاملا من جهة اخرى - مع تقدم الزمن والتعليم وانتشاره - في تقدم المرأة في مضمار التعليم اشواطا غير يسيرة، وفي انتشار النفرة من التعدد والطلاق بدون سبب معقول وشرعي، وفي تبدل موقف الرجل من المرأة ومعاملتها بالحسنى والاعتراف بحقها ودورها في الحياة وخاصة في الاوساط النيّرة، فانحلت عقد كثيرة في صدد تعليم الفتاة وتربيتها وثقافتها وزواجها وطلاقها وارثها وحريتها وحقوقها، وضعفت أو زالت عادات قبيحة ظالمة، وذهنيات عجيبة كريهة نحوها، وهيئت لها هذا المجال الواسع الذي هي فيه اليوم.

الحجاب والسفور

واذا كانت معركة السفور والحجاب ظلت ناشبة مدة غير قصيرة بل وما تزال قائمة الى الآن في مختلف الاوساط والانحاء الاسلامية مع ما طرأ عليها من خفة حدة وتراخ فان ذلك راجع لاسباب اخرى . فتقليد الحجاب تقليد قديم استقر في الاذهان ان له اصلا دينيا شرعيا ، وهو ذو علاقة وثقى بموضوع العرض الحساس وما يمكن ان يجر اليه التخلي عنه من امور لا تهضم بسهولة ويسر، وضيق نطاق التعليم والثقافة وقوة أثر الذين كانوا يلتزمون الجانب الحجابي ويرجعونه الى اصل ديني وقيام عهد دولة الخلافة التي كانت روح المحافظة فيها هي السائدة المتحكمة ، كل ذلك كان له اثره بطبيعة الحال . ومع ذلك فان طرفي المعركة كانا متفقين أو كالمتفقين على الاسس الاخرى من ناحية ضمان الشريعة لحقوق المرأة ومركزها وتعليمها والدعوة الى ذلك اولا والاعتراف بان ما هي فيه من مركز غير مستحب هو مناقض لنصوص الشريعة وروحها ثانيا ولما كانت عليه حالة المرأة المسلمة في عصور الاسلام الذهبية ، ثالثا . وهذا مما ساعد ولا ريب على انحلال تلك العقد وزوال كثير من تلك العادات والذهنيات البغيضة .

ونستطرد الى القول ان الذين نسبوا الحجاب او بتعبير ادق النقاب الى اصل ديني وقرآني حملوا النصوص ما لا تحتمل، وغفلوا عما كان عليه الامر في صدر الاسلام الذي كان هو الاقرب عهداً وفهما للقرآن ، ولم ينفذوا الى ما هناك من تعارض وتناقض بين ما قرروا بحق من صلاحية الشريعة الاسلامية للخلود وتمشيها مع كل زمن ومكان وبين فهم كونها قد فرضت ازياء واشكالا خاصة في اللباس لا يمكن ان تنفلت من نواميس التبدل والتغير والتطور فالايات القرآنية لم تكن في صدد فرض زي خاص للمرأة المسلمة ثابت على الدهر ، وانما هي في صدد ظروف خاصة في زمن خاص لمصلحة خاصة أو في صدد الحث على التعفف والاحتشام والابتعاد عن مواقف الريبة والاذى أو في صدد تنظيم دخول الناس على بعضهم كما يمكن ان يظهر ذلك واضحاً لكل من يمعن النظر فيها، ثم هي ليست على كل حال في صدد لف المرأة المسلمة بذلك اللفاف الذي سمي بحق الزكيبة . وتنقيب وجهها بالنقاب وهو

الذي كان موضوعاً من مواضيع المعركة والذي لا يمت باي سبب الى صدر الاسلام وانمـــا هو زي خاص ظهر في بعض العصور الاسلامية المتأخرة (١) والروايات والكتب التي وصلت الينا عن ذلك الصدر بصورة لا تقبل التأويل والمماراة بأن المرأة المسلمة في القرن الاسلامي الاول لم تكن متلففة ولا متنقبة وانها كانت ترى الناس ويراها الناس وتحضر مجالسهم ويحضرون مجالسها ، ومن النساء من كن يعقدن في بيوتهن مجالس الادب ويتزعمن الحركات والاحزاب السياسية والحربية ويشغلن حيزاً واسعا في مجال الحياة السياسية والاجتماعية والعلمية والادبية ومن هؤلاء من هن من أقرب الناس الى النبي كعائشة وسكينة . هذا عدا ان اكثرية النساء المسلمات الساحقة كن وما زلن سافرات مشاركات الرجل في جميع مجالات نشاطه دون أي انكار وجدال ونعني بهن سكان القرى والارياف . .

- ٥ -

فوز الدعوة السفورية

ولقـــد تطورت الحالة بعد الحرب العالمية الاولى تطوراً عظيما ، حيث هزت الحرب الناس هزاً عنيفا وجعلتهم يرضخون للواقع في كثير من وسائل الحيـــاة ومظاهرها ، واتسع نطاق التعليم وشمل الفتيات بنفس السعة تقريبا التي شمل بهـا الفتيان ، واخذ المتشددون يتوارون طبقة بعد طبقة ، وانصار المرأة وسفورهـــا وحقوقها يكثرون يوما بعد يوم بالمقابـــلة ، وكان فيما كان بعد الحرب المذكورة الانقلاب الكمالي الذي نسف فيما نسف الحجاب ، وتابعت ايران تركية في ذلك ، فكان هذا كله مما هيأ الميدان لنجاح معركة السفور عمليا في بلادنا بعد ان كان ربحها نظريا قبل الحرب المذكورة .

وقد كانت مصر وخاصة القاهرة الميدان الاوسع للتنفيذ قبل الحرب العالمية الثانية . وقد تأتي هذا عن اسباب عديدة ، فقد كانت القاهرة متفوقة على العواصم العربية الاخرى في الكثافة والثقافة والصحافة والحيوية والحركة النسائية ، وكان زعيم حركتها الوطنية الاكبر سعد زغلول (٢) من انصار المرأة وسفورها فاستغل زعامته

(١) اقرأ رسالتنا القرآن والمرأة .

(٢) كان سعد من اقوى انصار قاسم امين صاحب كتابي تحرير المرأة والمرأة الجديدة الذين كان اصدارهما في وقت صدورهما عملا جريئاً عظيما حتى لقد اهدى قاسم كتابه تحرير المرأة اليه .

القوية الشعبية ودفع السفور الى الامام دفعة قوية في سنة ١٩٢٢ (١) حيث مزق بيده في احد المواقف الوطنية انقبة بعض النساء . وحيث كانت زوجه قدوة لغيرها . وحيث اخذت حركة السفور بعد ذلك في القاهرة والاسكندرية تتسع وتتقدم بخطوات واسعة ، حتى لقد شهدنا المعرض الزراعي الصناعي في القاهرة سنة ١٩٣٣ فلاحظنا ان النساء السافرات كن كثيرات الى درجة كان عدد المنقبات من النساء قليلاً جداً بالنسبة اليهن ، وقد ابدينا ملاحظتنا بذلك الى بعض اصدقائنا المصريين فقال ان هذا محصول ست سنين فقط ، وان النساء السافرات كن هن النادرات في المعرض الزراعي الصناعي الذي اقيم في نفس المكان قبل ست سنين .

ثم جاءت الحرب العالمية الثانية فاثرت هي الاخرى تأثيرهـــا القوي العنيف وأخذت خطوة السفور في مصر تتسع اتساعا عظيما بحيث يمكن ان يقال ان السفور في مصر قد توطد وكاد يغدو مألوفا في المدن ، وإن المرأة المسلمة المصرية قد أخذت تبرز سافرة في المحافل والمشاهد على اختلاف انواعها الى جانب الرجل دون ما حرج ولا تحفظ واذا كان بقي في المدن نساء متنقبات أو غير بارزات فان هذا بقية من مظاهر استمرار التقليد في الاوساط المحافظة، وهـــذا المظهر ما زال موجوداً في تركية مع ان السفور والبروز فيها موطدان رسميا ، وقد اخذت بـــلاد الشام والعراق تخطو هي الاخرى خطوات واسعة في هـذا الميدان حتى غدا السفور في مدنها وخاصة في كبرى مدنها مألوفا وحتى لم يعد من حرج ولا تحفظ فيها من بروز المرأة سافرة في المحافل والمشاهد على اختلاف انواعها الى جانب الرجل مثل اختهم المصرية ، وقد غدت المسألة مسألة وقت اكثر منها مسألة فكرة ليكون السفور عاما في المدن العربية كما هو الأمر في تركية وايران والباكستان والهند واندونوسيا وبلاد البشناق والقازان . وقد خصصنا المدن بالذكر لان المرأة العربية المسلمة في الريف سافرة بارزة منذ الاصل ومشاركة للرجل في مختلف مجالات النشاط .

(١) هذا العمل كان قبل الانقلاب النسائي الكمالي في تركية

- ٦ -

بين الانطلاق والايثار

وقد أصبح من الواجب التفكير في النهج الذي يجب أن يسار عليه بعد أن وصل الامر الى هذا الطور ، فهناك فريقان من الامة يقف كل منهما في طرف ، احدهما ينعى السفور وما اخذ يستتبعه من الدعوة الى فتح كل باب للمرأة وانطلاقها في كل مجال ومزاحمتها للرجل في كسبه ومجال نشاطه وتطلعها الى مشاركته في كل شيء ويدعو الى ابقائها في حدود بيتها . وثانيهما يندد بذلك ويقرر المساواة التامة بين الرجل والمرأة في المواهب والقابليات والحقوق الخاصة والعامة وحقها في الاستمتاع بكل ما يستمتع به الرجل من لهو وجد ويرى في تقيدها ومنعها عن ذلك عدوانا لا مبرر له .

- ٧ -

هدى القرآن في موضوع المرأة

أما أن المرأة مساوية للرجل في الحقوق والواجبات الخاصة والعامة وفي الاهلية المدنية التامة فمما لا سبيل الى انكاره كما لا سبيل الى انكار ما يستتبع هذا من كونها ركنا مساويا له في الدولة والمجتمع والاسرة ومن حقها في ممارسة تلك الواجبات والحقوق في مختلف المجالات الحكومية والشعبية والاجتماعية والاقتصادية وفي التهيء لها بنيل اقصى ما يمكن نيله من ثقافة فنية وعلمية ومهنية اسوة بالرجل دون قيد وشرط . وهذا مؤيد بالقرآن الذي هو نبراس المسلمين والذي خاطب المرأة بجميع ما خاطب به الرجل وكلفها بجميع ما كلف به الرجل من تكاليف دينية ودنيوية واجتماعية واقتصادية وسياسية وحملها تبعاتها المادية والمعنوية والدنيوية والاخروية واعتبرها تامة الاهلية والتصرف من الوجهة المدنية والمالية دون ما فرق ولا تمييز عن الرجل .

على ان القرآن أوجب عليها الاحتشام التام في الزي واللباس امام غير محارمها من الرجال واتقاء اسباب الفتنة والاغراء والابتعاد عن مواقف الريبة واجتناب كل ما يؤدي الى الانحراف والشذوذ ، واوجب على الرجل نفقتها في كل ظرف وحال ، واحتوى من التقريرات والتلقينات ما ينطوي فيه تقرير كون ربوبية البيت والامومة والزوجية الصالحة الامينة من أهم مهامها ومجالاتها .

وجوب الاتئاد في الدعوة الانطلاقية واخطارها

فمن الواجب والحالة هذه ان يتئد دعاة الانطلاق في دعوتهم الى الانطلاق دون قيد وشرط وتحفظ وترو وفي جميع مجالات الجد واللهو كل الاتئاد . ولا سيما انهم يعرفون من دون ريب ان ادباء الغرب وعلماءه قدملأوا المكتبات وشغلوا المطابع بما كتبوه ويكتبونه منذ أمد غير قصير في موضوع المرأة وما كان من انطلاقها المفرط من آثار في حياة المجتمع والاسرة وما كان منه وما يكون من فواجع دامية ووقائع حاطمة ، وما عاد على المرأة نفسها من جرائـه من أخطار واضرار وما تعرضت له من مآزق وعقد ومشكلات ، وما انفتح على المجتمع منه من ابواب الاباحة والفوضى والمفاسد وزعزعـة بنيان الاسرة والمشاكل الاقتصاديـة العامة والخاصة من جراء مزاحمة المرأة للرجل في ميادين الاعمال حتى الشاقة منها وخلو البيت من ربته وحرمان الطفل من عاطفة امه وعنايتها والجنوح الى التفلت من الحياة الزوجية وقيودها الخ ..

ولقد أخذت بوادر هذا كله وآثاره تبدو في بلادنا نتيجة لتيار الغرب والدعوة الانطلاقية وخاصة في مصر التي كانت الميدان الاوسع لخطوة السفور حيث أخذت طبقتها الرفيعة تسيغ الاختلاط الواسع والتبرج الشديـد والمشاركة في المسابـح والمراقص والمـلاهي والمعاقرة وحيث أخذت تقع المآسي الاسرويـة وحيث بات الخوف يساور الناس من اشتداد التيار وعدواه للطبقات والبلاد الاخرى .

واخوف ما يخاف منه ان تنخدع المرأة العربيه بالدعوة الانطلاقية التي فيها على كل حال دعوة الى حريتها وحقوقها فلا ترى جوانب الاخطار والاضرار والمتاعب التي تكتنفها ولا تلبث ان ترى نفسها في وسط بلائها .

وهذا مما يجعلنا نلح على أصحاب الدعوة الانطلاقية بالاتئاد والتدبر في الامر وأن يجدوا في ما كان في الغرب وفيما أخذ يكون عندنا عظة ونذيراً . وعليهم أن يذكروا انه مهما كان المرء تواقاً للتمتع بالحرية والانطلاق فان ذلك لن يتيسر له بسبب ما تملأ الحياة الاجتماعية من عقد واعتبارات لا سبيل الى تجاهلها ، ولن يتسنى للمرء أن يحمل الناس على احترام حقوقه وكرامته وان يحتفظ بينهم بحسن الاحدوثة

والاعتبار لمصلحته المادية والمعنوية معاً الا اذا راعى ظروفاً كثيرة هي التي تملي على البشرية أن تضع قوانينها ونظمها وتقاليدها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والسلوكية . ومهما قال الانطلاقيون فانهم لن يستطيعوا أن يكابروا في أن الطبيعة قد جعلت لكل من الرجل والمرأة وظيفة مختلفة وان هذا يقضي بان يكون لكل منهما خصائص وتقاليد ومجالات خاصة دون أن يكون في هذا الاختلاف ضير أو هضم أو إجحاف لانه يمت الى الاختلاف الطبيعي الموجود بين الاثنين ، ولانه شرع على السواء لكل منهما حيث يبيح لكل منهما ما يبيح ويوجب على كل منهما ما يوجب ، على ان هذا لا يعني حرمان المرأة من الاعتبار والاحترام وممارسة الحقوق والواجبات لان ذلك مضمون لها في شرعنا .

- ٩ -

مزاحمة المرأة للرجل في الكسب وآثارها

والدعوة الى فتح مجال الكسب على مصراعيه للمرأة ذات وقع خلاب لها ، غير ان من الواجب ان يذكر الداعون الى ذلك ان في هذا تضييقاً على الرجل في ساحة عمله واحتمالات كسبه ومقاديرها بالنسبة لبلادنا التي ما تزال مجالات الكسب ضيقة فيها . وفي هذا في نفس الوقت تضييق على الزوجة والاولاد الذين حملت تقاليدنا واجب الاتفاق عليهم على الرجل اولا ، وصرف للرجل عن انشاء اسرة لما يكون في حاجة الى نفقات لا تتحملها ظروف ساحة كسبه الضيقة ثانياً ، وتحميل للمرأة عبء اعالة نفسها دون ما ضرورة لانها واجدة من يضمن لها ذلك ثالثاً ، وصرف لها عن التقيد بقيود الاسرة واغراء لها بالانطلاق من هذه القيود رابعا ، واثقال كاهلها بعبء تنوء به عاجلا او آجلا ويفقدها مزايا عظيمة تتسق مع طبيعتها الجنسية خامسا . وفي كل هذا ضرر بين على الرجل والمرأة والمجتمع على السواء .

ونستدرك بأن ما نقرره هو ما يجب أن يكون قاعدة عامة وما هو من نتائج فتح باب العمل للمرأة على مصراعيه ، وانه لا يسري على ما يمكن ان يكون هناك من ضرورات وظروف تجعل بعض النساء مضطرات الى العمل ، أو على ما يمكن ان يكون هناك من ميادين تكون المرأة فيها أوفر استعداداً للعمل فيها . فليس في هذا وذاك مانع وضرر بطبيعة الحال وخاصة اذا سار في حدود القصد والاعتدال

- ١٠ -

اخطار الافراط في الاختلاط

والافراط في الاستقبال والقبول والاختلاط في جميع المجالات وخاصة مجالات اللهو والملاهي والمسارح والمراقص والمسابح والمنازه والحلوات والتبرج يؤدي من دون ريب الى اغراء الرجل بالمرأة والمرأة بالرجل ، وقد يسوق كلا منهما الى نسيان ما عليه من واجبات وما هو مقيد به من روابط وعقود اولا ويسبب المآسى والنكبات الهادمة لبنيان الاسرة ثانيا . ويجب ان نتذكر في هـذا المقام حقيقة لا يصح المكابرة فيها وهي ان الرجل بطبيعته هو المهاجم وكثيراً ما يكون طالبا لتطمين هـــذه الطبيعة دون ان يهتم للظروف والقيود والعقود والنتائج . وقوته وطبيعته الجنسية تجعلانه في نجوة من السقوط وسوء العاقبـــة في اغلب الوقائع والحوادث ، والضرر والشر من هنا الافراط واقعان على الفتاة قبل الرجل كما هو واضح . وهذا فضلا عما يؤدي اليه من نفقات عظيمة ينوء بها اكثر الناس وقد يسوق في ظروف كثيرة الى الآثام والجرائم الاخلاقية والاجتماعية .

ولقد أخذت عادة التأخر في الزواج تفشو بـــين الشباب . ومع ان الغلو في المهور والاسراف في الاعراس اسباب مهمة لذلك فان للافراط الذي نحن في صدده دخلًا قويا فيه ايضا، حيث يفسح المجال لكثير من الشباب للاستمتاع البريء وغير البريء مما يجعله غير متعجل للزواج. ومما يجدر التنبيه عليه هنا هو ان رغبة الفتيات في الحياة الزوجية اشد من رغبة الفتيان ، وان كثيراً من الشباب لا يتورعون عن استغلال هذه الرغبة في ذلك الاستمتاع مما يكون وباله على الفتاة في الدرجة الاولى.

- ١١ -

التقاليد والقواعد القويمة في كل ما يتصل بالمرأة

من اجل ذلك كله يجب ان يكون لنا تقاليـــد نسير عليها في جميع الشؤون المتصلة بمركز المرأة في الدولة والمجتمع والاسرة سواء كان ذلك في صدد ممارسة الحقوق والواجبات ام في صدد البروز والمظهر والعمل ام في صدد صلات الرجل بالمرأة وصلات المرأة بالرجل وحياتها الزوجية ومملكتها البيتية . وفي القرآن طائفة

من الآيات والاحكام تلهم وتقرر ما للمرأة من حقوق وما عليها من واجبات خاصة وعامة في الدولة والاسرة والمجتمع وما يجب ان يكون هناك من حدود وآداب في صلات الرجل بالمرأة وصلات المرأة بالرجل وقد جاءت باسلوب حكيم رائع وصالح لكل ظرف وزمن . كذلك في السنة النبوية وفي تقاليدنا القوميـة وفي سجايانا وارواحنا ما يمكن ان يلهمنا شيئا غير يسير ليكون لنا منها التقاليد المنشودة. يضاف الى هذا وذاك ما يجب ان نستخلصه من العظة في تجارب الامم وشكاواها وتحذيراتها ايضا .

وها نحن اولاء نورد فيما يلي ما نعتقد انه يصح ان يكون تقاليد قويمة لنا متسقة مع منابعنا وروحنا ومصلحتنا القومية والاجتماعية :

اولا : في الازياء والاجتماعات

١ – لا مانع من ظهور المرأة العربية سافرة .

٢ – يجب عليها ان تحتشم في ثيابها وزينتها وتستر مفاتنها حينما تكون تحت أنظار غير محارمها من الرجال. ويحسن ان تخمر رأسها بخمار وان يكون لها رداء خارجي للصيف وآخر للشتاء سابغان كزي قومي للخروج والاختلاط .

٣ – لا ينبغي لها قط ان تراقص الرجال ولو كان في مرقص خاص .

٤ – لا ينبغي لها قط ان تغشى الحانات واماكن اللهو المريبة ولو كان معها محرم

٥ – يجب ان تمتنع عن تعاطي المسكرات في اي حال . والاحشم والاكرم لها ان لا تدخن .

٦ – لا ينبغي ان تشترك في المسابح والرياضات عارية أو شبه عارية مختلطة مع رجال غير محارم لها .

٧ – لا ينبغي ان تشترك في رحلات ونزهات مختلطة الا ومعها احد محارمها .

٨ – لا ينبغي ان تقوم بأسفار طويلة وبعيدة الا ومعها احد محارمها .

٩ – لا مانع من شهودها المشاهد والحفلات والاجتماعات العامة البريئة بزيها المحتشم . ومن المستحسن ان يكون معها احد محارمها .

١٠ – لا مانع من استقبالها رجالا غير محارمها ولا من زيارتها لهم واجتماعها بهم لمقاصد العمل والنشاط الاقتصادي والسياسي والاجتماعي بزيها المحتشم .

ثانياً في صدد الحقوق والواجبات العامة

١ - المرأة والرجل متساويان في جميع الحقوق والواجبات العامة باستثناء ما ورد فيه نص قرآني او سنة نبوية ثابتة .

٢ - للمرأة الحق في ان تنال كل ما تقدر عليه او تريده من انواع الثقافة والفنون وان تشجع على ذلك ويفسح مجاله لها دون قيد وشرط .

٣ - للمرأة الحق في ممارسة جميع الاعمال الاجتماعية والسياسية الرسمية وغير الرسمية بما في ذلك الحياة النيابية مع الرجل وان تشجع عليها كل التشجيع وان يفسح مجالها لها دون قيد وشرط .

وثالثاً في حياة الاسرة

١ - يجب التبكير في الزواج والاهتمام لانشاء الاسر .

٢ - يجب الكف عن الغلو في المهور والاسراف في نفقات الاعراس .

٣ - لا مانع من رؤية الخطيبين لبعضهما واجتماعهما قبل العقد ضمن القواعد التي مرت في الفقرة الاولى بل ويجب التشجيع على ذلك .

٤ - يجب العدول بالمرة عن الزواج الغيبي والاجباري بالنسبة للفتى والفتاة على السواء .

٥ - المرأة هي ربة البيت والرجل هو المكلف بالانفاق .

٦ - للمرأة على زوجها ما لزوجها عليها من حق التكريم والرعاية والأمانة والصيانة والمساعدة والترفيه .

٧ - قوامة الرجل على المرأة لا تعني السيطرة والتحكم والاستبداد والحرمان وانما تعني الحماية والمساعدة والصيانة والانفاق .

٨ - يجب على الزوجين ان يهتما لجعل البيت مصوناً محترماً متمتعاً بما يمكن من اسباب الراحة ووسائل الترفيه .

٩ - يجب على الزوجين ان يهتما لتربية اطفالهما تربية قومية وخلقية واجتماعية صالحة وان يكونا لهم الاسوة الحسنة في كل ذلك .

١٠ - يجب ان يكون المثل الاعلى للمرأة ربة بيت حكيمة واماً بارة وزوجة امينة صالحة . وان يكون المثل الاعلى للزوج زوجاً اميناً كريماً واباً عطوفاً .

١١ - يجب ان تكون جميع مسائل الطلاق والتعدد منوطة بالمحاكم وان لا ينفذ أي شيء منها إلا بعد الحكم وان تكون الاحكام متسقة مع النصوص التي لا تبرر التعدد إلا في حالة القدرة والضرورة ولا تقر الطلاق إلا إذا قصد به الفراق وبعد تعذر الوفاق في نطاق تلقينات التروي والمهل الواردة في القرآن والسنة .

ورابعاً في الحياة الاقتصادية

١ - للمرأة الحق التام كالرجل في احتياز الثروة والملك وتنميتها والتصرف فيها حسبما يتراءى لها فيه مصلحتها .

٢ - للمرأة الحق التـــام في نيل استحقاقها في الارث وفق الأحكام الشرعية القائمة على غاية الحكمة والعدل .

٣ - للمرأة الحق في تعلم المهن والفنون التي تمكنها من العمل والتكسب على مختلف الدرجات والانواع . ومن المستحسن ان تتجنب ما هو شاق مذهب للانوثـــة ومشاهدها منها .

٤ - العمل للمرأة في دوائر الحكومة وغيرها يجب ان يكون مقيداً بالقيود التالية :

آ - ان لا يكون لها ثروة وايراد خاص يكفلان لها معيشة معتدلة .

ب - ان لا يكون لها من هو مكلف باعالتها ونفقاتها وقادر عليها ضمن حدود الاعتدال .

ت - ان يكون لها اسرة محتاجة الى مساعدتها .

ث - من المستحسن ان تعمل المرأة التي تحتاج الى التكسب في ساحات التعليم والتربية والطبابة والكتابة والمحاسبة والصيدلة والمحاماة والبيع والصحافة في الدرجة الاولى دون الاعمال الشاقة المذهبة لانوثتها .

ج - ان لا يحول عملها دون واجباتها في بيتها ونحو زوجها واطفالها .

وانا لنرجو مخلصين من كل مسلم وعربي ان يجعل هذه القواعد وما يدخل في معناها ومداها نصب عينه ، وان يدعو اليها غيره ويبث فكرة التمسك بها ويقف الموقف الحق المخلص في الدفاع عنها ، كما نرجو ان تشغل حـــيزاً مهما في مناهج منظماتنا القومية والاجتماعية والحكومية ايضا .

توجيه وتحذير خاصان بالمرأة العربية

وهذا الرجاء موجه في الدرجة الاولى الى المرأة العربية لأنها موضوعه الخاص، وهي هدف ما ينجم عن الشذوذ عن مداه من ضرر وخطر ومتاعب ومشاكل قبل غيرها . وعليها ان تتروى في الامر وان لا تنجر في تيار التقليد الغربي الذي اخذ يجرف بعض الفئات الاريستوقراطية في مصر خاصة ، وان لا تنخدع بما يساق من الحرية والانطلاق التـــام ، وخاصة ان كل ما صار له من اثر هو الانجراف بذلك التيار وحسب .

وكلمة اخيرة يجدر ان نوجهها إلى المرأة العربية . فتقرير حقوقها وواجباتها في الدولة والمجتمع لا يكفي لممارستها تلك وقيامها بهذه بسبب ما طرأ على تلك الحقوق وهذه الواجبات من شوائب متنوعة المدى ومفهومات متعاكسة خلال القرون التي تلت عصر الاسلام الذهبي ، وان الامر ليحتاج الى إعداد واستعداد للممارسة والقيام من جهة وسعي وجد في سبيلها من جهة اخرى . ورغم ما اتيح للمرأة العربية من فرص التعليم والنشاط وما كان من كثرة عدد المثقفات فان الحركة النسوية العربية ما تزال ضعيفة ضيقة النطاق بل نكاد نقول انها ما تزال عملية تفكيه وترفيه اكثر منها عملية جادة تستهدف اهدافاً خطيرة وفي طريقها عقبات كثيرة حتى في مصر التي يبدو أن الحركة النسوية فيها اقوى منها في غيرها من الاقطار العربية . وهذا فضلا عن انهماك الكثرة من المثقفات في اللهو واللعب والمظاهر والسفاسف مما جعل كثيراً من الرجال لا يثقون بهذه الحركة ولا يعولون عليها .

فعلى المثقفات من نساء العرب ان يضعن ذلك كله نصب اعينهن ، وان يوقنّ ان كل ما يمكن ان ينتظرنه من انصار حركتهن هو المساعدة والتشجيع وفسح المجال ، وان العبء الاعظم إنما يقع عليهن ، وان عليهن ان يجددن ويدأبن بقوة وسعة في سبيل الاستعداد لممارسة الحقوق والقيام بالواجبات من جهة وفي سبيل إقرارهما للمرأة العربية من جهة، وفي سبيل بث الثقة فيحركتهن وفي انصارهن بل وغيرهم وكسبها من جهة .

الفصل الثامن

مسائل القرية والبادية والعمال ومشاريع البر والمعاونة الاجتماعية والصحية

- ١ -

ومما يجب ان تشتد الدعوة الى الاهتمام به مسائل القرية والبادية والعمال ومشاريع البر والمعاونة الاجتماعية . فهذه الشؤون تتصل كما هو واضح ببنيان الامة وكيانها لانها متصلة بغالبية افرادها . وستظل الامة مرتكسة فيما هي مرتكسة فيه الى ان تعالج هذه الشؤون معالجة ناجعة وشافية .

- ٢ -

حالة القرية والفلاح

فالقرى التي فيها مدراس مازالت اقل بكثير جداً من التي ليس فيها حتى لتكاد النسبة في بعض اقطارنا تكون واحداً الى عشرة ولا تزيد في احسن الحالات عن واحد الى اربعة . وهكذا ينشأ اطفال اكثر القرى جهلاء ويقضون اعمارهم في حياة الجهل والغباء ، فتنطفيء مواهب كثير من ابناء الامة وتهدر قواهم وحيويتهم .

وكثير من القرى بل اكثر القرى ما يزال محروماً من المياه الصالحة للشرب ومن وسائل الصحة والعلاج والوقاية كما أن مساكنها محرومة من اسباب الراحة والصحة . وبهذا يتعرض ابناؤها لمختلف الامراض والعوارض .

وما تزال القرية متأخرة جداً في اساليب الزراعة والصناعة الزراعية الحديثة .

وتوزيع الاراضي ما يزال يمت الى الاساليب الاقطاعية باقوى الاسباب حيث تكون اراضي القرية أو قسم كبير منها ملكا لكبار الملاكين في اكثر الاحيان فلا يكاد فلاحها ينال ما يقيه من الموت من جاف المأكل وزري الملبس وزريبة المسكن الا بشق النفس .

والامراض المحلية والمزمنة والسارية على اختلافها تنهك قوى الفلاح وتفتك فيه فتكاً ذريعاً .

وشأن القبيلة العربية كشأن القرية العربية من حيث الاهمال والحياة ...

أو أشد ، وتزيد عليها بالحياة القلقة المضطربة التي تحياها والتي تضعف حيويتها وتجعل التماسك بينها وبين سائر وحدات الامة مفقوداً وحالة القبيلة هذه في بعض اقطارنا خطورة شديدة من حيث كثرة القبائل فيها وبلوغها في النسبة الى مجموع السكان درجة عالية .

- ٣ -

حالة العمال

والعامل العربي كالفلاح العربي لم ينل ما ينبغي ان يناله من العناية والاهتمام . فمستواه المادي منخفض وحياته البيتية بائسة ومسكنه رديء ، وعرضة للاستغلال والتعطل ، ومستقبله ومستقبل امرته غير مضمون ، ولم توفر له ولها أسباب العلاج المجاني، وليس لهم قدرة على دفع نفقات العلاج، واولاده في الاعم الاغلب محرومون من فرص التقدم العلمي والنفسي .

- ٤ -

حالة مشاريع البر والصحة

وما في الاقطار العربية من ملاجيء ومياتم ومستشفيات وعيادات مجانية ومؤسسات إحسان وتفريج وضمان اجتماعي ضعيف جداً لا يمكن أن يسد حيزاً ذابال من الحاجة . ومع ان هناك التفاتاً الى هذه الامور اكثر من ذي قبل انسياقاً وراء التيار العالمي العام فان ما فعل في هذا المجال لا يكاد يعدو التفكه ولا يزال بعيداً جداً عن تحقيق الغاية أو السير في سبيل ذلك والوصول اليه في مدة قصيرة فضلاً عن أن بعض البلاد لم تكد تخطو خطوة ما في هذا السبيل .

فالواجب يقضي الالتفات الى هذا الامر بعين الجد ووضع مناهج شاملة والسير حثيثاً في سبيل تحقيقها في أقصر مدة ممكنة، واعتبار ذلك واجباً قومياً عدا وجوبه الاجتماعي والانساني .

ولا يتسع الكتاب لتفصيل المناهج حيث يتحمل ذلك كتابا بل كتبا خاصة ، ولكنا نرى أن نورد بعض الخطوط التي تعن لنا في هذا الباب .

ماذا يجب ان نعمل في مجال القرية

ففي مجال القرية :

١ - يجب ان يجعل الفلاح صاحب ارض حتى يستطيع أن يشعر بالاستقرار والطمأنينة ، ولا تهدر اتعابه ويتخلص من بؤس الحياة التي يتمرغ فيها . ويجب ان يساعد مالياً وبقروض طويلة الامد على تأسيس العمل وتسييره والخطوة التي خطتها الجمهورية التركية في هذا الشأن والتي سيرد تفصيلها في فصل آت جديرة بالاقتباس في هذا المجال .

٢ - يجب ان يدخل نظام البناء والهندسة الحديث على القرية .

٣ - يجب ان يكون في كل قرية مدرسه وأن يكون لكل مجموعة من القرى المتجاورة مدرسة داخلية زراعية وصناعية وان يفسح المجال لابناء القرى الناجين ليسيروا على حساب الدولة في اشواط التعليم العالي مجاناً .

٤ - يجب ان يكون في كل قرية كبيرة او متوسطة ما يسمى اليوم بالمجموعة الاجتماعية التي تشتمل على عيادة وصيدلية وقابلة وممرضة ومرشد اجتماعي وأن يكون مثل هذه المجموعة لوحدات من القرى الصغيرة المتجاورة ايضاً .

٥ - يجب أن تكافح الامراض المحلية والسارية في القرى مكافحة شديدة وان تزال اسبابها .

٦ - يجب ان تبذل العناية لناحية الجمعيات التعاونية التي يمكن ان يعود منها فوائد عظيمة من حيث الانتاج والتصريف والطرائق والوسائل الفنية ووقاية الفلاح من المرابين والمستغلين ، وان تعمم حتى تشمل جميع القرى .

٧ - يجب ان ترتب دورات متتابعة للمحاضرات الاخلاقية والاجتماعية والصحية والفنية والقومية استهدافاً لبث الوعي القومي وتقويته وتركيزه والدعاية للصلاح الاخلاقي والاجتماعي والصحي والفني .

٨ - يجب ان يكون في كل قرية مسجد يتولى أمره رجل نير ونابه .

٩ - يجب ان تسن قوانين وانظمة كفيلة بتحقيق هـذا المنهاج وان تحتوي هذه القوانين فيما تحتويه ايجاب قيام هيئة مسئولة في كل قرية تحت طائلة الجزاء .

١٠ - يجب ان يفسح المجال لمشاركة ذوي العقل والنباهة من القرويين في الحياة العامة وان تمثل القرية تمثيلا صادقا في مؤسسات الدولة المتنوعة فلا تظل تلك الحياة وهذه المؤسسات وقفا على ذوي الجاه والثراء والالقاب والاقطاع من ابناء المدن والقرى .

وهذا المنهاج صالح للتطبيق بشيء من التعديل على البدو ايضاً مع العناية الشديدة في تحضيرهم .

- ٦ -

ماذا يجب ان نعمل في مجال العمال

وفي مجال العمال :

١ - يجب سن القوانين القوية التي تحمي العامل من الاستغلال والاخطار وتضمن له حق الحياة المعقولة في المسكن والمطعم والملبس والعلاج والوقاية والترفيه كما تضمن هذا الحق له في الشيخوخة ولارملته وايتامه بعد موته .

٢ - يجب ان تشجع الحركة التعاونية والنقابية العمالية تشجيعاً قوياً بحيث تشمل جميع العمال على اختلاف الاعمال وتمنح التشكيلات التعاونية والنقابية المنح والمساعدات المختلفة التي تمكنها من النجاح في اهدافها المتنوعة .

٣ - يجب ان يكون في كل مدينة مدرسة صناعية متوسطة .

٤ - يجب ان يمكن النابهون والاذكياء من ابناء العمال من السير في اشواط التعليم العالي مجاناً .

٥ - يجب ان يعتنى بتنوير اذهان العمال بالمحاضرات الاخلاقية والاجتماعية والصحية والثقافية وان يساعدوا على تأسيس اندية لهم يقضون فيها اوقات فراغهم فيما يفيدهم ثقافياً ورياضيا واجتماعياً .

٦ - يجب ان يشجعوا على المشاركة في الحياة العامة وان يفتح المجال لاذكيائهم وعقلائهم في هذه الحياة وان يمثلوا في مؤسسات الدولة المتنوعة تمثيلاً صادقا .

٧ - يجب ان يساعد العاطلون منهم على الحياة وعلى العمل معا .

ماذا يجب ان نعمل في سبيل مكافحة الامراض ومعاونة المحتاجين العاجزين

وفي مجال مكافحة الامراض :

١ - يجب ان تكثر المستشفيات والعيادات في المدن الكبيرة والصغيرة على السواء حتى تسد حاجة الناس على حساب الدولة وان تجهز بما تحتاج اليه من وسائل الطب الحديثة والاطباء الاختصاصيين .

٢ - يجب ان يجبر الاطباء على حسن التوزع في انحاء البلاد كخدمة إجبارية .

٣ - يجب ان تحدد اجورات المعالجة تحديداً معتدلا لا يعجز عنه متوسطو الحال .

٤ - يجب ان تبذل العناية الكبرى لمكافحة الامراض المحلية والسارية وازالة اسبابها في الريف والمدن على السواء .

وفي مجال البر والمعاونة الاجتماعية :

١ - يجب ان تنشأ في المدن الكبيرة والمتوسطة ملاجيء متنوعة لفقراء العجزة والشيوخ والزمنى وذوي العاهات والايتام والعميان بحيث تسد الحاجة وتختفي المناظر التي تجرح الكرامة والانسانية مما تقع عليه العين في كل قرنة من كل مدينة من المدن العربية .

٢ - يجب ان يرتب لاسر فقراء العاجزين والشيوخ والزمنى وذوي العاهات والارامل مخصصات شهرية تضمن لهم حياة معقولة .

٣ - يجب ان يعالج الفقراء والمعوزون مجانا في المستشفيات والعيادات وان يمنحوا ما يحتاجون اليـــه من علاج مجانا وان يساعدوا على المعيشة طيلة عطالتهم بسبب المرض .

ولا يقولن قائل إننا نضرب في بيداء الخيال ، وان الكتابة ورسم الخطط شيء والتنفيذ والعمل شيء آخر . فما نرسمه ليس خيالا ولا متعذراً . وقد حققه غيرنا تحقيقا كاملا وقريبا من الكمال . ولسنا من جبلة اخرى ، ولا ينقصنا ما فيهم من مواهب وقابليات وما عندهم من إمكانيات ، وكل ما نحتاج اليه عزيمة صادقة وجلد وإخلاص وحسن ادراك للواجب ، وهو ما يجب ان تشتد الدعوة اليه .

يجب على الاغنياء والقادرين تغذية مشاريع الاصلاح

وطبيعي ان هذه المناهج تحتاج الى المال . وبالرغم من فقر سوادنا الاعظم فان في كل بلد من بلادنا طبقة قادرة على الدفع يحيا بعضها حياة فيها من البذخ والترف ما يصل الى السفة تستطيع ان تسد فراغ المال ويجب ان تسده .

ولقد كثر ما قرأنا وقرأ الناس ان بعضهم في مصر مثلاً يقيم حفلة تكلفه آلاف الجنيهات ، وينفق على تبغه وسياراته ومشروباته وزينته وزهوره وكلابه ولعبه فضلا عن ثيابه وخدمه وحشمه شهريا مئات الجنيهات ، وان آلافا من الاغنياء يغادرون مصر سنويا إلى مغاني اوروبا ويبلغ ما ينفقونه فيها عدداً غير قليل من ملايين الجنيهات ، وان هناك من يخسر في سهرة ميسر واحدة العشرة آلاف والعشرين الف جنيه ثم يخرج هادىء الاعصاب كانه لم يخسر الا جنيهاً او نصف جنيه وانه ليس من النادر ان تشترى وتهدى حلية واحدة لسيدة من السيدات او عروس من العرائس بقيمة خمسين الف جنيه او اكثر ، وانه ليس من النادر ان تبلغ قيمة حلى شلة من السيدات في حفلة من الحفلات الملايين من الجنيهات ، وانه ليس من النادر ان يكلف فستان واحد الفا أو الفين من الجنيهات ، وانه ليس من النادر أن تشترى سيارات قيمة الواحدة أربعة آلاف أو خمسة أو ستة ، وان قيمة السيارات الملاكيه في مصر تبلغ عشرات ملايين الجنيهات ، وان هناك طبقة من الناس يعيشون في قصورهم واثاثهم وتحفهم وخدمهم وحشمهم ومراسمهم وولائمهم وحفلاتهم وسمرهم ولعبهم حياة الف ليلة وليلة ، وتبلغ نفقة الاسرة منهم الخمسين والمئة والمئة والخمسين الف جنيه في السنة ، وان هناك افراداً واسراً عديدة يصل رقم إيرادها أو ربحها السنوي مئة الف ومئتي الف واكثر من الجنيهات . وشيء من هذا ولو نسبياً موجود في لبنان في الدرجه الاولى وسورية والعراق في الدرجة الثانية مما يدل على ان هناك طبقة غير قليلة العدد قد استقطبت فيها الثروة والغنى بدرجة استقطاب الفقر والعوز في السواد الاعظم . وهذا الدليل قائم في توزيع الملكيات الارضية في الاقطار العربية حيث اثبتت الاحصاءات ان نحو عشرة آلاف شخص أو اسرة يملكون نحو نصف اراضي مصر الزراعية بينما هناك الملايين الذين لا يملكون حفنة

تراب ، وان في سورية اشخاصاً وامرأً يملك الواحد منهم عشرات الآلاف واحيانا مئات آلاف الدونمات في عشرات القرى بينما هناك مئات الآلاف الذين لايملكون شيئاً . ومثل هذا في العراق وشيء منه في الاردن كذلك . فهذه الطبقات يجب ان تغذي خزينة الدولة ومشاريعها الاجتماعية والخيرية فضلا عن مطالبها الاخرى لانها هي التي تنتفع في الدرجة الاولى بما توفره الدولة من الامن والسلام والنظام وحرية الاستمتاع ، وهي التي تسيطر على ثروة الدولة المنقولة وغير المقولة وتتصرف فيها ، ويجب ان تجبر على ذلك . ولا ندعو في هذا إلى بدع ، فجميع بلاد العالم تأخذ به وتسير فيه . وهذه الطبقة في بلاد العالم تقدر هذا الواجب وتؤديه بطوع ورضى إلا في بلادنا حيث تتهرب منه ، واذا رأت احيانا ان تساير الظروف بالتبرع فيكون تبرعها تافهاً مع المنّ والطنطنة والقاب المحسن الكبير وبقصد التزلف إلى الرؤساء والكبراء وابتغاء تأمين المصالح والمنافع الخاصة ونيل الاوسمة والالقاب التشريفية .

ولقد بلغ من امر الضرائب التصاعدية في بريطانيه مثلا أن يؤخذ من الايرادأو الربح الذي يصل مئتي الف جنيه مئة وتسعون الف جنيه . وليست بريطانيه هي المفردة في هذا الباب فجميع البلاد الغربية تسير على منوالها او ما يقاربه . وبذلك وحده يمكنها ان تهيء الميزانيات الضخمة لمشاريعها المتنوعة حتى ليصل ما يصيب الفرد في بعضها مئة جنيه واكثر في حين لا يصيب الفرد في اكبر الميزانيات العربية عشرة جنيهات ومنها ما ينزل إلى نصف هذا الرقم . وحل هذه الميزانيات يسددها القادرون والاغنياء بطبيعة الحال . ولقد فرضت تركيه في أثناء الحرب ضريبة خارقة على الثروة بقيمة خمسمئة مليون ليرة لنفقات الجيش وقالت ان السواد الاعظم يدفع ضريبة الدم بما يحتشد في الجيش من مئات الالوف من ابنائه فعلى القادرين والاغنياء ان يدفعوا ضريبة المال مقابل ذلك . وفي الغرب مشاريع خيرية كثيرة جداً تقوم على تبرع الاغنياء والقادرين في حين لا نكاد نستطيع ان نذكر مشروعا هاما قام وعاش على تبرع اغنيائنا .

وهناك اعتبار آخر يجب ان يلاحظه اغنياء البلاد العربية وقادروها وان يحملهم على الدفع ، وهو ما تعج الافكار به اليوم من الدعايات المنبثة المنبهة الى مايقاسيه

فقراء من بؤس وحرمـان بسبب استغلال الاغنياء وجشعهم ، والى تخمة الترف والبذخ وسفه التبذير الذي يرتكس فيه هؤلاء وما ينطوي في هذا من خطر وشر عليهم . فاذا ما أدركوا هذا ودفعوا أمكن تهدئة بال السواد الاعظم بما تقدمه لهم الحكومات من خدمات تساعدهم على رفع مستواهم وتعليمهم وتمريضهم وتشغيلهم وضمان الحياة المعقولة لهم في حالة امكان العمل والعجز عنه .

والامر أولا وآخراً يحتاج إلى عزم وحزم وقوة ارادة ورغبة صادقة وبعد نظر في من يتولى مقاليد العرب من رؤساء وحكومات ونواب . وهذا ما يمكن ان يكون اذا ما اشتدت الدعوة اليه ووجه الوعي نحوه مما يترتب عـــلى شبابنا ومنظماتنا وكتابنا وخطبائنا ووعاظنا بحيث لا يبقى محيص لاولئك من التجاوب مع الدعوة أو التخلي عن المقاليد الى من يتجاوب معها .



الفصل التاسع

نحو الوحدة العربية

- ١ -

ومن أهم ما يجب ان يشغل حيزاً مهما في جهودنا ومناهجنا القومية مسألة الوحدة العربية بطبيعة الحال . فهي من أهم اهداف الحركة العربية الحديثة .

ولقد شرحنا في الجزء الرابع من هـذه السلسلة ظروف قيام جامعة الدول العربية في سنة ١٩٤٤ وما كان من أثر ضعف بنية الامة العربية وضيق أفق رؤساء العرب وتغليبهم للاعتبارات الشخصية والاقليمية في ضياع الفرصة التي سنحت ، وتطور المشاورات من مشاورات وحدة عربية الى نظام الجامعة الراهن الذي قصارى ما كان من فائدته العملية تنسيق مواقف الحكومات العربية ازاء الاحداث السياسية العربية وغير العربية من آن لآخر تنسيقاً غير مضمون التنفيذ والتجاهل مع ذلك ، مع مشاهد ملموسة اليمة من التشاد والمكايدات في كثير من المواقف كمظهر من مظاهر المنافسات والاعتبارات الشخصية والاقليمية التي استحوذت على الرؤساء ، وبقاء اكثر مواد ميثاقها حبراً على ورق وعدم انجاز اي شيء ذي بال منها انجازاً ايجابيا وموفقا .

- ٢ -

الوحدة متسقة مع شعور العرب ورغبتهم العامة

ولو استفتيت الشعوب العربيـة استفتاء حراً من الضغط والدسائس لجاءت النتيجة حتما في جانب الوحدة المطلقة الشاملة . وإذا كانت ساكتة عما هو خلاف رغبتها وارادتها فان هذا السكوت مظهر من مظاهر جمود وعيها وسلبيته التي المعنا اليها في مطلع الكتاب واهبنا بوجوب تقويته وتوجيهه .

وقد اقامت سورية على هذا الدليل الحاسم في الدستور الجديد الذي وضعته جمعيتها التأسيسية عام ١٩٥٠ حيث احتوت مقدمته هذه الفقرة : « ونعلن ان شعبنا الذي هو جزء من الامة العربية بتاريخه وحاضره ومستقبله يتطلع الى اليوم الذي تجتمع فيه امتنا في دولة واحدة . وسيعمل جاهداً على تحقيق هذه الامنية في ظل الاستقلال

والحرية » ، وحيث احتوى نص قسم رئيس الجمهورية والنواب الدستوري على العهد « بالعمل على تحقيق هذه الوحدة . » على ان هذا الدليل تقدم من سورية قبل هذا الظرف ايضا حيث كانت الوحدة العربية في الدرجة الاولى والاتحاد العربي في الدرجة الثانية مطلب الوفد السوري في مشاورات الوحدة العربية على ما ذكرناه في الجزء الرابع من هذه السلسلة ، وحيث كانت لرئيس جمهوريتها شكري القوتلي كلمة ذهبت مثلاً جاء فيها « ان سورية لن تقبل ان يرتفع على بلادها علم آخر غير علم الوحدة العربية » .

ومما لا ريب فيه ان النظام الجمهوري الذي يقوم في سورية كان عاملا مهما ساعد على تقديم سورية هذا الدليل في كل موقف اقتضاها منذ عهدها الوطني الثاني، وان هذا النظام او كان قائما في الاقطار العربية الاخرى لكانت ارادة الشعوب العربية فيها ظهرت قوية رائعة في هذه الوحدة ولكان في الامكان تحقيق هذا الهدف العظيم في هذه الحقبة من تاريخ العرب الحديث ولكانت كارثة فلسطين قد تفوديت في الوقت نفسه .

- ٣ -

معاكسة الوحدة او الاتحاد

والذين تتبعوا ظروف قيام الجامعة العربية يعلمون ان الملك السعودي جعل احتفاظ كل قطر من اقطار العرب التي كانت مدعــوة للاندماج في حركة المشاورات بحالته الراهنــة دون اي تبديل أو تغيير شرطا اساسيا لاندماجه في الحركة وجعل ملك اليمن يتمسك بنفس الشرط ، ولم تندمج المملكتان السعودية واليمنية أو بتعبير ادق ملكاها في الحركة الا بعد تضامن ملك مصر معهما في هذا الشرط ، وظلوا يقفون في كل مناسبة وازاء كل حركة او رغبة تهدف الى تحقيق شيء من الوحدة او الاتحاد موقف الممانعة بشتى الوسائل .

دور مصر في امكانية تحقيق شيء من هذا الهدف

ولقد بدا من الملك فاروق من حسن الرغبة والاستعداد للاندماج في الحركة العربية والتشجيع عليها وحمل رجال الحكومات والاحزاب المصرية على السير فيها رغم عدم ايمان بعضهم بها وشعوبية بعضهم ما بعث التفاؤل والاغتباط ، غير

انه لم يبد منه أي حركة ايجابية في سبيل الوحدة او الاتحاد اللذين هما من أهم اهداف الحركة العربية إذا استثنينا الضمان الجماعي الذي شرحنا ظروفه ومداه في الجزء الخامس من هذه السلسلة والذي ما يزال حبراً على ورق بعد توقيع معاهداته الذي مر عليه نحو سنة ونصف مع اننا نعتقد ان دعوة وجهداً جديين منه في سبيل الوحدة او الاتحاد يمكن ان يكون لهما أثر ايجابي قوي في الاقطار العربية او بعضها على الاقل ، لان مركز مصر وملك مصر من شأنهما ان يبعثا الطمأنينة في القلوب وان يحلا في ذات الوقت مشكلة التنافس والتنابذ القائمة بين الهاشميين والسعوديين .

دعوة الملك عبد الله

وإذا كان الملك عبد الله ظل يدعو الى الوحدة والاتحاد وخاصة بالنسبة لبلاد الشام فان هذه الدعوة ظلت تمتزج بالمطامع الشخصية والدعايات والحركات المتنوعة التي كانت تجعل سورية تنقبض عنها مع ايمانها بها وتثير من المشاكل والمخاوف ما من شأنها احباطها كما كان شبح النفوذ الانكليزي الذي يشمل المملكة الاردنية طوعاً ورضاء جاثما وراءها ، وبالتالي إن هذه الدعوة بالاسلوب الذي كانت تجري به والدعايات والحركات والمخاوف التي كانت ترافقها كانت هي الاخرى بمثابة المانع والحائل دون بلوغ الهدف .

اكثرية لبنانه مع الوحدة

وإذا كان لبنان مع نظامه الجمهوري لا يقدم الدليل الصريح الذي قدمته سورية فان ذلك راجع لاعتبارات اخرى لا دخل لنظام الحكم فيه ، ولدسائس الافرنسيين ووساوسهم ومبشريهم ورجال الكهنوت حيز كبير في هذه الاعتبارات على ما شرحناه في الجزء الثاني من هذه السلسلة . ومع ذلك فاكثرية سكان لبنان في جانب الوحدة أو الاتحاد حتما لو جرى فيه الاستفتاء الحر الذي المعنا اليه . فان نصف سكانه الذين هم محمديون وفريق غير يسير من مختلف الطوائف النصرانية من انصار الوحدة . ولا يمكن المماراة في ذلك لانها من الحقائق الملموسة التي يقوم عليها الدليل من حين لآخر في مختلف الظروف والمناسبات .

- ٤ -

اثر الغدر الانكليزي في تشتت شمل العرب

ولن ننسى الانكليز وغدرهم ومكرهم وكيدهم في هذا الموضوع الحيوي منذ البداية إلى النهاية . فقد غدروا بالعرب وخانوهم ولما يجف مداد العهود التي قطعوها لهم على يد الملك حسين ، وتآمروا مع فرنسه على تقطيع اوصال سوريا واستعمارها وقطع الروابط بينها وبين العراق والحجاز ، ثم ظلوا هم وشركاؤهم في الجرم والاثم يواصلون مؤامراتهم بمختلف الاساليب حتى بدت بلاد العرب اشلاء متناثرة واجزاء متنافرة . وكانت غدرتهم الكبرى فيهم في فلسطين وما انتهى امرهـــا من قيام الدولة اليهودية وانقطاع عقدة الصلة بين شمال بلاد العرب وجنوبها وشرقها وغربها فضلاً عما ثار بين العرب من احقاد وضغائن وريب كانت اليد الانكليزية الاثيمة طولى في اسبابه على ما شرحناه في الجزء السابق . وقد انتهى بنا الكلام عنـــد الحديث على ظروف قيام الجامعة العربية وإخفاق حركة الوحدة والاتحاد الكلي او الجزئي اثناء الحرب الى تقدير ان الانكليز كانوا هم ايضا من أسبابه على ما شرحناه في الجزئين الثاني والرابع من هذه السلسلة .

- ٥ -

الاتحاد قد يصلح ليكون المرحلة الاولى

ومهما يكن من أمر فانه آن للعرب ان يفكروا تفكيراً جديا وعاجلاً في هذا الهدف ويتحركوا نحوه وان تشتد الدعوة الى ذلك بعد ما كان من إخفاق تجربـة الجامعة العربية وعدم سدها الحاجة الشديدة الى تعاون حقيقي وثيق بـين الدول العربية وظروف الامة والبلاد العربية الداخلية والخارجية والسياسية والاقتصادية والثقافية والعسكرية تقضي بالتعجيل في هذه الحركة وعدم تركها لزمن طويل .

وإذا لم يكن الوعي القومي العربي قويا كاسحا تستطيع الامة العربية ان تملي به ارادتها ولا يستطيع رؤساؤها تعطيل هذه الارادة فان رجالات العرب البارزين على المسرح القومي والسياسي والقابضين على ازمة الامور والمؤثرين فيها مدعوون الى التفكير الجدي العاجل في هذا السبيل ، وهم قادرون فيما نعتقد إذا ما جدوا

وتضامنوا على عمل شيء كثير في هذا الباب .

وإذا كان وضع الاقطار العربية الراهن سواء من ناحية وجود كيانات شخصية واقليمية ورسوخ اعتباراتها او من ناحية سلبية الوعي وجموده او من ناحية التفاوت الثقافي والاقتصادي لا يساعد على قيام وحدة سياسية شاملة في ظل دولة واحدة في هذه المرحلة من مراحل تاريخ العرب ولو على نمط الولايات المتحدة الذي يمكن ان يكون مثاليا بالنسبة للبلاد والشعوب العربية فلا مانع من مسايرة هـــذا الوضع وجعل تحقيق فكرة الوحدة العربية على مراحل بحيث يكون هدف المرحلة الاولى قيام اتحاد يشمل :

١ – الشؤون العسكرية فيكون هناك جيش متحد تحت قيادة واحدة ونظم واحدة وسياسة عسكرية واحدة .

٢ – الشؤون الخارجية فيكون هناك تمثيل سياسي واحد وسياسة خارجية واحدة

٣ – الشؤون الاقتصادية العامة فيكون هناك نقد واحد وجمارك وبرق وبريد ومواصلات موحدة في النظم والادارة مع رفع أي قيـــد وشرط عن تنقلات الاشخاص المنسوبين الى الاتحاد واموالهم وإقامتهم ونشاطهم وعملهم .

٤ – شؤون التربية والتعليم فيكون منهج ثقافي واحد من جهة النظم والمناهج والخطط التعليمية العامة .

٥ – التشريع العام فتكون القوانين المدنية والجزائية والذاتية والاصلاحية والاجتماعية واحدة صادرة عن مصدر تشريعي واحد كما هي الحال في الولايات الاميركية

ويبقى لكل دولة استقلالها الداخلي فيما يتصل بطرائق التطبيق والامن والعمران والتنظيم والوظائف والجباية وما يتصل بهذه من قوانين وتشريعات وتشكيلات وتحتفظ كل دولة بشكل حكمها الراهن كذلك ، ويقوم على ادارة الشؤون الاتحادية المذكورة مجلسان يشترك فيهما ممثلون من الدول المتحدة واحد اجرائي أو تنفيذي وآخر تشريعي بنسبة يتفق عليها وتكون مستمدة من ظروف ودور وتكاليف كل دولة من الدول المتحدة ، وتقسم نفقات المصالح والمؤسسات الاتحادية بين الدول المتحدة وريعها ووظائفها بنسبة ميزانيـــة أو عدد سكان كل دولة او بنسبة اخرى تنسجم مع الظروف الاجتماعيـــة لكل دولة . ويضع مجلس تأسيسي

مشترك قانوناً أساسياً لهذا الاتحاد تحدد فيه الاهداف والغايات والحقوق والواجبات والسلطات والكيفيات بصورة عامة .

ويندمج في هذا الاتحاد مصر وسوريا ولبنان والعراق والاردن والمملكة السعوية والمملكة اليمنيه أي دول الجامعة العربية اليوم ان امكن . ويجب ان يكون مركزه مصر لما لها من ميزات عديدة تجعل مركزيتها للاتحاد مهضومة من قبل الدول الاخرى عدا كونها قد تكون حلاً للمشكلة النفسية والتنافسية القائمة بين رؤساء العراق والرياض والاردن واسرهم . ومع اننا نميل الى أن تكون رآسة الاتحاد لمصر وملكها بناء على ما ذكرناه من الميزات تقوية لمعنى الاتحاد القومي الذي تستهدفه الحركة القومية فان من الممكن الاستغناء عن رآسة رمزية وملكية له إذا ثارت الاعتبارات الشخصية والاكتفاء برآسة عملية يتناوبها ممثلو الدول المتحدة في دورات سنوية .

وهناك أمارات عربية في انحاء جزيرة العرب جنوباً وشرقاً وشمالا لها كيانات خاصة على صغرها وتلعب فيها الاصابع والمطامع الاستعمارية فتجعلها تحرص على هذه الكيانات مع اتصالها الوثيق الجغرافي بدول اليمن والسعودية والعراق ، والافضل في المرحلة الاولى على الاقل ان يضم كل منها الى الدولة الاكثر قربا والاشد صلة جغرافية واجتماعية واقتصادية . وإذا تعذر هذا فلا مانع من دخولها في الاتحاد كشخصيات خاصة اسوة بالاردن ولبنان .

وطبيعي ان تكون الدولة الليبية التي سيد شن وجودها رسميا بعد قليل عضواً في هذا الاتحاد كما ان من الطبيعي ان تكون كل من تونس والجزائر ومراكش اعضاء فيه حالما يتم تحريرها الذي يجب على الاتحاد العربي بعد تكونه بذل جهده المتصل في سبيله .

وهذه الصورة التي نرسمها تنطوي ولا ريب على نواة المملكة العربية المتحدة التي يستطاع فيها سبك الامة العربية في قالب واحد ، وتوجيهها في اتحاد واحد والحاق المتأخر منها بالمتقدم من النواحي الثقافية والاقتصادية والاجتماعية ، وتكثيف جهودها وقابلياتها واستغلال إمكانياتها العظيمة حتى تصل الى اكمل ما يمكن من درجات الثقافة والرفاه والكرامة والقوة والصلاح الاجتماعي والفردي

والاقتصادي وتتبوأ مركزها اللائق بها بين امم الارض كأمة ذات امجاد تاريخية وذات خصائص وقابليات عظيمة ، وفي اثناء ذلك تكون فكرة الدولة الواحدة قد نضجت فتغدو نواة الاتحاد حقيقة للمملكة العربية المتحدة التي نرى ان تقوم على نمط ونظم الولايات المتحدة الاميركية .

وطبيعي اننا نقدر ان هذا ليس سهلاً كسهولة رسمه على الورق . ولكن الجهد المنظم والجد والاخلاص في السعي والايمان بالفكرة والهدف - وكل هـذا مما يجب على منظماتنا توجيه الشعور اليه وتركيزه فيه - من شأنه تهوين كل عسير ، ولاسيما إنه ليس امام هذه الامة طريق آخر يضمن لها حياة كريمة قوية غير هذه الطريق

- ٦ -

جد العرب كفيل بالتغلب على المصاعب والعراقيل

ومهما يكن من احتمالات عراقيل الاجنبي في سبيل تحقيق هـذه الصورة في مرحلتها الاولى التي هي مرحلة خطيرة من دون ريب توصل الى تلك الحقيقة فاننا لا نشك في ان الامر قبـل كل شيء هو امر العرب انفسهم والارادة ارادتهم . ولقد كانوا يسجلون في نضالهم القومي خلال الحقبة التي مضت ومن حين لاخر حينما تهزهم النجدة وتنخسيء عنهم همزات الشياطين من مستعمرين ومستغلين وكائدين وانهزاميين ، وتتأجج عاطفتهم التي لا يعود يقوى على إطفائها شيء والتي كان يرتعد امامها كل منافق دساس وضعيف خائر أروع الصفحات ويضربون في البطولة والاستبسال والتضحيات ابهر الامثال وتقوى ارادتهم وجلدهم حتى يثيرون بقوتها اعجاب العالم مما وصفنا بعضه في الجزء الثاني والجزء الثالث من هـذه السلسلة . وعراقيل الاجنبي انما تنجح بما يمكن ان يجده من ثغرات او ضعف في إرادة العرب ورغباتهم وجدهم وإخلاصهم وانانيتهم . والجهد المنظم الدائب من شأنه ان يسد هذه الثغرات فلا يجد الاجنبي منفذاً للدسائس والمكائد والعراقيل او يضيق المنافذ امامها بقدر الامكان ..

تعليق على ما يمكن ابرازه في صدد الاتحاد

ولقد يقال ان ارتباط بعض الدول بمعاهدات فيها التزامات عسكرية وغير عسكرية في حين ان بعضها حر من كل قيد قد يجعل الاتحاد بينها خطراً على الدول المطلقة من حيث كونه يجرها الى داخل الشبكة مع الدول المقيدة . وقد قيل هذا حين قامت الدعوة الى اتحاد ثنائي بين بعض الاقطار . ونحن لا ندري كيف يمكن ان يكون هذا إذا احتفظت كل دولة بكيانها . فالمعاهدات الموجودة إنما تنص على التزامات معينة في داخل اراضي الدولة المقيدة بها وحسب . والاتحاد إذا قام فسوف يقوم بموجب ميثاق مماثل لميثاق جامعة الدول العربية من وجهة الاسلوب الفني مبدلا في الاسم والمدى وقوة الالزام والتنفيذ . ولقد كانت تلك الحالة موجودة حينما قامت الجامعة العربية فلم تمنع قيامها واشتراك المقيدين والمطلقين على السواء فيها . ولقد كانت موجودة كذلك حينما عرض الضمان الجماعي بديلاً من الاتحاد الثنائي فلم تمنع من مضي الدول العربية في بحثه وايصاله الى مرحلته الكلامية النهائية واشتراك الدول المقيدة والمطلقة على السواء في توقيع معاهدة الدفاع المشترك التي انبثقت منه . وخطر وقوع الدول المطلقة لو صح وروده فانما يكون إذا نشبت حرب عامة . وفي هذه الحالة يكون الخطر واقعاً عليها سواء اتحدت مع غيرها او لم تتحد لانها محاطة بالدول المقيدة ومن العسير عليها ان تدافع عن حيادها بالقوة كما ان الدول الكبرى لن تحترم هذا الحياد من نفسها وقد رأينا أمثلة كثيرة على ذلك في اوروبا وآسيا وفي بلادنا نفسها اثناء الحرب العالمية الاخيرة

ولقد قلنا ان خطر الوقوع في الشبكة يرد إذا صح وروده في حالة الحرب وليست هذه الحالة دائمة ابدية . ومدة السلم على كل حال اطول . فالمصلحة القومية تقضي ان لا يتعطل والحالة هذه مشروع اتحاد الدول العربية الذي يهدف الى اهداف عظيمة تتصل بصميم الحركة العربية الحديثة واهدافها وحياة العرب وبلادهم ومصالحهم ومستقبلهم من مختلف النواحي وفي جميع الظروف والحالات . وتعليقه الى ان تتفلت الدول المرتبطة بالمعاهدة مؤخر لتحقيق هذه الاهداف بل وقد يكون

مؤخراً لنجاة هـذه الدول من حيث كون هذه النجاة أكثر امكاناً حينما ينتظم الاتحاد جميع الدول العربية ويغدو لها جيش متحد واقتصاد متحد وتشريع متحد وسياسة متحدة وبكلمة واحدة جبهة متحدة قوية .

يضاف الى هذا ان الدول المرتبطة بالمعاهـدات معترف باستقلالها وسيادتها التامتين وممارسة لها ، وفي شعوبها روح تمرد قوية ضد المستعمرين والزامات هـذه المعاهدات وهم متحفزون للتفلت منها، فالاتحاد والحالة هذه من شأنه ان يبث القوة ويشدد العزيمة في سبيل النضال والفكاك في شعوب هذه الدول قبل غيرها .

وتطور روح العـالم وما اثاره من روح التمرد والتوفر والتحفز في الامم الشرقية يعسر يوماً بعد يوم استمرار نظام الاستعمار والمعاهدات التي تقوم على عدم التكافؤ واساليب الشباك والتطويق الراهنة فضلاً عن انه يجعل امتداد ذلك الى ما هو سليم منه اشد عسراً . ولقد نجا بقوة هذا التطور بلاد اغنى واوسع من البلاد العربية المقيدة بالمعاهدات كاندينوسيا والباكستان والهند وكانت يد المسيطرين عليها اشد وطأة من يد اصحاب هذه المعاهدات . ولقد نجت سوريا ولبنان كذلك بقوة هذا التطور ونحن نعرف مقدار اشتداد اليد والمطامع الافرنسية .

ولقد اخذت الدول العربيـة المرتبطة تسعى جاهدة في سبيل الفكاك ولم تعد تسيغ ما كانت تسيغه من قبل ؛ ولم يعد يسع الدول المسيطرة إلا الملاينة والمسايرة والتأويل والتفسير مما يؤيد ما قلناه من امكان النجاة وقوته بالاتحاد من جهة وعسر الامتداد من جهة اخرى . هذا الى ان الدول الناجية قوية الشعور بخطورة ماتتمتع به من عزة وكرامة وانطلاق وفخورة به وشديدة الحرص عليه . ومن العسير ان تخدع عن امرها وتغفل عن اي شبكة تنصب لها . وليس من الصعب ان توجد الصيغ والشروط التي تضمن لها ما تتمتع به من حرية وانطلاق فوق كل ذلك .

لذلك نعتقد انه يجب ان تشتد الدعوة الى هـذا الاتحاد وان يتضامن المخلصون من رجال العرب وشبابهم في تحقيقه في اقرب وقت ممكن .

- ٨ -

مراحل اتحادية اذا لم يمكن الاتحاد مرة واحدة

على انه إذا تعذر السير في مرحلة الاتحاد العام مرة واحدة فلا مانع من السير

فيها على مراحل ايضاً حيث يقوم الاتحاد في اول الامر بين البلاد المتقاربة في الحياة العصرية السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية اي مصر وسوريا ولبنان والعراق والاردن ، او بين بعضها والبعض الآخر ثم تبذل المساعي لاتمام السلسلة .

اتحاد الاردن والعراق اسهل خطوات هذه المراحل

وإذا تعذر هذا كذلك فلا مانع من ان تكون الخطوة الاولى اتحاد الاردن والعراق حيث يتراءى لنا انه عملية سهلة التحقيق . فالاسرة المالكة في البلدين واحدة وليس بينهما اي اعتبار من تلك الاعتبارات المانعة التي تساق في صدد اتحاد غيرها ، والسياسة التي ترتبطان بها وتجريان عليها ايضا واحدة سواء اكانت عربية أو خارجية . وقد تكون هذه العملية تجربة ناجحة يتأثر بها غيرهما من البلاد العربية وفيها في ذات الوقت حل للأزمة التي تضيق خناق الاردن سنة بعد سنة بسبب حرمانه من الاسباب والموارد الذاتية بعد أن سيطر اليهود على كل هذه الاسباب والموارد كما فيها تطمين لقلوب اهله سواء منهم الذين على الضفة الشرقية ام الغربية وتهدئة لخوفهم الدائم من العدو الغادر المتربص بهم الرابض على حدودهم الطويلة حيث تنفتح الآفاق ويغدو مجال النشاط والحركة والعمل والأمل واسعا امامهم من مختلف النواحي السياسية والعسكرية والاقتصادية والقومية ، ولعلها الى هذا كله تؤدي الى تخفيف يد الانكليز ووطأتهم في الاردن حيث تغني الاردن عن الاعانة الانكليزية التي تجعلهم ذوي اليد الطولى في الجيش ثم في سياسة البلاد .

وليس من محل ولا مبرر لتأخير هذه العملية السهلة والعظيمة الفائدة بحجة ان الاولى اتحاد اجزاء الشام اولا . فمع قوة هذه الحجة فان تحقيق هذا القصد ليس سهلًا وسائغا للظروف والاعتبارات التي ذكرناها قبل قليل .

دعوة رؤساء العراق والاردن ورجالهما الى تحقيقه عاجلا

ورؤساء الاردن ورجاله مدعوون للتدبر في هذا الاقتراح والسعي لتحقيقه وتسهيل اسبابه في الدرجة الاولى لأن بلادهم في حالة اقتصادية سيئة وستزداد سوءاً على سوء . ونعتقد ان هذه الحالة غير خافية عليهم . وهم لا يفتأون في كل

مناسبة يثيرون حديث الوحدة العربيـة وأهداف النهضة ويبدون استعداداً لكل تضحية في سبيلها . فعليهم ان يبرهنوا على صدقهم في هـــذا القول دون تمسك وتشدد بالاعتبارات الشخصية وان يقدموا على خطة ايجابية محققة للعملية عاجلا . وإلا فتكون الحجة قد لزمتهم من ناحيتين الاولى ناحية قول لا يؤيده عمل والثانية كونهم إذا لم يستطيعوا ان يتحدوا مع العراق اي إذا لم يستطع الأخ ان يتحد ويتفق مع اخيه فليس لهما ان يعتبا على غيرهما . وهذا بالاضافة الى انهم يبرهنون على انهم غير عابئين بالحالة السيئة التي عليها بلادهم من الناحية الاقتصادية ومن ناحية الامن والخوف بدافع الاعتبارات الشخصية .

ولا يعني هذا ان واجب رؤساء ورجال العراق في هـــذا الموضوع اقل من واجب رؤساء الاردن . فكثير منهم من رجال الحركة العربية ودعاة الوحـــدة العربيـــة . ولبعضهم مواقف ومشاريع ايجابية في هذا الصدد . ولا يفتأون هم الآخرون يرددون واجب انقاذ فلسطين والاردن في حالة اقتصادية سيئة فضلاً عما يقلقه من عدو العرب الغادر. ولقد كان موقف العراق العسكري في حرب فلسطين مكتنفاً بالغموض . ووجه اليه بسببه النقد والمسؤوليـة على ما شرحناه في الجزء الخامس . فعليهم ان يتلافوا ما كان ايضاً وان يتضامنوا في تحقيق هـذه الخطوة التي نعتقد انهم يدركون مداها واثرها في الحركة العربية واهدافها وفي قضية فلسطين الشهيدة حاضراً ومستقبلا . ولا ندري ما هو موقف الانكليز إزاء مثل هـــذا الاقتراح . ونحن نعرف انه كان موضوع بحث منذ سنتين ولم يمكن تحقيقه . ولا نستبعد ان يكون الانكليز هم الذين حالوا دونه استبقاءً ليدهم الطولى على الاردن وتفادياً من تضامن شعبي عراقي اردني فلسطيني قـــد يزعجهم او يطوح بهم . ولا نستبعد كذلك ان يدسوا في سبيل تعطيله من جديد سراً إذا أرادوا ان يتظاهروا كما هي عادتهم بترك الامر لرغبة الشعبين . غير أن من الواجب ان يكون العراقيون والاردنيون اقوى من ان يحول الدس الانكليزي دون الاقدام على تحقيق هـذا الامر الحيوي جدا لهم جميعاً وخاصة للاردنيين . فالأمر امرهم اولا وآخراً ، ولن يستطيع الانكليز منع تحقيقه إذا جدوا وعزموا وصدقوا في الرغبة . ولقد آن لنا

ان نقدم على امور بوحي انفسنا وان لا نبالي بما يريده الانكليز او لا يريدونه (١) .

- ٩ -

وبعد فاننا نسوق ما نسوق من المقترحات المراحلية والاتحادية التي تتسع لبقاء اشكال الحكم ونظمه الراهنة في البلاد العربية على حالتها تمشياً مع ما هو واقع من حالة الحكم في بلاد العرب ، ولما نراه من حرص رؤساء العـــرب على التمسك بمراكزهم وكياناتهم الاقليمية ، ولأننا لا نرى في اي بلد الاستعداد والقدرة معاً على تحقيق الوحدة بالفرض والاملاء في هذه الحقبة من تاريخ العرب . وهو الطريق الذي سارت فيه ايطاليا والمانيا اللتان كانتا مثل بلادنا مقسمة الى ممالك وامارات ودويلات ومنها ما كان راضخاً للسيطرة الاجنبية فحققت به وحدتها واستطاعت في ذات الوقت ان تخلص الاقطار الراضخة للسيطرة الاجنبية من هذه السيطرة . ولم يكن ملوكها وامراؤها اقل حرصاً من ملوكنا وامرائنا على الاحتفاظ بكيانهم وسلطانهم والاستمرار في الاستمتاع بالملك والحكم لأنفسهم واخلافهم من بعدهم .

(١) كتبنا هذا قبل اغتيال الملك عبدالله ببضعة اسابيع . ولم نر ان نغير منه شيئا. ولقد ظهر ان الملك الراحل كان يسعى في تحقيق مشروع مثله وان العراق كان متطابقاً معه ، وان الملك قدم مشروعاً والعراق قدم مشروعاً وان كلا المشروعين يهدفان الى الغاء الحواجز المرورية والجمركية وتوحيد السياسة الخارجية والدفاعية والنقد ، وان الفكرة كانت في طريق التحقيق . ولقد ارتفعت بعد وفاته اصوات من العراق واخرى من الاردن بوجوب تحقيق الفكرة وبدا ان هـــذا صار في نطاق الامكان ثم لم يلبث ان تعثر. وقد لمس ان للانكليز اثرا في هذا التعثر وهو ما خمناه . وفي هذه الاثناء صدر من توفيق ابي الهدى رئيس الوزارة الاردنية تصريح علق فيه تحقيق الفكرة على التفاهم العربي العام . وقد وقع هـــذا التصريح عند الناس موقع الاستغراب لان صاحبه هو الذي اضطلع بتنفيذ الوحدة الاردنية الفلسطينية رغم ما كان من توتر عربي عام ومعارضة عربية عامة . وهو يعرف قبل غيره ان التفاهم العربي العام حول هذا الموضوع وما يدخل في نطاقـــه لن يكون لان الاعتبارات الشخصية والاقليمية تقف في سبيله ، وهو مشروع سائغ لا يحتمل ان يكون مثيراً لتوتر عربي عام اذا ما كان برضاء الشعبين وهو ما هو حاصل . وحاجة الاردن الى عملية اتقاذية تزداد الحاحاً يوماً بعد يوم لان مقومات بقائه لحدته وكفايته لنفسه تتضاءل يوماً بعد يوم فمن واجب من في الاردن والعراق ان يقدموا على تحقيق هذه العملية الانقاذية في اسرع وقت ممكن اذا كانوا حقاً يريدون الخير لامتهم وبلادهم ويصدقون فيما يقولون من انهم يجعلون الاعتبارات والمصلحة القوميـــة فوق الاعتبارات والمصلحة الشخصية . ولن يستطيع الانكليز ولا غيرهم منع ذلك اذا ما صدقت النيات وصحت الرغبات في الاردن والعراق .

الفصل العاشر

- ١ -

ثأر فلسطين

ومما لا ريب فيه ان قيام الاتحاد العـــربي كفيل بغسل عار فلسطين وتحقيق ثأرها . غير ان هذا منوط بسرعة تحقيقه ونعتقد انه لا يجوز تأخير ثأر فلسطين الى حين تحقيقه إذا تأخر اكثر مما ينبغي مما هو محتمل كثيراً . لأنه كلما طال الزمن توطدت الدولة اليهودية وعمقت جذورها وكثر عـــدد سكانها وعظمت امكانياتها واستعداداتها صار اقتلاعها أو تغيير شيء من معالمها الراهنة على الاقل اشد تعذراً وصعوبة ، وغدا ضررها وخطرها العسكري والسياسي والاجتماعي والاقتصادي على العرب وبلادهم اشد واعظم . والمتتبع للحوادث يرى اليهود ناشطين في سبيل ايقاع هذا الضرر اشد النشاط ، وهم ينتهزون كل فرصة ومناسبة لمعاكسة مصالح العرب ومساعيهم وتشويه اسمهم في الاوساط الدوليـة العامة والخاصة كما انهم لا ينون في بث الدسائس ورسم خطط التدمير والتجسس والتعطيل والتعكير عليهم في داخل بلادهم ايضاً . وقد ذكرنا ما اكتشفته حكومة العراق من نواياهم الرهيبة ومخازن سلاحهم في الجزء السابق مما من شأنه ان يضاعف من قلق العرب وهمهم ويحملهم على شدة الاهتمام ، وهذا فضلا عن مطامعهم ونزعتهم التوسعية التي سوف تزداد كلما كثر عددهم وعظمت استعداداتهم والتي سوف ينتهزون اي فرصة مناسبة لتحقيقها تدريجياً بكل ما يكون في طوقهم . وكل هذا غير غائب فيما نعتقد عن اذهان وافهام العرب ورجالهم الرئيسيين .

فالصبر على اليهود طويلا خطر كل الخطر على كيان العرب وبلادهم ومصالحهم الخاصة والعامـــة والداخلية والخارجية والسياسية وغير السياسية ، ومن اعظم واجبات العرب والحالة هذه ان لا يضيعوا لحظة واحدة في التفكير والتدبير لدفع هذا الخطر ، وليس من شأن غير القوة ان تدفعه فضلا عن انها هي المعول الوحيد لغسل العار الشديد الذي الحقه اليهود وحلفاؤهم بالعرب واسترداد اعتبارهم في نظر

الدنيا . وكل امل واحتمال في حل مشكلة فلسطين على نحو ايجابي ومرض لكرامة العرب وحقهم بغير القوة العربية عبث وسخف ، لأن غير العرب هم ضد العرب صراحة وضمناً وسكوتاً ما دام العرب لا يعمدون الى القوة ، واليهود في الخارج اقوى وسائل وتأثيراً من العرب حتما بحيث انهم قادرون على احباط أي مجهود عربي سياسي .

- ٢ -

واجب العرب في هذا الامر

وواجب العرب في هذا الباب متنوع الجبهات . فمن جهة يجب ان يهتم شباب العرب ومنظماتهم وصحافتهم ووعاظهم وخطباؤهم واساتذتهم وكتابهم لبث الدعوة وتوجيه الشعور العام وتقويته في هـــذا الاتجاه . ومن جهة يجب ان يشتد أهتمام الحكومات العربية للتسلح والاستعداد والتدريب بأوسع مقياس ممكن . ومن جهة يجب السير في تحقيق نصوص معاهـــدة الدفاع المشترك بكل جد واخلاص وسرعة . والامران الثاني والثالث مما يجب على شباب العرب ومنظماتهم وصحافتهم ووعاظهم وكتابهم وخطباؤهم الدعوة اليها ومطالبة الحكومات بها .

- ٣ -

المرحلة الاولى في هذا الواجب

وقد يكون اقتلاع جذور الدولة اليهودية غير ممكن مرة واحدة وانه لا بد له من مراحل ، ولا مانع من ذلك ما دام انه من مقتضيات الواقع الذي لا يمكن تجاهله . والمرحلة الاولى يجب ان تكون ارغام اليهود على تنفيـــذ قرارات هيئة الامم في قضايا الحدود واللاجئين وتدويل القدس . وإذا قامت الحكومات العربية في الامرين السالفين ــ تطبيق معاهـدة الدفاع وشدة الاهتمام للتسلح ـ بجد ودأب وايمان فانها تستطيع ان ترغم اليهود على ذلك وتضطلع بتنفيذه بالقوة إذا لم ينصاعوا . ويجب ان يتم هذا خلال سنتين او ثلاث على الاكثر . ولا نراه عسيراً إذا ما جدت الحكومات العربية وأبت ان تسجل على نفسها وشعوبها عاراً جديداً قد يكون اشد من الاول وانكى . وهي بعد اعضاء في هيئة الامم التي قررت تلك القرارات

والتي كلما طولبت هذه الهيئة بتنفيذها قالت انها لاتملك وسائل التنفيذ. وللحكومات العربية بعد منظمة اقليمية من واجبها تأمين السلامة والسلام في منطقتها. واستمرار اليهود في بغيهم وعدم تنفيذهم قرارات هيئة الامم مما يخل بذلك، ولاسيما ان هناك مليون لاجيء جردهم اليهود من كل مقومات الحياة، وهم الآن يتصرفون بأملاكهم وبيوتهم وحقولهم وقراهم وبساتينهم ومرافقهم بغياً وعدواناً واصحابها في اشد حالات البؤس والحرمان، وبقاؤهم على هذه الحال مما يؤدي الى الاضطراب.

امكان ذلك ومبرراته

ونعتقد ان الحكومات العربية إذا وقفت وقفة قوية جماعية بعد ان قد استعدت في التسلح ونظمت خططها وفقا لمعاهدة الدفاع المشترك تستطيع ان تحقق تنفيذ تلك القرارات دون ما حاجة الى استخدام القوة ايضا. ونقول هذا ونحن غير ناسين ان انكلتره واميركا وفرنسا اعلنت في بيانها الثلاثي الذي ذكرناه في الجزء السابق عزمها على منع اي تعديل في الحدود بالقوة. غير اننا نعتقد ان في هذا الاعلان تهويشاً على العرب، وانها إذا ما تيقنت من تصميم العرب ستجد نفسها امام موقفين، اما تكرار مَثل كوريا في البلاد العربية واما الضغط على اليهود وارغامهم على تنفيذ قرارات هيئة الامم. وقد رأينا كيف كان امر كوريا وما تخلله من غصص وندم وحسرة وفواجع. ولا يرد ان اصبع الروس كانت في كوريا، فان احتمال المضاعفات الداخلية والخارجية في الشرق العربي مخزن النفط الاعظم لا يمكن ان يغيب من بال الدول الثلاث الى درجة ان يجعلها تقدم على عمل عنيف جماعي ضد العرب، وخاصة ان لموقفهم مبررات قوية لم تكن في ظروف كوريا، لانهم ليسوا مفتاتين على اليهود ولا باغين وانما هم يجعلون انفسهم اداة لتحقيق قرارات هيئة الامم وصيانة كرامتها كما فعلت اميركا والدول التي انجرت معها ...

فالامر اولا وآخراً في يد العرب ورهن بجدهم واخلاصهم وايمانهم بقضاياهم، ولقد آن لهم ان يجدوا ويخلصوا ويؤمنوا بهذه القضايا كما آن لهم ان يتحرروا من تهيب هذه الدول وملاينتها، وهي التي لا تفتأ تصفع العرب صفعات بعد صفعات في مختلف المواقف والمناسبات بعد صفعتها العظمى لهم في اقامة الكيان اليهودي وبذل كل جهد في توطيده. ولا نعتقد ان هذه الدول تستطيع ان تفعل بهم اكثر

بما فعلته إذا ما اشتد السخط والحقد عليها – وهو ما يجب على شباب العـــرب ومنظماتهم وخطبائهم و كتابهم ووعاظهم وصحافتهم واساتذتهم ان يدعوا اليه – وتشددت الحكومات العربيـة في خطتها معها ، بل ان من المحتمل ان تعدل هذه الدول خطة الغدر والبغي والاستهتار التي تسير فيها مع العرب تعديلاً كثيراً . ولقد مشى العرب في ركابها طويلاً وسايروها اعظم مسايرة وضحوا بدمائهم وبلادهم في سبيلها فلم يكن منهم لها إلا تلك المواقف اللئيمة في كل مناسبة .

– ٤ –

الدور الذي يستطيع الفلسطينيون ان يقوموا به

ويستطيع الفلسطينيون ان يقوموا بدور عظيم في المرحلة الاولى اي في مرحلة تنفيذ قرارات هيئة الامم وهم على اتم استعداد للقيام به فضلاً عن استعدادهم للمساهمة في اي دور او حركة انقاذية بكل قواهم وتقديم اعظم التضحيات التي يمكن ان تطلب منهم فهم اصحاب الدار العارفـــين بمخارجها ومداخلها وطرقها واحراشها ووعرها وسهلها ، وهم الذين وقع عليهم بلاء كارثتها على اشد واوجع حالاته ، وهم الذين يقاسون ما يقاسون من ذل وهوان وحرمان وبؤس ويريقون الدماء بدل الدموع على وطنهم السليب وعرضهم المنهوك ويتحرقون اشد التحرق الى اخـــذ ثأرهم وغسل عارهم بكل قلب وحرارة وايمان .

وانه لمن الممكن اعداد عشرة آلاف مناضل منهم على الاقل على ان تأخـــذ الحكومات العربية على نفسها تدريبهم وتمويلهم وتنظيمهم في وحدات صغيرة ذات قيادة خاصة ، ثم توزيعهم على الحدود ، فاذا ما جاء وقت ارغام اليهود بالقوة على تنفيذ قرارات هيئة الامم كانوا هم الطلائع . ونكاد نقول اننا على يقين بأن هؤلاء المناضلين إذا سمح لهم ليستطيعون ان يقوموا بغارات قوية مستمرة تزعج اليهود ايما ازعاج وتحملهم على قبول المطلوب منهم الذي ليس هو إلا تنفيذ قرارات هيئة الامم دون اشتراك الجيوش. ولن تزيد اكلاف تمرينهم وتجهيزهم وتموينهم في الشهر عن مئتي الف جنيه ، وهو مبلغ زهيد جداً إذا ما قيس بآثار العمل ونتائجه ومحمول جداً إذا ما وزع على ميزانيات الحكومات العربيـة التي لا يقل مجموعها عن ثلاثمئة مليون جنيه . وقصارى ما يكون على الجيوش العربية ان تحمي حدودها إذا ما

حدثت اليهود انفسهم بالعـــدوان عليها بحجة مطاردة المناضلين وبحجة خرق مواد الهدنة ، وان تحبط غارات اليهود الجوية إذا ما ارادوا التهويش على البلاد العربية بها واثارة اعصابها .

وللقارىء ان يتصور ما تستطيع ان تفعله خمسمائة عصابة كل واحدة مؤلفة من عشرين مناضلاً على رأسهم ضابط او قائد منهم منتثرة على طول حـــدود ما يحتله اليهود من فلسطين من الشرق والشمال والجنوب انتشاراً منظماً وفق خطة مرسومة حيث تستطيع كل وحدة ان تقوم بحركة واحدة في كل يوم على الاقل من تدمير او خطف او قتل او نهب او تعطيل اسلاك او نسف او تخريب طرق ومعابر الخ ولا يداخلنا اي شك في ان شهرين او ثلاثة تواصل هـــذه الوحدات اعمالها على هـــذا النمط يومياً فيها كافية لجعل اليهود يجنون قلقاً واضطرابا وخوفا ولن يستطيعوا ان يقابلوا هذه الوحدات مقابلة حربية لأن خطتها ستكون كراً وفراً على اسلوب حرب العصابات التي اعتادتها والتي ازعجت بريطانيا العظمى اي ازعاج وارغمتها على التسليم بما كان يطلبه العرب ولو نظريا على ما فصلناه في الجزء الثالث . وقصارى ما يمكنهم ان يفعلوه ان يعتدوا كما قلنا على الحدود او يقوموا بغارات جوية على المدن العربية ، وتكون الجيوش العربية مستعدة لهم فتفشل حركتهم . ولندعهم هـذه المرة هم الذين يشتكون على العرب لمجلس الامن بعد أن فعلوا بنا الافاعيل وخرقوا حدود الهدنة وشروطها مراراً وتكراراً وحققوا كل ما قصدوه وضربوا بأوامر هذا المجلس عرض الحائط ، وكان قصارانا ان نكون نحن الشاكين المستجديق للرحمة والعدل ممن هم حرب عليهما ، ولنخاتل هذه المرة بعد ان خاتلوا هم مراراً وتكراراً على ما شرحناه في الجزء السابق ، هذا إذ لم تر الحكومات العربية ان تبدأ هي اليهود بجيوشها او لم تر أن تقابل حركاتهم التي يمكن ان تحدثهم نفسهم بها على ما ذكرناه . اما اذا فعلت ذاك او هذا على الاقل وكانت مستعدة منظمة كما قلنا فان من الممكن ان يكون فيما تفعل تحقيق الامل القريب والبعيد معا بيسر ومدة وجـيزة . ونعتقد ان اليهود يهوشون بقوتهم كثيراً وان هناك اقلاما عربية نساعدهم من حيث تدري او لا تدري على دعايتهم التهويشية ، ونعتقد ان قوى الجيوش العربيـة في حالتها الحاضرة فوق الكفاية للمهمة إذا قامت بواجبها بوحي

الاعتبارات العسكرية فقط فكانت لها قيادة واحدة نافذة وخطة واحدة مدروسة مما هو كفيل به تنفيذ معاهدة الدفاع المشترك ، لا سيما انه يرصد منذ سنتين وينفق في سبيل تحسين حالة الجيوش العربية واتمام تجهيزها اموال طائلة وخاصة في مصر وسوريا . ونعتقد ان الجيوش العربية ضباطا وجنوداً لا يقلون تحرقا عن الفلسطينيين الى منازلة اليهود واقتلاع جرثومتهم وغسل العـــار عن الامة العربية بدمائهم وبطولاتهم وتكذيب اليهود في تبجحهم الكاذب بأنهم قـــد انتصروا على جيوش الدول العربيـة السبع عسكريا مفترين بذلك على الحقيقة المعروفة من انه لم يقع حرب فعلية بينهم وبين العرب ومن ان خسران العرب للمعركة قد كان لأسباب داخلية وخارجية ليست قلة عدد العـــرب ولا شجاعتهم منها على ما شرحناه في الجزء الخامس ، كما نعتقد أن الامة العربيـــة في جميع الاقطار وعلى اختلاف الطبقات والفئات مستعدة للتجاوب مع اي حركة ودعوة في سبيل ثأر فلسطين وغسل عارها ، ومستعدة لتقديم كل تضحية تطلب منها ، وقبول كل امر يفرض عليها إذا ما جد الجد ورأت من حكوماتها عزما وتصميا .

- ٥ -

تعليق في صدد موقف الاردن

وقد يكون هناك ثغرة مهمة ، وهي عدم اندماج المملكة الاردنية في معاهدة الدفاع المشترك اولا ويد الانكليز الطولى في جيشها وسياستها ثانياً . ومع اعتقادنا ان جنود الجيش الاردني وضباطه العرب متحرقون لمنازلة اليهود واخذ الثأر ومحو العـــار وان ضمير القابضين على زمام الامر في المملكة وعاطفتهم لا يعقل إلا ان تكون مشاركة لسائر العرب في شعورهم وتحرقهم فضلا عن اليقين التام من اندماج اهل المملكة في ذلك اندماجاً تاما ، وان هـذا قد يسهل التفاهم والاتفاق على سد هـذه الثغرة على وجه مرض لا تتكرر معه الصور والمشاهد الاليمة التي كانت في حرب فلسطين وقد يمهد لاشتراكها مع الحكومات العربية في عزيمتها بقلب وجد فانه في حالة عدم امكان التفاهم والاتفاق - الذي من المحتمل جداً ان يحول الانكليز دونها بأساليبهم الماكرة - يمكن الاكتفاء منها بحفظ حدودها وهو ماستفعله بطبيعة الحال . وحينئذ تأخذ الجيوش السورية واللبنانية والعراقية من الشمال والجيوش

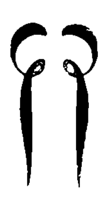
المصرية والسعودية واليمانية من الجنوب على عاتقهم العمل في الميدان لمقابلة اليهود . وقد يتطور الموقف فتحقق الغاية القصوى ولا يقف الامر عند تنفيذ قرارات هيئة الامم .

على انه إذا لم تتحقق هـذه الغاية في هذه المرحلة فيجب ان تكون نصب اعين العرب ليحققوها في مرحلة تالية لان وجود دولة يهودية في قلب بلادهم خطر مستمر عليهم جميعاً مهما كان حجمها وقوتها . وقد تسنح الفرصة فيكون تحقيقها في المرحلة التالية ايسر منالا عليهم ، ولا سيما انهم إذا تمكنوا من تحقيق المرحلة الاولى يغدون اسياد الموقف في الشرق الادنى ويصبح في استطاعتهم تضييق الخناق على اليهود في الرقعة الضيقة التي يكونون قد حشروا فيها فيمهدون بذلك لنسفها حينما تسنح تلك الفرصة .

واننا لنرى بعين الخيال ونحن نكتب هذا الآثار العظيمة التي يمكن ان يحدثها هـــذا العمل القومي الجماعي والنجاح فيه فتستولي علينا هزة شديدة من النشوة والعزة ، لان هـذا العمل والنجاح فيها – وهو ما نعتقد حصوله في هذه المرة – سيكون ايذاناً بولادة الامة العربيـة من جديد ولادة قوية رائعة ، وفكاكها من براثن المستعمرين الباغين في المشرق والمغرب العربيين، وسيرها قدماً الى الاهداف العظمى التي تستهدفها الحركة العربية الحديثة .

اما إذا تلكأت الحكومات العربية في السير خطوة عملية مثل هذه الخطوة او ما في مداها على الاقل وطال الامر فقد يصبح الامل سراباً وتكون قـد سجلت مرة اخرى على نفسها وتاريخ حقبتها عـــار الابد وذله وسمحت برسوخ جرثومة السرطان الرهيب وانتشارها في جسم البلاد العربية جمعاء ، فضلاً عن ما تكون قد اضاعته من فرصة تجربة سهلة لمعاهدة الدفاع المشترك ومداها والآثار العظيمة التي يمكن ان يحدثها النجاح فيها وما تكون قد جلبته عليها من احتقار الامم للامـــة العربية ودولها العديدة وسخريتها منها . ويجب على شباب العرب والمنظمات القومية وخطباء العرب ووعاظهم وكتابهم ان يشتدوا في الدعوة الى ذلك بحيث تصبح

استجابتها مما لا مناص منه ، كما يجب على الذين يقبضون على ازمة الحكم في البلاد العربية ان يستلهموا ضمائرهم وان يستثيروا عزائمهم وان يتقوا الله في امتهم وبلادهم ومستقبلها وان يدركوا ان الامر لا يعنيهم وحدهم وانما يعني الامة العربيـة جميعها الى اجيال عديدة ويعني حياتها ومصلحتها وشرفها وكرامتها وتاريخها ومقدساتها ، وان مدى الفرصة امامهم لايعدو سنتين او ثلاثاً ثم تفلت من الامة العربية الى مدى اجيال عديدة وانهم في اضاعة الفرصة يكونون قـــد سجلوا على انفسهم فضلاً عن امتهم عاراً لا يمحى .



الفصل الثالث عشر

قضايا العرب القومية الاخرى

- ١ -

وللعـــرب قضايا عديدة مع الاجانب غير قضية فلسطين متصلة بصميم كيانهم القومي وسيادتهم وحريتهم واهداف حركتهم القومية الحديثة ، وهي قضايا مصر والعراق والاردن وسواحل جزيرة العرب الشرقية والجنوبية التي طرفها الثاني الانكليز ، وقضايا المغرب العـــربي تونس والجزائر ومراكش التي طرفها الثاني الافرنسيس، والتي هي في الحقيقة مظهر من مظاهر الغدر والخيانة والجشع والتكالب وروح التحكم التي اتصف بها الانكليز والافرنسيس منذ مئات السنين ، والتي لم يُجدِ فيها ما طرأ على البشرية من تطور ودب في العالم من روح جديدة ونشر ووقع من مبادىء ومواثيق دولية فتيلا ...

- ٢ -

مطامع الانكليز ومواقفهم في مصر

ومن عجيب امر الانكليز ومظهر روحهم الاستعمارية والتسلطية انهم منذ سبعين سنة وهم يعدون مصر بالجلاء ثم يخلقون اسباباً محلية وعالمية لاخلاف هـذه الوعود دون خجل . ولقد كان حرصهم على السيطرة على مصر وقناة السويس منبعثاً عن حرصهم على حفظ طريق مواصلاتهم الامبراطورية الهنـــدية ، ومع انهم قوضوا خيامهم عن هذه الامبراطورية وجلوا عن الهند وسقطت بذلك الحجة التقليدية الزائفة التي ظلوا يتذرعون بها فانهم ما يزالون متشبثين بموقفهم الباغي الوقح ويتفننون في خلق الذرائع والحجج الواهية من اجله .

وقـد تفننوا منذ تسلطوا على مصر في الدس والافساد واثارة الفتن وتخويف الاقباط من المسلمين والاغنياء من الفقراء والفلاحين من الملاكين ، وتعطيل قوى الامـــة ومواهبها وتجهيلها وشل يدها وروحها والتسلط على كل شيء من مرافق

البلاد ودوائر الحكم ومناهج التعليم والتشريع بسبيل ابقاء يدهم قوية نافذة . ولما بدا من المصريين ما بدا من التحفز والتوفز عقب الحرب العالميـة الاولى في سبيل الفكاك منهم او التنفس على الاقل لم يتورعوا عن ارتكاب كل قسوة لقمع الحركة وإحباطها . وظلوا نحو خمس عشرة سنة وهم يتفننون في المداورة والمراوغة ابتعاداً عن التسليم بحق مصر في الحريـــة والاستقلال الكامل وانتظامها في سلك الدول المستقلة ، ولم يخففوا قبضتهم إلا بضغط ظروف سياسية عالمية من جهة وبعد ان سلم المصريون من جهة اخرى بشيء غـير قليل مما كانوا يريدونه وخاصة ببقاء قناة السويس ومنطقتها تحت احتلالهم وجعل مرافق مصر العسكرية والاقتصادية تحت تصرفهم إذا ما اشتبكوا في حرب حيث امكن بذلك عقد معاهدة عام ١٩٣٦ ؛ ودخلت مصر الحرب الى جانبهم في الحرب العالمية الثانية واستجابت اليهم في كل ما طلبوه واقترحوه من تشريع وتموين وتجييش معرضة نفسها من اجلهم لغارات المحور وغزوته وتهديده ؛ وقد نالها من ذلك غير قليل من الضرر والخسارة .

ومن عجيب امر الانكليز في مطامعهم ومراميهم ومداوراتهم انهم لم يكتفوا بما التزمته مصر في هـذه المعاهدة من التزامات ثقيلة في وقت الحرب وخطرها لمدة عشرين سنة مما كان ما كان من جرائـــه من انقلاب مصر لساحة حرب وتسخير مرافقها وتشريعها لمطالب الانكليز وحركات وحاجات جيوشهم بل جعلوا تعديلها منوطاً بمعاهـدة جديدة يكون التحالف بينهم وبين مصر اساساً محتوماً كما جعلوا مصر ملزمة بعقد معاهدة جديدة على هـذا الاساس حينما تنتهي مدة المعاهدة ؛ وقد نصت المعاهدة على ان الجـــلاء الانكليزي عن قاعدة القناة منوط بغدو الجيش المصري قادراً على الاضطلاع بعبء الدفاع عن هذه القاعدة، وجعل هذا رهناً بقناعة الانكليز بهذه القدرة . ومعنى هذا وذاك بتعبير آخر انهم فرضوا في هـذه المعاهدة وجودهم وتحلفهم واحتلالهم على مصر الى اجل غير مسمى ...

وينطوي في قضية مصر قضية السودان المصري العربي الذي هو جزء غير منفصل عن مصر في سكانه ولغته وتاريخه وروحه ومصالحه المتنوعة . ويتجاهل الانكليز هذه الحقيقة التي يشعر بها المصريون والسودانيون على السواء ويتفننون في خلق العقبات والذرائع لفصل السودان عن مصر والاستبداد في السيطرة عليه ، ومن

جملة ذلك تشجيع بعض الطامعين في المناصب من ابنائه وتأليبهم ضد مصر وتصويرهم اياهم اصحاب الشأن والمصالح الحقيقية الذين يجب ان يكون لرأيهم الاعتبار الاول مما اعتادوا ان يفعلوه في كل بلد نكب بهم . ولقد اشتركوا في الحملة التي ذهبت لاخماد الثورة المهدوية باسم مصر ، ثم ارغموا الحكومة المصرية على التوقيع على معاهـــدة تسجل لهم حق المشاركة في حكم السودان ، ولم يكتفوا بهذا فقد ظلوا ينقضون نصوص هذه الاتفاقية في كل فرصة ومناسبة حتى انقلب الامر رأساً على عقب حيث تضاءل حق مصر وسلطانها واصبحا حبراً على ورق في حين غـدوا هم المستبدون في حكمه المتسلطون على مرافقه .

ولما وضعت الحرب العالمية الثانية اوزارها ، وكانت قد وضعت مواثيق هيئة الامم التي تنص على ضمان السلام العام الجماعي وتهدف اليه وتقرر عدم جواز وجود جنود عضو في الهيئة في ارض عضو آخر بغير رضائه بادرت مصر الى مطالبة الانكليز بتعديل المعاهدة بما يتفق مع ذلك واخذت تلح على وجوب جلائهم عن ارضها ورفع ايديهم عن السودان لتتم الوحدة الطبيعية لوادي النيل وتذكر بما كان من مواقفها وتضحياتها ، وتنوه بأن مصر الصديقة خير من مصر المحتلة . ولكن الانكليز عمدوا إلى المراوغة والمداورة واخذوا يعلنون تمسكهم بأحكام المعاهـدة التي زعموا انها عقدت ووقعت بحرية تامة في حين يعلمون قبل غيرهم انها معاهدة قهرية عقدت ومصر تحت احتلالهم وسيطرتهم ولم يكن لهم مناص منها ولا حرية واختيار فيها .

وقد جرت مفاوضات طويلة ومضنية بين مصر والانكليز في هـذا الصدد حتى بدا في وقت ما ان هؤلاء اعتزموا مسايرة مصر بعض الشيء حيث اعلنوا سنة ١٩٤٦ استعدادهم للجلاء عن مصر دون قيد وشرط في مدة تنتهي في سنة ١٩٤٩ وموافقتهم على وحدة مصر والسودان تحت التاج المصري ، ولكنهم لم يلبثوا أن نكصوا عن وعدهم كعادتهم .

وشكت مصر امرها الى مجلس الامن وادلت بالحجج القوية المدعمة بالاسانيد ورفعت صوتها قوياً داوياً بطلب خروج الانكليز من اراضيها وحقها التام في ذلك وسقوط المعاهدة وبطلانها بعد ما قامت هيئة الامم فلم يكن لشكواها اثر ايجابي لأن هذا المجلس وهيئة الامم معه قـــد أصبح أداة انكلو اميركية يتحرك

باشارة اميركا وانكلتره ولا يقف موقفاً مناقضاً لما تريدانه او ترياً فيه مصلحة لهما من قريب او بعيد . وكل ما كان منه إزاء صرخة الحق الداوية انه نصح باستئناف المفاوضة واستنفاد الجهود في سبيلها .

ولقد استؤنفت المفاوضات ثانية وظلت مستمرة نحو سنة ونصف والانكليز يتفننون بالمطالب والمقترحات التي ترمي الى ابقاء احتلالهم وسيطرتهم العسكرية باسلوب من الاساليب ..

ومع انهم يتذرعون كما قلنا بتلك المعاهدة الباطلة فانهم منذ سنين وهم ينقضون احكامها من جانبهم بمختلف الاشكال والمواقف جرياً على مألوفهم من اعتبار انفسهم احراراً في خيانة عهودهم مع غيرهم إذا كان اضعف منهم واعتبار هذا الغير مسؤولا بكل تدقيق عن عهوده معهم ..

ولقد اهملوا اعداد الجيش المصري وتنظيمه وتسليحه وتقويته ايام سيطرتهم الشديدة عن قصد، واستمروا في هذا بعد عقد المعاهدة برغم ما في نصوصها من التزامات عليهم . وهم اليوم ينسون جريمتهم هذه ويتذرعون بضعف مصر عن الدفاع عن نفسها وعن القناة واضطرارهم الى ملء الفراغ ، ثم لا يألون جهدهم في وضع العقبات بمختلف الاساليب ليحولوا دون تحقيق ما بدا في مصر من رغبة صادقة وبذل سخي في سبيل تقوية الجيش وتسليحه حتى يغدو قادراً على الاضطلاع بالعبء ، وهذا بالرغم عن ايجاب المعاهدة التي يتذرعون بها عليهم مساعدة مصر على تنظيم وتقوية وتسليح الجيش ، ولا يكتفون بالامتناع عن القيام بالتزاماتهم من بلادهم بل يبذلون كل جهودهم ليحولوا دون مصر وحاجتها من السلاح في غير بلادهم ايضاً ما امكنهم ذلك ... وكل هذا بقصد تبرير احتلالهم وسيطرتهم العسكرية .

ومن اسخف ما يضحك من تناقضهم ظهورهم بمظهر المشفق على مصر من وقوعها في براثن روسيا وبراثنهم ناشبة فيها وخاصة في سودانها بكل شدة . ثم هم إلى هذا يتهجمون كل التهجم لكل مظهر من مظاهر الود قد يبدو بين مصر وروسيا ، ولكل دعوة إلى عقد ميثاق عدم اعتداء بينهما لتزول هذه المخاوف وتسقط الحجة التي يتحججون بها ..

ومن اسخف ما يضحك من ذرائعهم في امر السودان تكرارهم لنغمة رغبتهم

في ان يكون للسودانيين الحق التام في الاستقلال وتقرير المصير وعدم موافقتهم على بسط مصر سيطرتها على السودان لتستعمره ! ويتفننون في إذاعة هذا المعنى في العالم وتلقينه للسودانيين والظهور بمظهر المدافع عن حرية السودان واستقلاله وتجنيبه الاستعمار المصري مع ما هو واقع حالهم من التحكم والتصرف فيه وتسلطهم على جميع مرافقه. ومع هذا التظاهر بالحرص على حق السوادنيين في تقرير مصيرهم فهم يرفضون تحدي مصر والسودان معاً باجراء الاستفتاء ويتوارون وراء عدم نضج السودانيين ومساس الحاجة الى عشرين سنة اخرى ليتمكنوا من ذلك غير خجلين من عار اهمال السودانيين خلال الستين عاماً الفائتة .

وهكذا يظل المنطق ممسوخاً مشوهاً في افواه الانكليز الذين لا يبالون بأي تناقض يدمغهم وخزي يجزيهم واغراق في السخف والمفارقة يرتكسون فيه في سبيل تبرير خططهم وأهدافهم .

ولقد ظل موقف مصر قوياً في صدد مطلبيها الجوهريين وهما الجلاء التام ووحدة مصر والسودان ، ووصلت المفاوضات الى المرحلة التي لم يكن معدى فيها من الرفض الصريح او القبول الصريح ، ورأى الانكليز ان ما تفننوا فيه من المراوغات والمقترحات استبقاء لحبل المفاوضات ممدوداً ولباب الخداع مفتوحاً ، ولسيطرتهم العسكرية على مصر والاستعمارية على السودان قائمة لم يعد مجديا ، وانه لا مناص لهم من الصراحة ، فالقي وزير خارجيتهم في البرلمان بياناً مطولا في شهر تموز ١٩٥١ أعلن فيه انه لن يسع حكومته إجابة مطلبي مصر لأن من حق السودانيين عليهم ضمان استقلالهم وحقهم في تقرير مصيرهم ! ولأن واجب نيابتهم عن الدومنيونات من جهة والدول الغربية من جهة اخرى لا يسمح لهم بالتخلي عن مركزهم العسكري في الاراضي المصرية ! وانهم سيظلون متمسكين باحكام معاهدة سنة ١٩٣٦ ومتمتعين بما منحته لهم من حقوق غير معترفين لمصر بحقها في الغائها من جانبها وغير عابئين بهذا الالغاء إن هي أقدمت عليه ، وإن بريطانية لا تستطيع ان تتخلى عن الوفاء بالتزاماتها الدولية إذا رفضت مصر بناء علاقتها معها على أسس جديدة ! وإن مصر لتخدع نفسها إذا هي ظنت ان في استطاعتها ان تقف موقف المتفرج المحايد إذا ما اشتبكت الحرب بين المعسكرين المتناحرين ! وقد خص

قضية فلسطين وحصار مصر لاسرائيل بحيز كبير من بيانه اكد ما قررناه في اجزاء هذه السلسلة من المقاصد والنيات والسياسة المركزة التي كان الانكليز وظلوا يترسمونها منذ البدء في قيام الكيان اليهودي في قلب بلاد العرب وتقويته وحمايته رغم انوف العرب وعواطفهم ومقدساتهم ودمائهم ليكون لهم نقطة ارتكاز ووسيلة تهديد وتخويف وسيطرة في الشرق العربي عامـــة وحائلاً من الحوائل دون تحقق اهداف الحركة العربية الحديثة .

ومن الجدير بالذكر ان المعاهـــدة المصرية الانكليزية نصت على ان وجود القوات الانكليزية في منطقة القناة هو للتعاون مع القوات المصرية لضمان الدفاع عنها باعتبارها طريقا للمواصلات العالمية والامبراطورية الى ان يحين الوقت الذي يصبح الجيش المصري قادراً على كفالة حرية الملاحة فيها وسلامتها التامة وحده في حين ان الانكليز يقولون اليوم إن إصرارهم على الاحتفاظ بمركزهم العسكري فيها هو للدفاع عن الشرق الاوسط بالنيابة عن الدومنيونات والدول الغربية وفي حين انهم يحولون بكل قوة ودأب ضد تسلح مصر وغدوها قادرة على الاضطلاع بعبء الدفاع عن القناة بمفردها وليس فقط من بريطانية بل ومن أي كان تحاول مصر ان تحصل منه على السلاح والعتاد الذي يجعلها قادرة على ذلك ! مما فيه نقض صريح لنص وروح المعاهدة التي يعلن الانكليز انهم متمسكون بها نصا وروحا وانهم سيرغمون مصر بالقوة على تنفيذها واستعمال الحقوق التي تخولها إياهم !

وفي هذه المعاهدة نص يحظر وقوف احد المتعاقدين موقفا يضر بمصالح الطرف الثاني ويعاكسها ، ولكن الانكليز لم يبالوا بهذا النص حيث ظلوا يقفون المواقف الضارة بمصر ومصالحها وكرامتها منفردين حينا ومع شركائهم في الآثام والجرائم حينا آخر .

ولم يكن بـــد لمصر من ان تقف الموقف الواجب فالقى وزير خارجيتها في البرلمان في شهر اغستوس ١٩٥١ بيانا مطولا رائعا فند فيه حجج الانكليز وفضح نواياهم ومقاصدهم ومراوغاتهم ، كما نوه بمكائدهم في قضية فلسطين ، ودمغهم بأنهم اساس البلاء وحاضنوه من اول عهده الى اخر ما وصل اليه من نتيجة مشئومة عن علم وبنية وبقصد ارغام العرب ومناهضة اهداف حركتهم القومية الحديثة .

واعتبر بيان الوزير الانكليزي اغلاقا لباب المفاوضة فأعلن عزم حكومته على الغاء المعاهدة وابطال مفعولها مما يترتب عليه عدم التعاون البات بين مصر والانكليز واعتبار وجود الانكليز في مصر والسودان عملًا عدوانيا من حق مصر مقابلته بالمثل بما تستطيع ، وبما ينطوي فيه ايذان بحلول مرحلة نضالية شديدة بين العرب والانكليز في سبيل القضية المصرية التي هي من أهم قضايا العرب ، والتي لها اثر عظيم او الأثر الأعظم في مستقبل الحركة العربية الحديثة .

ولقد ريع الانكليز من هذا الموقف الجاد الذي وقفته مصر والعزيمة التي اعلنت اعتزامها فعمدوا اولا الى الدس واخذوا يقولون ان بيان وزير الخارجية المصرية لا يمثل رأي مجلس الوزراء وان بين الوزراء معتدلين لا يقرونه فكذبهم الوزراء ورئيس مجلس الوزراء واكدوا ان البيان كان مجمعا عليه ومعبراً عن وجهة نظرهم ووجهة نظر الشعب المصري كافة ، فعمدوا ثانيا الى المراوغة في القول إن وزير خارجيتهم لم يقفل باب المفاوضة وإن تفسير مصر لبيانه خطأ ، وارسل الى رئيس الوزراء ووزير الخارجية كتبا خاصة يؤكد فيها هذا المعنى ويلح عليهما بالاتئاد في الخطوة التي اعلنوا عزمهم عليها. ولكن مصر تبدو جادة حازمة في الموقف بعد ما بلت من الانكليز ما بلت من غدر وكذب ومراوغة . اخذ الله بيدها (١) .

- ٣ -

مواقف الانكليز ومطامعهم في العراق والاردن

وموقف الانكليز في العراق نفس موقفهم في مصر . فهم قد ترسموا السيطرة عليه بحجة حفظ مواصلاتهم الامبراطورية الهندية ولكنهم ظلوا متشبثين بها بعد ان قوضوا خيامهم عن الامبراطورية وجلوا عنها . ورغم عهودهم التي قطعوها الملك حسين فانهم حاولوا ان يجعلوا سيطرتهم عليه سيطرة استعمارية بحتة منذ ان تمكنوا من احتلاله في اثناء الحرب العالمية الاولى . ومع انهم اضطروا الى التخفيف من غلوائهم حينما ثار العراق ثورته اللاهبة في سني ١٩١٩ و١٩٢٠ ولا ينوا بعض الشيء ورضوا بقيام دولة عراقية بملكية فيصل بن الحسين فانهم ظلوا يصدرون عن تلك

---

(١) ارسلنا الكتاب الى الطبع قبل ان تخطو مصر خطوتها الحاسمة المرتقبة .

الروح في الحقيقة ، وكانت المعاهدة الاولى التي عقدوها لتحل محل الانتداب انتدابا مقنعا يخولهم ان يكونوا اصحاب الشأن الاول في السياســة والجيش ودوائر الحكومة ومشاريعها واقتصاديات البلاد وان يكون لهم قواعد وقوات عسكرية فيها . ومع ان هذه المعاهدة قد عدلت بمعاهدة اخرى سنة ١٩٣٠ خففت عن العراق بعض القيود الا انها ظلت تجعل الانكليز اصحاب شأن في كثير من شؤونه وخاصة في جيشه وسياسته ومشاريعه وثرواته كما خوّلتهم اتخاذ قواعد وايجاد قوى عسكرية في اكثر من مكان منه وتسخير مرافقه في اثناء الحرب وخطر الحرب وجعله ممراً لجيوشهم في أي وقت، كما نصت على وجوب بقاء اساس التحالف العراقي الانكليزي قائما في اي تعديل يدخل عليها قبل انتهاء مدتها وهي خمس وعشرون سنة ووجوب عقد معاهدة جديدة على هذا الاساس حينما تنتهي مدتها! وبعبارة ثانية نصت على ضمان سيطرتهم بأي اسلوب كان الى اجل غير مسمى ... ولم يقصروا في نقض شروط المعاهدة كلما اقتضت ذلك مصلحتهم وخططهم على جري مالوفهم في حين يتشددون كل التشدد في التمسك بها حرفا وروحا بالنسبة للالتزامات التي رتبت فيها على العراق.

وقد دسوا اصابعهم في ظروف وحوادث كثيرة بين طوائف العراق واجناسه واقلياته حيث شجعوا بعضها على التمرد وخوفوا بعضها من بعض لتظل حالة العراق الداخلية مرتبكة وشؤونه متعثرة بسبيل توطيد سيطرتهم وخططهم الاستعمارية . وكلما طالب العراق بتعديل المعاهدة ابتغاء الفكاك من براثنهم واحتلالهم تفننوا في خلق العراقيل وبث الوساوس والدسائس للحيلولة دون تحقيق ذلك. وقد اوجداو في اذهان القائمين على رأس العراق قناعة بأن كيانهم قائم بهم فاشتدوا في التمسك بهم والتواثق معهم والاندماج في سياستهم .

وامرهم في شرق الاردن قام منذ اصله على الغــدر والخيانة . فالمنطقة كانت متصرفية تابعة لولاية سوريا وظلت كذلك طيلة العهد الفيصلي ١٩١٨ – ١٩٢٠ . ولكن الانكليز كانوا يترسمون السيطرة عليها وعلى فلسطين معاً ، فهي متصلة بحدود الحجاز ونجد والعراق معاً ، وفي حدها الثاني ميناء العقبة وخليجها على البحر الاحمر وهي طريق خطوط النفط ، وكل ذلك متصل بمصالح الانكـليز الاستعمارية والاقتصادية كما هو واضح . فساوموا الافرنسيين وضغطوا عليهم بطريق تشجيع

العرب ضدهم مما اضطرهم الى الموافقة على التخلي لهم عنها على ما ذكرناه في الجزء الاول والثاني من هذه السلسلة ، وهكذا دخلت في نطاق انتدابهم حينما وزعت الانتدابات التي كانت مظهر غدر الانكليز بالعرب ومؤامرتهم عليهم ، وقد قاموا في البدء بمحاولات محلية في سبيل تركيز شؤون المنطقة المحلية ثم انتهوا إلى الاتفاق مع عبد الله بن الحسين على ان يكون على رأسها . وقد حاولوا ان يكونوا المتصرفين الحقيقيين القابضين على شؤون الدولة السياسية والمالية والعسكرية في هذه المنطقة ، وان يكون الستار الذي يسترهم عن المسرح رقيقاً بل لم يكن في الحقيقة ستار ما حيث كانوا بارزين على هذا المسرح في اكثر الظروف والمشاهد، وقد ظلوا كذلك مدة طويلة ثم خففوا بروزهم بعض الشيء بالمعاهدة الاستقلالية التي عقدوها مع عاهل عمان والتي عدلت قبل بضع سنين ؛ غير انهم ظلوا من وراء الستار اصحاب الشأن الكلي في مختلف شؤون الدولة المالية والعسكرية والاقتصادية. وقد اقنعوا القائمين بالامر فيها بأن كيانهم قائم بهم فاشتدوا في التمسك بهم والتواثق معهم والاندماج في سياستهم الخاصة والعامة كما ضمنوا بقاء احتلالهم وسيطرتهم عليه الى اجل غير مسمى ايضاً .

- ٤ -

الامارات العربية

ومثل هذا يقال بالنسبة للامارات العربيـــة المنتشرة على سواحل الجزيرة كالكويت والبحرين ومسقط وعمان وحضرموت ولحج والمكلا والشحر وعدن الخ حيث ترسموا السيطرة عليها في البدء بحجة مواصلاتهم الامبراطورية ثم غدت هـذه الوسيلة غاية في ذاتها هنا وخاصة بعدما ظهر فيها من ينابيع النفط الغنية ، وهم الآن اصحاب السيطرة الشاملة في هذه الامارات مباشرة ومداورة ، وقد استطاعوا بث القناعـة في امرائها بأن كيانهم قائم بهم فاشتدوا كذلك في التمسك بهم والتواثق معهم بل والاستسلام لهم استسلاماً تاماً .

- ٥ -

المغرب العربي

اما قضية المغرب العربي وما يقاسيه من البلاء الشديد من فرنسا وما تترسمه هذه الدولة الباغيـــة من خطط رهيبة وما كان لها من آثار غاشمة وما اقترفته من قسوة وشدة وتجريد وافقار وتجهيل وقمع وتنكيل وارهاب وما كان من شأن سيل المهاجرين الافرنسيين الى هـذا المغرب وفتح آفاقه لهم فقد شرحناه في الجزء الثاني من هذه السلسلة .

- ٦ -

نضال مصر والعراق والمغرب في سبيل الفكاك

ولقد ناضل العراق ومصر والمغرب العربي خاصة في سبيل الفكاك من براثن الدولتين الباغيتين بشتى الاساليب وكان النضال يصل احياناً الى ثورات لاهبـــة يضحى فيها بالتضحيات الجسيمة . وحاول العراق في سنة ١٩٤٠ ان يغتنم فرصة الحرب فكانت ثورته الكبرى بزعامة رشيد عالي الكيلاني التي كانت تسجيلاً لحركة قوميـة خطيرة تشبه في كثير من ظروفها واهدافها حركة الملك حسين الخطيرة واهدافها مهما كانت سيرتها ونتائجها .

ولم يمكن الوصول بهذا النضال الى نتيجة حاسمة مرضية الى الآن بسبب محليته من جهة وضعف بنية الامة العربية وقوتها من جهة واساليب الانكليز والافرنسيين الماكرة الباغية من جهة .

- ٧ -

وجوب معالجة هذه القضايا جماعياً عقب ثأر فلسطين

ولقد آن أوان معالجة هذه القضايا معالجة قوية قومية وجماعية ، فان استمرار براثن الدولتين الباغيتين ناشبة في عنق البلاد العربيـة من اهم الموانع لسير الحركة العربية نحو أهدافها بقوة ونجاح كما انها من اهم اسباب تعثر الامة العربية في حياتها الخاصة والعامة والداخلية والخارجية معاً .

وتطور روح العالم مما يمكن ان ييسر النجاح هـذه المعالجة إذا جاءت كما قلنا جماعية وقوية ولا سيما ان الشعوب العربيـــة وخاصة في المغرب ومصر والعراق

والاردن الذي اصبح ثلثا سكانه من عـــرب فلسطين يحقدون اشد الحقد على الافرنسيين والانكليز وهم مستعدون كل الاستعداد للاستجابة الى مثل هذه المعالجة والاندماج فيها .

ونعتقد ان هذه المعالجة يجب ان تكون المرحلة الثانية بعد معالجة قضية فلسطين على الوجه الذي شرحناه قبل . لأن معالجة هـــذه القضية اوجب تعجيلًا من جهة واكثر اسباب حفز ونجاح من جهة اخرى. فاجماع العرب قد انعقد على انها قضيتهم المشتركة الكبرى ، وشعورهم شامل وقوي بما نالهم في معركتها من عار وهوان وانكسار وبوجوب غسل العار واخذ الثأر . وما رسمناه من أسلوب علاجي لهـذه القضية هو معقول الوقع والتنفيذ بالنسبة للعرب ولغير العرب معاً وخاصة من حيث كونه يستهدف تنفيذ قرارات صادرة من هيئة الامم . وقد تكون قضية فلسطين احسن مجال لتجربة معاهدة الدفاع المشترك ومداها روحاً وتطبيقاً .

فاذا ما امكن حل هذه القضية على وجه مرض حلًا كلياً او جزئيا على الاقل في المرحلة الاولى استمد العرب من نجاحهم قوة عظيمة تساعدهم على معالجة قضاياهم القومية التي ذكرناها من دون ريب . ولعل هـذا النجاح يأتي بالعلاج والحل لهذه القضايا على ايسر سبيل ايضا حيث تكون الدول العربيـة قد دشنت لنفسها عهداً عسكريا وسياسيا وتضامنيا جديداً رائعا وحيث تنقلب حالة العرب الروحيـة من حال الى حال وتقوى قوة عظيمة تجعل من الصعب على فرنسا وانكلترا ان تظلا مصرتين على موقفهما الباغي من قضاياهم .

– ٨ –

ما يستطيع العرب عمله تجاه البغاة الاجانب

ولسوف يستطيع العرب إذا ما اصرت الدولتان على موقفهما ان يشنوا حربا عليهما متعددة الجبهات من دعائيـة شديدة ضد كل ما هو افرنسي وانكليزي من مصالح وبضائع وشركات وامتيازات ومعاهد ومنشآت ومن نضالية دموية جماعية في آن واحد ووفق خطة موحدة عامة .

وقد اثبتت الشعوب العربيـة انها تستطيع حينما تلتهب عاطفتها ويثور حماسها ان تقدم على اعظم الاخطار وان تتحمل اشد العناء والتضحيات بقلب ثابت وعزيمة

صادقة وان تضطر القوى الاستعمارية التي لا سند لها إلا الباطل والغـــدر والبغي والتهويش الى الاذعان في احيان كثيرة ، وهي مستعدة ان تكرر الدور كلما دعيت اليه ، كما ان في وسعها ان تنزل افدح الاضرار بمصالح المستعمرين العظيمة في بلادها إذا ما رسمت لها الخطط وقام على تنفيذها جماعات قوية في ايمانها واخلاصها وهدفها القومي .

وفي ذات الوقت تثير الحكومات العربية هذه القضايا التي يناضل العرب عنها امام الهيئات الدولية ويكون لها من قوة النضال والحملات ما يساعدها على صرخة الحق الداوية ، ولن يكون امام فرنسا وبريطانيا إلا الاذعان حينما تريان العرب قد عزموا عزيمتهم الاجماعية ووضعوا نصب اعينهم المضي في نضالهم القومي الجماعي الى النهاية . وحينئذ توضع هـــذه القضايا على بساط البحث ويمكن ايجاد الحلول المناسبة لها حسب ظروف كل منها .

ولا يقولن قائل اننا نضرب في بيداء الخيال . فالعزيمة النضالية الصادقـــة والجماعية كفيلة فيما نعتقد بتحقيق هذه النتيجة والامر اولا وآخراً في يد العرب او بالاحرى في يد حكامهم ومنظماتهم الرسمية والقوميـــة ورهن بصدق عزيمتهم وقوة ايمانهم وتخليهم عما اعتادوه من التهيب والاتئاد والنعومة او بالاحرى الميوعـة فيما يعالجونه من قضاياهم القومية .

اما الشعوب العربية فهي حاضرة للاستجابة بكل قوة الى كل تضحية وقادرة عليها بل ومرحبة بها . فالجراح التي احدثتها فيها الدول الباغية ثاغرة ، وهي تنتظر اليوم الذي تصدق فيه العزائم ويحسن فيه التوجيه ويجد فيه الجد . وسيكونون بعد نجاح الخطة التي اقترحناها لحل قضية فلسطين اشد قوة وحماسا واندفاعا من دون ريب .

وعلى شبابنا ومنظماتنا القومية بل والحكومية ان يتخذوا العدة لهذه الخطوة العظيمة منذ اليوم بحيث تؤلف لجنة قومية عامة تتمثل فيها مختلف الاقطار العربية وتمدها الحكومات بما يكفل لها النشاط والعمل ، فتضطلع بوضع الخطط والمناهج والدعوة الى العمل والتضامن فيه وبث الدعايـــة له واثارة روح الحقد والسخط

والنقمة على البغـــاة في مختلف الاوساط وبكل وسيلة وطريقة دون ما كلل ولا توان .

على انه إذا تراءى لاحد الاقطار ان يبادر الى النضال في سبيل حل قضيته قبل ثـــأر فلسطين مما هو محتمل خاصة بالنسبة لمصر بعد ان بلغ الموقف بينها وبين الانكليز ذروته من التوتر فيجب ان تعضدها البلاد الاخرى بكل قوة وشمول وسعة وان لا تكتفي بالمظاهرات والدعاء بحيث تشن على الانكليز تلك الحرب الشعواء الجماعية التي وصفناها دون تردد ولا تهيب . فقد يكون النجاح في النضال في سبيل القضية المصرية مؤدياً الى نتائج خطيرة ايجابية اخرى سواء في صدد قضية فلسطين او القضايا الاخرى .



استدراك

بعد طبع فصل القضايا العربية الاخرى اقدمت مصر على تنفيذ خطوتها حيث اعلن مصطفى النحاس رئيس الوزراء في البرلمان في ٨ تشرين الاول سنة ١٩٥١ إلغاء المعاهدة والاتفاقات السودانية ، ووحدة مصر والسودان في التاج ، وقدم مشاريع القوانين والتعديلات الدستورية المقتضية ، وحيث وافق البرلمان ثم الملك فاروق على هذه المشاريع باجماع رائع وحماسة قومية بالغة ، وحيث اخذت مصر تعد العدة للخطوات التالية الكفيلة بتنفيذ هذه المشاريع ، مما اثار توتراً شديداً وجعل الانكليز يفقدون اعصابهم ، واخذ يؤدي الى نتيجته الطبيعية وهي الاحتكاك بينهم وبين المصريين . والاحداث التي وقعت في الايام الاولى تنذر باشتداد العاصفة . فالانكليز اخذوا يرسلون النجدات تلو النجدات ويعلنون تمسكهم بما تخوله المعاهدة لهم من حقوق وارتفاق في ارض مصر ، ويصدرون التهديد بعد التهديد ، ويتظاهرون بالقوة الحربية ، ويستفزون شعور المصريين ويطلقون الرصاص عليهم بسبب وبدون سبب ويتوسعون في مناطق احتلالهم وينفذون ما يريدون بالقوة برغم الحكومة المصرية وقوانينها ، والمصريون يقومون بالمظاهرات الصاخبة ويتداعون الى الجهاد والتطوع والتسلح وحرب العصابات ، ويعلن زعماؤهم وهيئاتهم التضامن وتضع الحكومة الخطط والتدابير التي تمكنها من مواجهة الموقف ومقتضياته في مصر والسودان ، وعشرات الآف العمال الذين يشتغلون في المعسكرات المصرية يمتنعون عن العمل . وهكذا عادت في مصر صورة الثورة الجامحة التي نشبت عام ١٩١٩ على شكل ونطاق اوسع واقوى ، ولم يبد ان الانكليز غيروا شيئاً من روحهم وذهنيتهم برغم تغير روح العالم الشديد . وقد اعلن البرلمان السوري واللبناني تضامنهما مع مصر ، واعلن رؤساء الحكومات العربية تأييدهم لها ، وقامت في انحاء سورية ولبنان والعراق مظاهرات تأييدية ، واعلنت الاحزاب السورية تأييدها وفعل مثل

هذا الصحف والاحزاب اللبنانيـــة والعراقية ، واخذت الدعوة تشتد الى معالنة الانكليز العداء ، ومقاطعة بضائعهم ومشاريعهم . وقد وجب على العرب شعوبهم وحكوماتهم وصحفهم ومنظماتهم الوقوف الى جانب مصر الى النهاية وقفة حاسمة دون تردد ولا وهن مهما كلف الامر حتى تبلغ مصر ما تريد من الجلاء والوحدة .

ونعتقد ان هذه فرصة عظيمة . اذا لم يضيعها العرب بالتهاون والتخاذل كانت بداية النهاية لما يقاسونه من ذل وهو ان واستثمار وتسلط في جميع بلادهم .

ولقد قدمت الحكومات الاميركية والانكليزية والافرنسية والتركية مشروعاً لمصر زعموا أنه يحل المشكلة القائمة بينها وبين الانكليز ويهدف الى انشاء قيادة عامة تأخذ على عاتقها تنظيم الدفاع عن الشرق الاوسط وتكون مصر ممثلة فيها وتنتقل قواعد الانكليز في القناة الى هذه القيادة التي تشترك فيها اميركا وفرنسة وتركية ومن سوف ينضم الى الخطة من دول الشرق الاوسط والكومونولث (اوستراليا وزيلانده وجنوب افريقية) وتصبح التسهيلات والاتفاقات المخوّلة للانكليز في ارض مصر واجبة لهذه القيادة .

والمشروع مداورة جديدة من المداورات الانكليزية التي تنوعت صورها خلال السنين الثلاثة الماضية باسم الدفاع المشترك ولكنها مداورة خطيرة او بالاحرى مؤامرة جديدة على بلاد الشرق العربي : فالانكليز باقون في مصر وسيشترك معهم في احتلالها قوات اميركية وافرنسية وتركية واوسترالية وزيلاندية وافريقية حتى ويهودية . . وحينما تقبل مصر المشروع يشمل بقية بـــلاد العرب وتقوم فيها قيادات مماثلة تابعة للقيادت العامة ومدعومة بقوات مشتركة ايضا . وقد قدم وزراء الدول الاربع المفوضون صورة عـــن المشروع للدول العربية الاخرى في نفس اليوم الذي قدم فيه المشروع الى مصر ، واخذ هؤلاء الوزراء يتصلون بالحكومات العربية ويدورون ويلفون حولها في سبيل هذا الموضوع مما فيه دلالة حاسمة على قصد تشميله لجميع البلاد العربية على النحو الذي ذكرناه . وكل ذلك بقصد ربط الدول العربية جميعها بعجلة المعسكر الغربي ربطا محكما وابديا لا فكاك منه ، فتغدو به البلاد العربية تحت سيطرة وتصريف واحتلال هـذا المعسكر باسم الدفاع عن

الشرق في الظاهر ولاستخدام مواردها ومرافقها واراقة دماء ابنائها لضمان مصالح هذا المعسكر الاستعمارية والاستثمارية في الحقيقة لان الخطر الذي يخوف هذا المعسكر به العرب محتمل مفروض بينما شره وخطره عليهم واقع راهن على اوسع مداه احتلالا واستثماراً ومطامع وشركات وامتيازات ومكائد وخيانة وغدر ونيات مريبة، وناراً وحديداً وارهابا وتدميراً وسلبا ونهبا كما يفعلون الآن في مصر وبلاد المغرب العربي وكما فعلوا في سورية ولبنان وفلسطين والعراق من قبل بالاضافة الى الشر اليهودي الاكبر الذي خلقه هذا المعسكر وأهانوا به العرب اعظم إهانة وجرحوهم ابلغ جرح وجعلوهم منه في هم مقيم مقعد يهدد بخطره بلادهم بمختلف صور التهديد، وفضلاً عن انطواء المشروع على حماية هذا الشر بالقوة من اي محاولة عربية في سبيل القضاء عليه او إزعاجه، بحيث يمكن ان يقال بحق وجزم ان العرب واقعون من اذى هذا المعسكر وتصرفاته الراهنة ونياته المكشوفة في خوف وشر وخطر لا مزيد عليه ولا يمكن ان يبلغ الخطر المفروض الذي يخوفهم به مبلغه وخاصة في امة وبلاد سوادها الاعظم فقراء معدمون لا يكادون ينالون ما يسد رمقهم ...

ولما رفضت مصر هذا المشروع بإباء وشمم لتعارضه مع امالها وامانيها واعلنت البلاد العربية استنكارها له وتضامنها مع مصر في الرفض لانها لم يفتها ما في المشروع من نيات الكيد والمكر لجميع العرب اسفر المعسكر الغربي عن وجهه الكالح اسفاراً تاماً حيث اعلن تضامنه ضد العرب وعزمه على المضي في خططه سواء اشترك العرب او لم يشتركوا ووافقوا او لم يوافقوا، ولوح بالتضامن مع اليهود في هذه الخطط كما أذيع ان من خططه ان تحتل فرنسة لبنان وسورية وانكلترة بقية مصر واميركا المملكة السعودية عند اي بادرة لحرب عامة او خطرها وان ترغم سورية ولبنان على وضع قواعد عسكرية تحت تصرف القيادة العامة في وقت السلم ايضاً اسوة بالعراق والاردن ومصر والمملكة السعودية !

ولقد وجب على الحكومات العربية ان تؤيد مصر في موقفها بكل قوة وتصميم وتضامن وان لا تؤخذ بتهويش المعسكر الغربي ومخدوعيه ومأجوريه وضغطه

وتهديده . فلن يفعل فيها اكثر مما فعل ، وليس لما يمكن ان يقطعه لهـــا من وعد او عهد اي قيمة وضمان على فكاك بلادنا منه ونيلها حقوقها من يده ، وقد سارت في ركابه في الحربين الماضيتين وقدمت بلادها وابناءها ومرافقها له فعاملها اشد مما عامل به اعداءه وغدر بها اشنع غدر ، وكانت مكافأتها منه في الحرب الماضية تجزئة واستعمار وذل واستثمار ما تزال أثاره قائمة شاهدة وكانت مكافأتها منه في الحرب الثانية الدولة اليهودية التي ما يزال يشتد في تأييدها وتعضيدها وتقويتها لتكون الكابوس الاعظم عــــلى العرب وبلادهم بعد ان شرد اهل فلسطين اشنع تشريد وجردهم افظع تجريد .

ولقد وجب عــــلى العرب جميعهم حكوماتهم ومجالسهم وصحافتهم ودعاتهم وهيآتهم واحزابهم ان يعالجوا بكل قوة ووسيلة كل موقف شاذ قد يظن بعض المتعقلين من ساسة العرب انه الافضل للمصلحة العربية من حيث مماشاة المعسكر الغربي في خططه ومشاريعه بعد ان قامت البراهين الحاسمة على ان العرب لن يجنوا منه الا الشر والكيد والمكر والغدر سواء أكانوا معه او ضده او وقفوا على الحياد من صراعه مع المعسكر الشرقي ، كما وجب ان تشتد الدعوة الى وجوب حذو العراق والاردن حذو مصر في الغاء معاهداتها مع الانكليز والى اعلان النضال الشديد الشامل في مختلف انحاء بلاد العرب ضد هذا المعسكر ومصالحه وشركاته وبضائعه وامتيازاته حتى تصبح هذه البلاد اتونا يحرق كل شيء من هـــذه المصالح والشركات والبضائع والامتيازات ويضطر اركانه الظالمين الى الارعواء والرجوع عن بغيهم وغيهم . وليعتصم العرب بحبل الله جميعاً ولا يتفرقوا وليذكروا ان الله ناصر من نصره وانه وعد المؤمنين الصادقين بالنصر مهما قلوا على الظالمين مهما كثروا اذا ما آمنوا وصبروا واتحدوا قلبا وقالبا ...

ولقد غـــدا تهاون الحكومات العربية في تحريك معاهدة الدفاع المشترك وتنفيذها بعد ان تفاقم الخطر على العرب جريمة كبرى وخيانة عظمى من دون ريب سواء كان هذا التهاون متعمداً او غير متعمد وصار تشديد الدعوة الى هذا التحريك والتنفيذ على لسان كل حزب وهيئة وصحيفة ومنبر ومناسبة اعظم وجوبا

من اي وقت آخر حتى لا يضيع وقت آخر على العرب فيما يجب عليهم عمـــله من اعداد خطط وتنظيم قوى وتجهيز وتسلح واستعداد وتوحيد قيادة ونظم ، وحتى يكونوا قد استعدوا لمواجهة اي موقف غدر يفاجأون به ، ويثبتون انهم جادون فيما يعلنونه من تضامن وتناصر ومن تصميم على عدم الوقوع في شبكة المؤامرة والخديعة مرة اخرى .

هذا ، ويظهر ان المعسكر الغربي قد اشرك تركية في تقديم المشروع الى العرب بقصد التأثير فيهم على اعتبار ان تركية دولة اسلامية ذات تاريخ وسلطان واسم سابق في بلاد العرب . ومن المؤسف ان تجاري تركية هذا المعسكر ضد العرب مجاراة واسعة ظهرت منها في مواقف مختلفة ولا تقتضيها مصلحتها فيما نعتقد مع انها تتظاهر بالرغبة في التوائق مع العرب من آن لآخر . فعلى جميع العرب ان يفهموا هذا فهما جيداً وان يقابلوه بما يستحقه ، وان يكونوا منه على حذر وان لا يؤخذوا بالتظاهر الزائف والتبرير الراهن ، وان يذكروا ان تركية الحديثة قد قامت منذ قامت على اساس تحطيم كل صلة بين الترك والعرب والوقوف من العرب موقف العدو المتربص ، وظلت على هذا طيلة ربع القرن الذي مر على قيامها ...

الفصل الثاني عشر

امكانيات البلاد العربية ووجوب استغلالها

قلنا في احدى المناسبات في الجزء الخامس إن الحكومات العربية لم تستخدم امكانياتها الميسورة في حرب فلسطين فضلاً عن إمكانياتها إطلاقاً ، وإن هـذا من اهم أسباب فشل العرب في المعركة الحاطمة .

والحق ان العرب لم يغلبوا في هذه المعركة ، بل ولا في غيرها من المعارك السياسية وغير السياسية مما اصابهم فيه كوارث ووهن عن قلة وضعف إمكانيات ، وإنما عن ضعف القدرة او بالأحرى ضعف العزيمة في إستغلال امكانياتهم الميسورة حاضراً والتي يمكن ان تتيسر لهم بالجد والجهد والهمة والارادة مما هو موجود في بلادهم ونطاق حياتهم ، ومما هو عظيم جداً من شأنه ان يضمن لهم النجاح والكرامة والقوة والاحترام في جميع الاوساط والظروف .

فتركية لا تعد من حيث السكان الا نحو ثلث الامة العربية ، وليست حالتها أحسن من حالتها في الثقافة والثروة والعمران والبنية ولكن حكومتها احسنت استخدام إمكانياتها الميسورة وتسلحت بالعزم والارادة بسبيل استغلال إمكانياتها الموجودة فنالت وما تزال تنال ما نالته من احترام ومساعدات ومودة وحسبان حساب في الظروف العصيبة التي مرت وما تزال تمر بالعالم ، وعاد على بلادها من الفوائد العظيمة ما جعلها تخطو خطوات واسعة نحو التكامل الاقتصادي والثقافي والاجتماعي والعمراني . وكان في امكان العرب ان يكسبوا حتماً ونهائياً المعركة الفلسطينية لو أحسنوا الانتفاع بالفرصة الذهبية التي اتيحت لهم واحسنوا إستخدام إمكانياتهم الميسورة فضلاً عن إمكانياتهم الممكنة على ما شرحناه في الجزء الخامس ، بل وكان في إمكانهم ان يكسبوا المعركة في جميع قضاياهم لو احسنوا الانتفاع بالفرص الذهبية التي اتيحت لهم اثناء الحرب ولم ينقد رؤساؤهم بعاطفة المصلحة الخاصة والأنانية والمصالح الذاتية والاقليمية ويعصف بهم ضعف البنية والارادة والعزيمة سواء أفي سياق مشاورات الوحدة ام في سياق المفاوضات في امتيازات النفط ووقوفهم فيها موقف القوي الجاد على ما شرحناه كذلك في الجزء الرابع .

- ٢ -

امكانيات البلاد العربية العظيمة

ومهما يكن من أمر فالذي نريد ان نقرره هو ان البلاد العربية والامة العربية ذات امكانيات عظيمة ، منها ما يحتاج الى جهد لتيسيرها ومنها ما يحتاج الى تنظيم وحسن استخدام ، وان السير الذي تسير عليه الحكومات العربية في سبيل هذا وذاك بطيء ومرتجل في حين ان ظروف العرب لا تتحمل التأخير والاهمال، واننا في حاجة الى خطوات او قفزات او بالاحرى ثورات جهدية وتشريعية لبلوغ الغاية المنشودة او على الأقل للسير في طريقها قدماً . وهذه الخطوات او القفزات او الثورات ليست مستحيلة على العرب ، ولا مما لا تتحمله البلاد العربية كما يظن البعض ، بل هي ممكنة ومتحملة بل نستطيع ان نقول ان البلاد واهلها ونعني السواد الاعظم على أتم استعداد لتعضيدها ، لان وعيه وان كان سلبيا وجامداً كما وصفنا ، وكان هذا من اسباب سكوته تجاه ما ترتكس فيه البلاد من حالات مريرة فانه في حالة يستطيع معها ان يدرك خطر وضرر هذه الحالات المريرة ، وما لحق بالامة والبلاد من هوان وذل وخسارة عظمى من كارثة فلسطين ، وما تستمتع به الامم المتحضرة من رفاه ومستوى رفيع في الحياة والمعيشة وما هي عليه من قوة وثروة وعظمة ونشاط وعمران ، وما في بلاده من ثروات وقابليات عظيمة ، وما في امته من قوى كامنة ، وما يعود من ذلك كله اذا استثمر احسن استثمار واستخدم احسن استخدام من رفاه ورفعة مستوى وقوة ومجد وكرامة وغسل عار واخذ ثأر ، وان يتجاوب مع كل دعوة الى ذلك .

فالمعطل من الاراضي الزراعية في بلادنا يزيد عشرات الاضعاف عن المزروع ، وقسم عظيم منه محلول وسلك للدولة ، وعدد عظيم من سكان الارياف العربية محرومون مع ذلك من الارض ، والملكية الارضية في بلادنا موزعة اسوأ توزيع ، فهناك اشخاص او اسر يملكون المساحات الكبيرة من الاراضي والعدد العديد من القرى في حين ان عدداً عظيما من سكان الارياف محرومون من الارض كذلك ويشتغلون اجراء بالكفاف او ما دونه في اراضي الملاكين ، واكثر المياه الجارية في بلادنا تذهب هدراً ، ويكمن في جوف اراضينا انواع عديدة وغنية من المعادن

تنتظر الجهد والاستثمار ، والخامات في بلادنا من حيوانية ونباتية ومعدنية متوفرة جداً ولكن جلها يذهب هدراً او يخرج بابخس الاثمان ليعود الينا مصنوعاً بابهظها . واليد العاملة التي تستطيع ان تشتغل في الارض والمصنع وفيرة برغم قلة السكان في بعض اقطارنا . ومعظمها متعطل او شبه متعطل لا تكاد تكسب اكثر من كفافها بسبب ضعف الجهد الصناعي والزراعي والاستثماري . وجل جهدنا في هذا السبيل في الوقت نفسه بدائي .

- ٣ -

اثر ضعف واهمال استغلالها

ومن اجل هذا فسوادنا الاعظم في فقر مدقع ولا يكاد يحصل على كفافه الا بشق النفس . ودخلنا القومي ضعيف ويعد من المراتب الدنيا ولا يكاد يزيد معدل الفرد السنوي منه في احسن بلادنا عن الثلاثين جنيها(١) وينزل بعضها الى العشرين ودون العشرين في حين يبلغ في البلاد المتحضرة المئات العديدة . ومستوى المعيشة عندنا منخفض جداً حتى لا يكاد يتجاوز بالنسبة لسوادنا الاعظم الكفاف في اللقمة وستر العورة والنوم في الزرائب والجحور او ما في مثابتها . وميزانيات حكوماتنا ضعيفة جداً حتى لا يكاد يزيد معدل ما يصيب الفرد في احسنها عن عشرة جنيهات (٢) وينزل في بعضها الى الخمسة ودون الخمسة في حين يبلغ في البلاد المتحضرة المئات العديدة ايضا ، ولذلك لا تستطيع ميزانياتنا ان تنسق مع حاجات البلاد المتزايدة الاصلاحية والعمرانية والعسكرية ، ومعظمها يذهب لمرتبات الموظفين ونفقات الدفاع ولا يكاد يصيب المشاريع الاصلاحية والاجتماعية والزراعية والثقافية والانتاجية الا نحو الربع او اقل . ومع ذلك فتكاد الطاقة تبلغ ذروتها لان هذه الميزانيات تستغرق ثلث الدخل القومي . وليس من السهل زيادة الضرائب زيادة

---

(١) يقدر الدخل القومي في مصر بستمئة مليون جنيه فيكون معدل الفرد نحو ثلاثين ويقدر في سورية بتسعمئة مليون ليرة سورية فيكون معدل الفرد نحو (٢٦٠) ليرة سورية او ما يعادل الثلاثين جنيها . وسورية ومصر احسن البلاد العربية في هذا الباب باستثناء لبنان الذي يرجع ارتفاع دخله القومي النسبي الى اسباب خاصة وغير طبيعية .

(٢) يصيب الفرد في مصر من الميزانية نحو عشرة جنيهات وفي سورية نحو خمسين ليرة سورية اي نحو ستة جنيهات وفي العراق مثل ذلك اما المعدل في المملكة السعودية واليمن فهو اوطأ كثيراً .

كبيرة مهما كان في الامكان اخذ مبالغ كبيرة من القادرين لان القوة الانتاجيـة والاستثمارية ضعيفة جداً . وما بدا في الظروف الاخيرة من نشاط حكومي وشعبي في سبيل معالجة هذا الضعف ما يزال دون المقتضى بمراحل عظيمة لانه يصدر عن روح وانية ويسير سيراً سلحفائيا . واننا لنسمع ونقرأ منذ عشر سنين واكثر عن مشاريع كهربائية وزراعية وارووائية ومعدنية وصناعية كبيرة درست ووضعت لها الخطط والمناهج في مختلف البلاد العربية دون ان يسار الى الآن في سبيل تحقيقها خطوة جدية ما . ومهما كانت الاسباب التي تبرر بها الحكومات هذا التقصير فاننا لا نشك في ان السبب الجوهري هو تلك الروح وهذا السير قبل كل شيء ، وهذا في حين ان حالتنا تقتضي روحاً مندفعة وسيراً سريعاً يتناسبان معهـا ومع الزمن الذي يسير بسرعة عظيمة وبروح شديدة الاندفاع مما يبقي المسافة بيننا وبين غيرنا شاسعة جداً بل ومما يزيـــد من بعد هذه المسافة ايضاً ويبقينا في نطاقنا الراهن المسكين الذليل المستغل والمسيطر عليه من الغير ويبقي سوادنا الاعظم في حالة الفقر الشديد ويظل يجعلنا مضرب مثل في التأخر والتقصير والاهمال ومعدودين في عداد الامم والبلاد المتأخرة وفي حين ان بلادنا عظيمة الثروة والقابلية معاً .

- ٤ -

الحاجة الى التجديد والانقلاب في سبيل ذلك

ومن اجل هذا فمن الواجب ان تشتد الدعوة الى الاندفاع والسرعة في السير ونبذ هذه الروح الوانيـة السلحفائيـة فيه وبكلمة ثانية الى التجديد والانقلاب في اساليب الحكومة والشعب على السواء حتى إننا لنتمنى لو امنا الطغيان ان يقوم على رأس حكوماتنا لمدة من الزمن ديكتاتورون موهوبون يضطلعون بهذا التجديد والانقلاب . ولقد قام على رأس الحكم في سورية في سنة ١٩٤٩ حسني الزعيم وسار سيراً ديكتاتورياً فاستطاع في برهـة وجيزة ان يحدث مـا يشبه الثورة في نواح واساليب عديدة تشريعية واقتصادية واصلاحية وإعدادية كان من شأنها ان تأتي بأحسن الثمرات لو لم توسوس له نفسه الامارة وتبث فيه روح الغرور والاثرة فتطوح به ومهما يكن من أمر فاننا نعتقد ان الدعوة إذا اشتدت فلا بد من ان تعمل عملها

في الاشخاص القائمين على الحكم والمرشحين له من رجال الاحزاب السياسية والمبادىء الاصلاحية لنبذ تلك الروح وتبدلها بالروح التجديدية والانقلابية التي نحن في اشد الحاجة اليها .

- ٥ -

منهج تركية الحديثة مثال يمكن اقتباسه في هذا الباب

ولحكوماتنا فيما سارت عليه تركية الحديثة من منهج مجال للاقتباس في امور كثيرة مما ذكرناه . وقد ذكرنا تركية خاصه لانه كان بينها وبين البلاد العربية تماثل كبير في الحالات الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية والثقافية والروحية .

ففي سبيل انعاش العمل الزراعي وتمليك المحرومين من الارض وضع في سنة ١٩٤٥ قانون الارض استناداً الى الدستور الذي سن في عهد مصطفى كمال استهدف ثلاث غايات :

١ - تمليك ارض لمن لا ارض له او لمن ليس له ارض تكفيه من القرويين او من يريد ان يشتغل بالزراعة من اهل المدن .

٢ - مساعدة المحتاجين من الفلاحين على تحسين اشغالهم الزراعية .

٣ - تشغيل الاراضي الصالحة باوسع واحسن ما يمكن .

وقد خول القانون وزارة الزراعة حق استملاك جميع الاراضي الوقفية وجميع الاراضي العائدة الى ادارة الولايات والبلديات التي لا تستعمل في عمل ما وجميع الاراضي التي تهمل ثلاث سنوات متوالية بدون سبب معقول والزائد عن خمسة الاف دونم مما يملكه الاشخاص الحقيقيون او الحكميون . وقد اجاز كذلك استملاك الاراضي التي يعمل فيها مزارعون واجراء زراعيون دائميون لا ارض لهم او لا ارض كافية لهم ولو كانت اقل من خمسة الاف دونم على شرط ان يترك لصاحبها مساحة تبلغ ثلاثة اضعاف الحد الذي يعتبر حداً اصغر للكفاية في المنطقة التي تكون فيها الارض مع ترك حق أختيار الاقسام له، ومع عدم نقص ما يترك له عن خمسين دونماً في حال . والخزينة هي التي تدفع بدل الاستملاك مقسطاً على عشرين سنة وبفائدة ٤٪ . وقد رسم القانون طريقة صالحة وسليمة للتوزيع روعيت

فيها الحاجة وعدد الاسرة والقدرة كما قرر ان تكون المساحة التي تعطي كافية لمعيشة فلاح واسرته . وتعطى الاوض وما عليها من ابنية بالثمن وبطوبق الدين بدون فائدة مقسطاً على عشرين قسطاً سنوياً يدفع اولها في اول السنة السادسة من بعد التسليم، ويسلف الذي يعطى ارضاً المبالغ التي يحتاج اليها للتأسيس والاستغلال. وما يعطى من مال للتأسيس يكون ديناً مقسطاً على عشرين قسطا سنويا ايضا . وقد عهد الى المصرف الزراعي الحكومي بعمليات الاستملاك ودفع بدله والتسليف وقبض اقساط الديون الخ ...

وهكذا فتح هذا القانون الانقلابي العظيم المجال امام مئات الاف الاسر القروية التي لا ارض لها او لا ارض لها تكفيها وامام من يرغب في العمل الزراعي من اهل المدن كما جـــاء وسيلة لاعادة تنظيم توزيع الاراضي وازالة الفوارق العظيمة في حيازتها . وقد حاول كثير من اعضاء المجلس معارضة القانون لانه يمس بمصالحهم ولكن الحكومة كانت جادة حازمة فاستطاعت نيل موافقة الاكثرية عليه ، ومن ثم عد العمل فوزاً قويا - وانه لكذلك - وتقرر جعل يوم القرار عيداً وطنيا .

وفي تركية من الأحراج مايزيد مساحته عن تسعين مليون دونم ، وفي سبيل تنظيم استغلالها وضع قانون باستملاك احراج الأوقاف والأشخاص ومجالس القرى والبلديات وجعلها ملكا للدولة ؛ وانشئت مؤسسة خاصة ذات شخصية حكمية أخذت تبذل جهودها الفنية العظيمة والسريعة في سبيل استثمار الاحراج تخشيباً وتحطيبا وتفحيما مما يبعث الأمل في غدو هذه المؤسسة مصدر ربح عظيم ونفع عميم لخزانة اللدولة واقتصاديات البلاد .

ولقد كانت الصناعة التركية ضعيفة فقد خلت الحكومة في هذا الميدان فأنشأت مرفأ سمته « سومر بنك » برأس مال غدا ضخما بالتدريج وأناطت به تشغيل مصانع الحكومة والمصانع تشترك الحكومة في رؤوس أموالهـــا ، ودرس وتحضير وإنشاء وتشغيل المؤسسات الصناعية والمساهمة في رؤوس اموال المؤسسات الصناعية الموجودة التي يمكن ان تستفيد البلاد من تقويتهـــا وتوسيعها اقتصادياً وصناعيا وفتح مدارس لتنشئة عمال ومعلمين للمصانع وايفاد البعثات وتخريج المهندســين والفنيين والاختصاصيين وتسليف المؤسسات الصناعية الخ .. وكان مما رسم من

خطط لهذا المصرف ان ينشيء مصانع قوية للغزل والنسيج والورق والمعادن والمواد الكيماوية متوخى بذلك خلق صناعة وطنية وقومية والانتفاع بخامات البلاد . ومما تقرر ان تحول المصانـــع التي ينشئها المصرف الى شركات مساهمة لتيسير اشتراك الجمهور فيها . وقد سير في العمل عـــلى طريقة مشروع الخمس السنوات وكان من اثره ان انشيء في الخمس السنوات الاولى ١٩٣٤ - ١٩٣٩ عشرون مصنعاً كبيراً للغزل ونسيج الصوف والقطن والحرير النباتي والورق والادوات المعدنية والشمنتو والقرميدو الاجر والفولاذ والحديد كما دعمت مصانع عديدة للغزل والسكر والزجاج والاسفنج بالمساهمة المالية والاشراف الفني والاداري . وفي اثناء الحرب وسعت المصانع وزيد عددها واستطاعت ان تسد القسم الاكبر او قسما كبيراً من حاجة البلاد وخاصة في الاقمشة القطنية والصوفية والورق والاواني والمواد الحديـــدية والفولاذية والترابية وغدت تستهلك نصف محصول القطن التركي الذي زيدت العناية به بسبب ذلـــك حتى بلغت مساحة زراعته سنة ١٩٤٢ (٣٫٢٦٨٫٨٧٠) دونما بعد ان كانت سنة ١٩٣٢ (١٫٥٨١٫١٦٠) دونماً . ولا بد من ان نشاط المصرف قـــد استمر واتسع عما كان عليه حينما كنا في تركية وكتبنا كتابنا تركية الحديثة عام ١٩٤٥ .

وبالاضافة الى هذا فان الحكومة وجهت المصرف المعروف باسم مصرف العمل والذي نصف ماله منها الى صناعة السكر فأنشأ شركة انشأت فوراً اول معاملها ، ثم انشأ بالاشتراك مع المصرف الزراعي والمصرف الصناعي الحكوميين معملاً ثانياً ثم وحدت شركات السكر في شركة واحدة وجعل السكر حكراً لها . وقد كان لها في سنة ١٩٤٤ اربعة معامل كبيرة. ولم تكن زراعة الشمندر ولا صناعة السكر مألوفتين فاهتم لهذه الزراعة حينما صارت تغذي المعامل ، وغدا نتاجها في سنة ١٩٤٤ (٥٨٩٦٩٠) طناً ونتاج سكرها (٨٩٨٠٢) طنا بعد ان كان الاول سنة ١٩٢٦ (٤٧١٠) طنا والثاني (٥٣٥٠) طنا . وبعد ان كان يجلب السكر لتركيا من الخارج بعشرات آلاف الاطنان غدت معامله تفي بحاجتها وتفيض قليلا للتصدير .

ولقد كانت حركة التعدين في تركيا ضعيفة واكثرها في يد شركات ورهن امتيازات اجنبية . فتدخلت الحكومة في هـذا الميدان ايضاً وانشأت سنة ١٩٣٥

معهداً فنياً باسم معهد الابحاث والدراسات لتنظيم خريطة جيولوجية مفصلة لأجناس ومواقع وقيم عروق المعادن وبحث افضل الوسائل لاستثمار المعـــادن المكتشفة والممكن اكتشافها كما انشأت مصرفا حكوميا اسمته مصرف المعادن ، وعهدت اليه بتنفيذ مشروع سنوات خمس في مجـال التعدين اسوة بمصرف سومر في مجال الصناعة ، وكان من آثار نشاطه ان اشترى اسهم الشركة الالمانيـة لنحاس ارغني واربعة وعشرين امتيازاً معدنيا واشترى شركة مناجم فحم اركلي وزونفولداق وانشأت شركة الكروم لاستثمار هذا المعدن. وقد اصبح له في سنة ١٩٤٥ منشآت ومعامل عظيمة مجهزة بأحدث واقوى الاجهزة لاستثمار الفحم المعدني والفحم الليغنيت والكروم والحديد والنحاس والكبريت الخ .

وقـــد اهتمت الحكومة التركية اهتماماً خاصا بالتبغ الذي اشتهرت به تركيا فأنشأت معهداً فنيا للاهتمام به واصلاح اجناسه ومكافحة امراضه وتشجيع زراعته ، حتى بلغت المساحة المزروعة به سنة ١٩٤١ (٧٨٠٥٤٠) دونما بلغت غلتها (٧١٣٥٦) طنا . . .

ويبدو مما ذكرناه ان الحكومة التركية سارت في خطواتها على اسلوب الدولية الاقتصادية او التأميم حيث رأت انه لا يمكن للبلاد ان تخطو خطوات واسعة في هذا المجال إلا على هذا الاسلوب مما هو وجيه جـــداً فيما نعتقد بالنسبة لحالة تركيا الثقافية والخلقية والاجتماعية .

وقد سارت تركيا على هـذا الاسلوب في شؤون اقتصادية اخرى رامية بذلك الى تكثير موارد الخزينة من جهة والاشراف والصيانـة من جهة اخرى ، حيث جعلت التبغ والكحول والمشروبات الروحية والكبريت والملح والسكر والنفط صناعـــة واستثماراً وبيعاً واشرافاً في يد مؤسسة حكومية مستقلة ذات شخصية حكمية . وكذلك صنعت تقريباً في وسائل النقل البحرية والبرية والجوية . ولقد كان في تركيا عام ١٩٢٥ (٤٠٨٦) كيلومتراً من الخطوط الحديدية منها (٣٥٦٦) لشركات اجنبية فاشترت لغاية سنة ١٩٤٣ (٣١٦١) كيلومتراً جديداً . وقـــد حصرت النقل البحري في يدها ويد الشركات القوية التركية وقصرت حق الافراد على النقليات والاسفار القصيرة والصغيرة ، ثم اممت شركة البواخر التي تشتغل في

البوسفور ، ففدا لها سنة ١٩٤٢ اسطول بحري تجاري مؤلف من ١٢٠ قطعة بين صغيرة وكبيرة تديره مؤسسة حكومية ذات شخصية حكمية ومستقلة . وحسنت دار الصناعة البحرية التي كانت في عهد الدولة العثمانية بحيث غدت داراً عظيمة كانت تسد في سنة ١٩٤٤ حاجة تعمير الاسطولين الحربي والتجاري وتنشيء سفناً بحارية تجارية من حمولة ١٥٠ طنا . وقد رسمت خطة لتوسيع الدار لتكون قادرة على صنع بواخر وآلات بواخر لحمولة ٥٠٠٠ طن ، ولا بد من انها قد حققتها الى الآن . وجل المرافىء ومستودعات المرافىء في تركيا حكومية منها ما انشأته الحكومة انشاءً ومنها ما أممته تأميما بعد ان كان لشركات اجنبية، وقد كانت تنشيء في سنة ١٩٤٥ مرفأين عظيمين على حسابها واحداً على البحر الابيض في الاسكندرونه وآخر على البحر الاسود في اريكلي . كذلك الامر في النقل الجوي ، فهو محصور في يد الحكومة ويدار من قبل مؤسسة حكومية ذات شخصية حكمية ومستقلة هو الآخر . . .

ولقد وُضعت تعريفة جمركية استهدفت حماية الصناعات والغلات التركية الطبيعية والناشئة وتشجيعها كما استهدفت تقليل استيراد الكماليات ، واختطت في الاستيراد والتصدير خطة حكيمة بحيث جعلا على اساس التقايض فلا يسمح بالاستيراد من بلاد إلا بنسبة ما تصدره تركيا الى هذه البلاد من غلات وخامات ومصنوعات، وتعاقدت مع الدول الموردة والمصدرة على هذا ، فأدى ذلك الى نتائج باهرة من حيث نشاط الحركة الصناعية وسد معظم الحاجة المحلية ، ومن حيث حفظ ثروة البلاد من التبدد على الكماليات ، ومن حيث تحسن الميزان التجاري تحسناً بارزاً وغدوه في صالح التصدير بعد اختلاله وتفوق الاستيراد فيه على التصدير .

يضاف الى هذا القفزات العظيمة في سبيل التعليم على انواعه من صناعي وزراعي وعسكري ومهني وجامعي وابتدائي ومتوسط وثانوي وخاصة معاهد القرى ومأموري الصحة والقابلات التي تستهدف انشاء مدرسة وايجاد مأمور صحة وقابلة في كل قرية خلال مدة تنتهي في سنة ١٩٦٠ .

ومن الجدير بالذكر ان الحكومة التركية استطاعت ان تفعل كل هذا قبل الحرب العالمية الثانية - باستثناء معاهد الريف وقانون الارض - في حين كانت

ميزانيتها تتراوح بين ٢٥٠ و٣٥٠ مليوناً من الليرات التركية (١)، وكانت نفقات الدفاع والديون العمومية تستغرق نحو نصف هذه الميزانية .

ولقد كان اهتمامها بالجيش عظيما قبل الحرب العالمية المذكورة ثم اشتد في اثنائها وما يزال مشتداً . وهـذا هو الذي جعل لها ما ذكرناه من مركز محترم وحسبان حساب في اثناء الحرب من قبل المعسكرين المتصارعين على السواء وعاد عليها بأعظم الفوائد المادية ايضا .

ولقد كانت الجندية في تركيا من الاصل اجباريـة مع بعض التساهل، فسدت ثغرات كثيرة من هـذا التساهل حتى اصبح لا يكاد يستثنى من الجندية والتدريب احـد ، وللمتعلمين دورات خاصة اجبارية التنفيذ مهما كان المركز الذي يشغلونه . والتعليم العسكري في المدارس المتوسطة فصاعداً اجباري وشامل للبنين والبنات على السواء ونظامه قوي وجدي وليس مجرد لعب وتفكه كما هو عند من ادخل فيه من بلادنا .

ولقد كان معدل نفقات الدفـاع قبل الحرب يتراوح بين ٢٥ و٣٠ في المئة من الميزانية فارتفع هـذا المعدل اثناء الحرب الى ٤٠ ثم إلى ٤٥ حيث احتفظت تركيا بنحو مليون جندي وجعلت البلاد في حالة الطوارىء . وهـذا المعدل هو الميزانية العادية ويضاف اليها ميزانيات خارقـــة كانت توضع خصيصا للتسلح وتبلغ مئات الملايين وتسدد بضرائب خارقة احيانا وقروض داخلية وخارجية احيانا .

- ٦ -

يمكن ويجب ان يكون عندنا ما كان في تركيا

وما تم في تركيا في هذه المجالات التي ذكرنا طرفا منها بايجاز وعلى سبيل المثال يمكن ان يتم مثله في الاقطار العربيـة بطبيعة الحال بل ويجب ان يتم مثله واكثر منه . فامكانيات بلادنا وثرواتها الظاهرة والمكنوزة عظيمة جـــداً واهلية شعبنا ونباهته عظيمتان كذلك، وحاجتنا الى الاصلاح وتحسين المرافق والاحوال المعاشية شديدة جداً ، والزمن قد تقدم وتقدمت معه الاسباب والوسائل وسهلت في ذات

---

(١) كانت الليرة التركية تعادل الليرة السورية وكان كل ثماني ليرات تعادل جنيهاً مصرياً تقريباً .

الوقت. فيجب كما قلنا ان تشتد الدعوة الى نبذ الروح الوانية المترددة التي كل همها تزجية الايام والحلول السطحية العابرة التي تدعو العالم المتحضر إلى احتقارنا والاستهتار بنا والتكالب على استغلالنا واستبدالها بروح تجديدية انقلابية اشتداداً يجعل استجابتها مما لا مناص منه في الاقدام على نهضة كبرى في مختلف المجالات وحسن استغلال امكانيات البلاد والامة وقواها ومواهبها وثرواتها العظيمة. فقد آن للعرب ان ينتهوا من هذه الحالة البائسة التي تجعلهم وتجعل بلادهم في عداد البلاد والامم المتأخرة الدنيا، وان يلتحقوا بقافلة العصر المجددة التي استطاعت ان تسخر قوى الكون وان تفعل المعجزات والعجائب في ميادين العلوم والفنون والابتكارات والاختراعات وان تنتفع بذلك الى اقصى حدود الانتفاع في تحسين بلادها وحالة امتها ثروة ومستوى وعمرانا وصحة وثقافة ورفاها ونظاما، وان يتداركوا أمرهم وكرامتهم وثرواتهم وقضاياهم بروح تجديدية وانقلابية.

- ٧ -

الشركات الاجنبية

ومن اهم ما ينبغي الاهتمام له بشدة وقوة في هذا المجال امر الامتيازات الاجنبية التي تجعل كثيراً من مرافق البلاد وثرواتها المعدنية وغير المعدنية والسائلة والجامدة تحت سيطرة الشركات وتسمح لها باستدرار وافر الارباح منها مما لا يعد ما تستفيده البلاد وخزينة الدولة منه الا تافهاً وهذا فضلاً عما لها من آثار ضارة في السيادة والسياسة العربية القومية من حيث يدري العرب ولا يدرون، حتى كادت تكون نعم الله على البلاد العربية بسبب ذلك نقما وكاد يصير ما وهبها الله إياه من اسباب القوة والثروة اسباب ذل وضعف.

فمن اوجب الواجبات ان تشتد الدعوة الى معالجة هذا الأمر معالجة ناجعة وحازمة إما بتأميم هذه الشركات واستثمارها من قبل مؤسسات حكومية وهو الافضل واما باعادة النظر في شروطها بعد الدراسة الوافية الشاملة وضمان معظم الربح والفوائد على خزينة الدولة واهل البلاد وازالة كل قيد يمس بسيادة الدولة والمصلحة القومية من قريب او بعيد وإبقاء هذه الشركات في نطاق المستثمر المالي المعقول. فكثير مما كان ان لم نقل جميعه قد كان املاء وتحكما وفي ظروف قاهرة؛

وحالة العالم تيسر امكان أعادة النظر فيما كان وضمان حق الخزينة واهل البلاد المشروع في ثروات بلادهم وعدم استمرار استنزافها من الاجانب في حين يقاسي اهل البلاد ما يقاسونه من بؤس وحرمان وضنك عيش وجهل ومرض ، تقاسي خزينة الدولة ما تقاسيه من عنت وضيق شديدين ، وليس من محل لتهيب الدول التي تقبع وراء هذه الامتيازات والتي لن تستطيع ان تعمل شيئاً غير التهويش الفارغ أمام الجد والحزم .

الثروة النفطية العربية

ونريد ان نخص امتيازات النفط وانابيبه بالذكر في هذا المقام. فان الله قد منّ على البلاد العربية بثروة نفطية هائلة من شأنها ان تؤثر في مجرى سياسة العالم جميعه سلباً وايجاباً ولقد كان من شأنها ان تكون اقوى وسيلة لحل قضايا العرب فضلاً عن ان تكون اعظم وسيلة لاصلاح شؤونهم الداخلية لو احسن رؤساؤهم الانتباه واغتنام الفرص وتحلوا بالارادة والعزيمة والرغبة الصادقة والتجرد . ومع ذلك فظروف العالم وتطوره يسمحان للعرب في كل ظرف ان يستفيدوا من هذه النعمة الالهية اعظم استفادة حينما يجدون ويعتزمون ويصدقون في الرغبة سواء في مجال نيلهم حقهم الطبيعي باعتبار انهم اصحاب الثروة وان الشركات ليست الا صاحبة رأس مال ليس له الا الربح المعقول فيستولون على معظم الارباح وينفقونها على مشاريع الاحياء والعمران والاصلاح الكبرى ، وسواء في مجال السياسة العالمية الذي تجعلهم فيه ذوي شأن كبير يساعد على المساومة وحل قضاياهم القومية .ولقد آن لهم ان يجدوا ويعتزموا ويصدقوا في الرغبة ، ومن الواجب ان تشتد الدعوة الى ذلك بقوة ودأب واستمرار . ونقولها ثانية ان من الواجب عدم تهيب الدول القابعة وراء هذه الشركات فلن تفعل الا تهويشاً ولا ينبغي ان يؤثر هذا فينا إذا ما عزمنا وصدقنا الرغبة .

وجوب الحرص بعد الان

ومن تحصيل الحاصل ان نقول بعد هذا ان من الواجب ان تتشدد الحكومات العربية كل التشدد ازاء اي عروض شركات وامتيازات اجنبية ، وان تمنح أي ترخيص الا عند الضرورة الفنية والمالية القصوى وفي نطاق يضمن مصلحة الدولة

من كل ناحية وبالنسبة للحاضر والمستقبل، ولشركات من دول غير طامعة ولا غادرة ولا ترمي الا الى العمل الاقتصادي لذاتـه ، وان عليهـا ان تضطلع هي بالمشاريع الاستثمارية الكبرى الزراعية والصناعية والمعدنية والكهربائية والنقلية على حسابها وبمساهمة الاهلين في رؤوس الاموال اللازمة وعن طريق مؤسسات حكومية مستقلة على النمط الذي سارت عليه الحكومة التركية على ما ذكرناه قبل. فهذا هو الذي يمكن ان يتسق مع مصلحتنا القومية من ناحية سياسية ومن ناحية اقتصادية وفيه كل الخير والفائدة .

وطبيعي ان هذا لا يمنع ان يستعان في تأسيس وإدارة هـذه المشاريع بخبراء من الاجانب لمدة من الزمن مع شرط الحذر منهم وتفضيل من لا يمت الى الدول الغادرة . وفي خلال هذه المدة يجب الاهتمام لتخريج شباب العرب بمقياس واسع في مختلف الفنون والعلوم ليسدوا الحاجة ويتولوا انشاء وادارة الاعمال والمشاريـع فنياً وإداريا ويقتبسوا معجزات الغرب في مختلف مجالات العلوم والفنون ليحققوها في بلادهم .

- ٨ -

المشاريع والشؤون العمرانية الاخرى

وهناك مسألة مهمة إن لم تتصل باستغلال إمكانيات البلاد فهي متصلة بتحسين مستواها العمراني والصحي والمعاشي مما يمكن ان يعد مساعداً لذلك الهدف ونعني بها مسألة تنظيم الطرق والانارة والمدن . فان هذه الامور عندنا ما تزال تسير هي الأخرى سيراً وانيا ومرتجلاً ولم تبذل جهود مثمرة في سبيلها .

فالوسائل العصرية التي تقرب الأبعاد الشاسعة بين انحاء القطر الواحد فضلاً عن الاقطار المتجاورة ضعيفـة. واكثر الطرق ما زال بدائيـا فضلاً عن رصفه وتجهيزه بوسائل النقل والأمن الحديثة ، واكثر احياء المدن في حالة رديئة من حيث الجواد والشوارع والانارة والنظافة والمنظر وطراز البناء والمرافق العامة ، وإذا كانت هناك عناية ما فهي عناية ضعيفـة ومنافقة ان صح التعبير حيث تبذل نحو احياء الاغنياء والكبراء والشوارع الكبرى وحسب بل وفي الجبهات المرئية من هذه الاحياء بحيث لا يلبث المرء ان يكتشف في الزوايا غير البارزة مناظر تقذى منهـا العين

قذارة وتشويها وإهمالاً ونبواً عن الذوق .

فمن الواجب كذلك ان تشتد الدعوة الى الاهتمام بهذه الشؤون المتصلة بحياة الشعب وصحته وذوقه ومستواه بحيث توضع خطط ومناهج فنية وتنفذ بسرعة واندفاع ، وتهدف الى تعميم رصف الطرق وتجهيزها بوسائل الامن والسلامة وربط النائى منها بالشبكات الحديدية ، وتخطيط المدن الكبرى والصغرى ووضع نظم حازمة لذلك ، وتحسين حالة مساكن الفقراء والعمال واحيائهم بناء وإنارة وماء ونظافة وطرقا .

ونحن نعرف ان هذه الامور بل اكثر ما ذكرناه في هذا الفصل ليس مما يغيب عن اذهان دوائر الحكومة المختصة ورجالاتها الفنيين والاداريين والاقتصاديين ، ولكن الروح الوانية والسير السلحفائي في اعمالنا وخطواتنا والتهرب من التبعات والاكتفاء بالحلول السطحية المرتجلة وتزجية الايام بها ، كل ذلك مما هو مشاهد ملموس يبعث فى النفس يقينا بعدم شعور تلك الدوائر ورجالاتها بالحاجة الشديدة شعوراً صحيحا وعدم اندماجهم بسوء حالة البلاد والامة الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية وما يلصق بها من ذلك من سوء السمعة ويعود عليها من الاحتقار والطمع ، وهو ما يفسح المجال لتكرار القول وما يجب ان تشتد الدعوة في سبيله .

الفصل الثالث عشر

جهاز الحكومات العربية ووجوب تطهيره وتنظيمه

- ١ -

ومما يجب ان تشتد الدعوة اليه مسألة تطهير وتنظيم جهاز الحكومات في البلاد العربية . وهذه مسألة على جانب كبير من الخطورة لصلتها بالحالة الاليمة والروح الوانية في بلادنا وحكوماتنا .

وجل جهاز الحكومة في بلادنا من تنظيم المستعمر من حيث الاصل، وقد لعبت المحسوبية وسوء الاستغلال والارتجال دوراً كبيراً فيه ايضاً فأصبح فضفاضاً يستغرق جزءاً عظيما من ميزانيـة الدولة يصل في بعض الدول إلى ٤٠ ٪ و٣٥ ٪ و٣٠ ٪ عدا مرتبات الجيش ، فضلاً عما ادى اليه ضعف الانتاج وتوزيع المسؤولية. وقد كان من آثار ذلك انه لم يكن مجال للتوسع في الانفاق على مشاريع التعمير والتعليم والصحة والاصلاح الاجتماعي والزراعي والصناعي والنقل والجيش ، فظلت هذه المشاريع تسير سيراً وانياً وضيقا ، بحيث لم يكن يتجاوز ما ينفق عليها – عدا الجيش – الخمسة والعشرين في المئة وفي بعض البلاد كانت هـذه النسبة تنزل إلى الخمسة عشر حتى ان ما كان ينفق على التعليم في بعض البلاد لم يكن يتجاوز الاثنين في المئة ! . .

ومع ان الحكومات العربية قد اهتمت حينما خفت وطأة يد المستعمر في بعض البلاد لاصلاح جهازها وزيادة المخصصات لمشاريع الاعمـال النافعة الاصلاحية والانتاجية فان ما فعلته الى الآن لم يكن من شأنه سد الحاجة او شيء مهم منها ؛ حيث ظل جهازها في الاغلب على حاله ماديا وروحيا بل قد ساء في بعض الظروف عن ذي قبل مما تتردد الشكوى منه ومن آثاره على كل لسان وفي كل مكان سواء من حيث البطء والاهمال او ضعف الانتاج او كثرة الايدي او فقدان المسؤولية او سوء الاستعمال والاستغلال والرشوة والمحسوبية والتأثر بالنفوذ الخ الخ . .

- ٢ -

وجوب الاستعانة بالخبراء الاجانب

فالواجب يقضي كما قلنا ان تشتد الدعوة الى إعادة النظر في جهاز الحكومات واختصاره وتنظيمه وتطهيره بدون التأثر بأي اعتبار إلا مصلحة العمل والدولة ؛ كما يقضي تزويده بالخبراء الاجانب الصالحين . وهذه مسألة جديرة بمزيد من الاهتمام والعناية . فمهما تكن ثقافة الموظفين وخبرتهم فان روح النظام والتنظيم والانتاج والدراسات المستوفاة وحسن استعمال الوقت والوسائل مما ينقص كثيراً منهم لأن ذلك كله مظهر من مظاهر الخلق والروح والمران اكثر منها نتيجة للتعليم السريع . فنحن والحالة هذه في حاجة الى خبراء لكل فرع من فروع العمل لاعادة تنظيمه اولا وبث روح النظام والتنظيم والانتاج وحسن استعمال الوقت والوسائل واستيفاء الدراسات ثانيا . ولا يهولن عدد الخبراء مهما كان لان الحاجة شديدة إلى روح جديدة لا يبثها إلا من هي فيه خلقا وروحا ومرانا . هذا فضلًا عن الاحتمال الكبير في ان يكون المال المبذول في هذا السبيل مثمراً من حيث كون تنظيم الخبراء سيقلل في الارجح عدد الموظفين وسيزيد في الانتاج .

وهنا مسألة جديرة بالتنبيه ، وهي وجوب العناية الشديدة في اختيار الخبراء وعدم الانخداع بالمظاهر والالقاب اولا والابتعاد عن نطاق الدول الطامعة والغادرة بقدر ما يمكن ثانيا .

- ٣ -

مؤسسات مستقلة للمشاريع الكبرى

وهنا كذلك مقام اقتراح كنا عرضناه على لجنة الدستور السورية ، وهو جعل الشؤون التعليمية والعمرانية والاجتماعية في عهدة مؤسسات حكومية مستقلة لها صفة الاستمرار ولا تتأثر بتبديلات وازمات الوزراء ، لان هذه الشؤون يجب ان تسير وفقا لمشاريع وخطط ومناهج مدروسة تستغرق مدة طويلة . والوزارات كثيرة التبدل والتعديل في بلادنا على ما هو مشاهد ، وكثيراً ما عمد الوزراء الجدد إلى تغيير أو تعديل مناهج وخطط الوزراء السابقين إما للكيد الحزبي واما للمباهاة

في أحيان كثيرة فتتعثر بذلك تلك الشؤون ويذهب كثير من الجهود والاوقات والنفقات هدراً وهباءً . ومن الممكن ان يجعل لمجلس الوزراء وليس للوزير المختص فقط حق في إعادة النظر في مشروع من المشاريع أو خطة من الخطط فيكون في ذلك سد لما يمكن ان يكون من ثغرات واخطاء كانت في الاصل او ظهرت في اثناء التطبيق .

ويجب ان تسير المشاريع الكبرى التي يجب ان يسار فيها بسبيل استغلال ثروات البلاد وتقوية امكانياتها المتنوعة مما ذكرناه في الفصل السابق على هذا الاسلوب ايضا لان هـذه المشاريع مثل تلك تسير وفقاً لمشاريع وخطط ومناهج مدروسة طويلة الامد وتحتاج الى صفة الاستمرار في الادارة والاشراف والتوجيه ، بل لعلها اشد حاجة الى ذلك واكثر موضعاً له . وقد سارت تركيا على هذا الاسلوب فيما قامت به من مشاريع زراعية وصناعية ومعدنية ونقلية واحتكارية وتحريجية حيث جعلت لكل منها مؤسسة حكومية مستقلة مضمونة الاستمرار .

- ٤ -

معايب يجب ان تزول

ومن المعايب التي آن لها ان تزول وان تشتد الحملات ضدها الى ان تزول جعل مكاتب الحكومة وخاصة مكاتب كبار موظفيها ملتقي الزوار والاصدقاء وغرفاً للمطالعة ، وتأثيثها بفاخر الاثاث والرياش ، والاسراف في سيارات الدولة وسوء استعمالها والفخامة في الحفلات والاستقبالات والمراسم والتبذير فيها . فبلاد يعاني سوادها الأعظم ما يعانيـــه من الفقر ويعيش فيما يعيش فيه من مستوى منخفض ويحتاج الى الدرهم فضلًا عن الدينار لمشروعاته الحيوية لا يجوز أن تنفق ما تنفقه على هذه الفخامة والضخامة والاناقة والعبث . . وهـذا فضلا عما تؤدي اليه من سوء القدوة وقلة الانتاج وهدر القوى والاكتفاء بالمظاهر الزائفة والتكالب عليها .

ومن المعايب الشائنة التي يجب ان تشتد الحملات ضدها كذلك مايتعرض له جهاز الحكومة ومشاريعها من قلقلة واضطراب بسبب طبيعة الحياة الحزبية في بلادنا فكثير مايتغلغل اثر الحزبية في جهاز الحكومة فيزيده خللا الى خلله ، وكثيراً مايعمد الحزب الحاكم الى ملء الوظائف المهمة بل والثانوية بالمنتسبين اليه واضطهاد الذين كانوا ينتسبون إلى الحزب

السابق ، وكثيراً ما حمل هـذا الموظفين على التزلف والنفاق لرجال الحزب الحاكم مهما كان لونه واقتراف المخالفات القانونية والاقدام على ما لا يتفق مع مصلحة الدولة والبلاد في سبيل تحقيق مطالب ورغبات هؤلاء الرجـال مما كثرت الشكوى منه واستشرت اخطاره وساءت آثاره . ومع ان بعض الحكومات حاولت التظاهر بالتنزه والترفع واعلنت البلاغات بسبيل منعه إلا ان الامور مازالت على ما وصفنا. ويتبع هذا في احيان كثيرة مشاريع الحزب الحاكم السابق حيث يعمد الحزب الحاكم الجديد الى توقيفها بحجة الدراسة والتعديل ثم اهمالها والبدء بغيرها وهكذا دواليك مما فيه اهدار للقوى واضرار بمصالح الدولة .

ولقد جنحت بعض الحكومات الى احدث وكلاء دائمين وامناء عامين فنيين واداريين للوزارات تقليداً للغرب على اعتبار ان الوزراء سياسيون ومتبدلون وان مصلحة الدولة تقضي ان يكون جهاز الحكومة ومشاريعها مستقرة يقوم على امرها موظفون دائميون ذوو سلطات وخبرة كافية . غير ان هـذه المحاولة لم تلبث ان بدت تقليداً مسيخاً حيث ادرك اثر الحزبيـة الذي ذكرناه هؤلاء بشره ايضاً من حيث القلقلة ومسايرة الاهواء والرغبات على حساب مصالح الدولة وجهازها !

- ٥ -

التنافس على الحكم واستغلاله

والمناسبة ملائمة لذكر ما يلمسه الناس من اشتداد شهوة الحكم والتكالب على المناصب في رجالاتنا وما تقاسيه البلاد من جراء ذلك من بلاء وضرر كبيرين ماديا ومعنويا وداخليا وخارجيا .

ومن ابرز مظاهر البلاء والضرر في ذلك سوء الاستغلال حتى ليبدو ان اشتداد تنافس رجالاتنا واحزابنا على الحكم واشتداد شهوته في نفوسهم انما هو بسبب ما يعود منه من منافع ومكاسب وجاه او بقصد تحقيقها لانفسهم في الدرجة الاولى . وإذا كان هذا القصد او ذلك السبب لم يكن في نفوس بعضهم في بعض الظروف فان هؤلاء كثيراً ما اغروا بهما وارتكسوا في اثمها بعـــد التمكن من الحكم والمناصب .

والناظر في سلسلة الاسماء التي تولت وتتولى الحكم والمناصب يجد عـدداً غير قليل منهم قد انتفع بالحكم والمناصب انتفاعات متنوعة مباشرة ومداورة . فمنهم من اغتنى واصبح له المزارع والعقارات والمدخرات والقصور وفاخر الاثاث والرياش وثمين الحلي ونعيم الحياة بعد أن كان فقيراً ، ومنهم من كان مدينا او متعثراً في شؤونه الخاصة فخلص من ديونه وعثاره واستوت حالته ، مما لا يمكن ان يكون ذلك بالمرتب الذي يتقاضونه حيث تكون نفقاتهم ضعف هـــذا المرتب فضلا عن اتساعه للتوفير والاكتناز والامتلاك . .

وتتحدث المجالس والصحف في احيان كثيرة احاديث صريحة او مضمنة في هذه المظاهر وتذكر حوادث واعمالا معينة الاسماء والظروف والصفقات جنى منها بعض متولي الحكم طائل الاموال .

ومن هؤلاء من تنزه عن الرشوة ولكنه انتفع هو وابناؤه ونساؤه وانسباؤه وذووه بنفوذ الدولة فاستورد وصدر واخذ المقاولات وتاجر وشارك فكان له مايراه الناس من غنى بعد فقر وترف بعـــد شظف وبسطة بعد ضيق وصار له العقارات والمزارع والقصور والاثاث والرياش والحلي وكانت له هـذه الحياة البرمكية التي يحياها .

وبطبيعة الحال ان هؤلاء واولئك يكونون الاسوة السيئة لاصحاب المناصب التالية لهم يسيرون على هداها في الانتفاع والكسب والادخار وسوء الاستغلال المباشر والمداور .

ولا ينكر ان البلاد الاخرى من غربية وشرقية لا تخلو من مثل هـذه الحالة المريرة ، وان كثيراً ما يكون فيها فضائح داوية من هذا القبيل . غير أن الفرق هو ان ما هو نادر وآحادي في الغرب كثير ويكاد يكون مألوفاً عندنا مما جلب علينا اسوأ الاحدوثة وأبشع التهم وجعلنا مضرباً للامثال .

يضاف إلى هـــذا ما تعود ان يلقاه الذين يتولون الحكم والمناصب العليا في بلادنا من تعظيم وتفخيم وتزلف بحيث يشعرهم هذا انهم غدوا فوق البشر فيغترون ويشمخون بانوفهم . ويضاف اليه ايضاً اعتبار كثير من الذين يتولون الحكم ان الدولة مزرعة لهم ولهم الحق في إدارتها والتصرف فيها تصرف صاحب المزرعـــة

بزرعته ، فيملأون دوائرها بالاقارب والانسباء والاصدقاء والاخصاء او يختصونهم بما يعود عليهم منه المكاسب والمنافع مباشرة ومداورة . وليس من النادر ان تقرأ في الصحف خبر قيام مشروع من مشاريع الري أو الطرق أو المعابر او الاستملاك او المناقصات أو المزايدات أو المقاولات أو خبر صدور قرارات مانحة أو مانعة ثم يسفر الامر عن ان هذا قد جرى لخدمة الاقرباء والانسباء والاصدقاء والاخصاء ..

وهذا ما يجعل الذين يتولون الحكم في بلادنا يتهالكون على الكراسي ويحللون الحرام ويحرمون الحلال ويناقضون انفسهم ويخلفون وعودهم ويحنثون بايمانهم في سبيل الاحتفاظ بها وإذا اضطر بعضهم الى تركها قهراً فانه لا يتوانى لحظة واحدة في استهداف العودة والعمل لها بكل قوة ووسيلة وصفة . .

وقد يصدر عن بعضهم اعمال نافعة ومشاريع صالحة فتراهم يملأون الدنيا تطبيلا وتزميراً ومناً كأنما فعلوا معجزة الدهر وأتوا بعجيبة العجائب .

- ٦ -

الاقطاعية المالية الاسروية واثرها

وتلعب الاقطاعية الاسروية والمالية دوراً كبيراً في هذا المجال ، حيث كثيراً ما تكون صاحبة الشأن والمرشحة في الدرجة الاولى للحكم بسبب ما يكون اصحابها عليه من المـــال والجاه والنفوذ والانصار . وهكذا يقوم على الحكم في ظروف كثيرة اناس متخمون مترفون قلما يشعرون بآلام الشعب ومشاكله ومتاعبه الاقتصادية والاجتماعية ، ويكون كل همهم الاحتفاظ باقطاعيتهم ومصالحهم الخاصة وتوطيدها والدفـــاع عنها والتفنن في أساليب استغلال الحكم لانفسهم وذويهم وأنصارهم وأخصائهم .

- ٧ -

الشعور عام ضد الاستغلال وضعف اثره

ومع ان هناك شعوراً قوياً بما في هـذه الحالة من شذوذ وضرر وخطر ، وان الاصوات ترتفع من حين لحـين بوجوب معالجتها من شتى نواحيها الا ان هذا ما يزال اضعف من ان يؤدي إلى نتائج ايجابية قوية من شأنها تبديل الحالة تبديلاً كبيراً .

فمنذ سنوات والالسنة تردد في مصر والعراق وسورية ولبنان مثـــلا وجوب وضع قانون « من أين لك هذا » بالنسبة الذين تولوا مناصب الدولة ووظائفهـــا ويتولونها الآن وبعد الآن بسبب ما هو مشاهد ملموس من آثار سوء استغلال هذه المناصب والوظائف والاملاك الواسعة والأموال الطائلة التي يحرزها بعضهم والحياة المترفة بل السفيهة التي يحيونهـــا والتي لم تكن لهم قبل دون ان يكون اثر ايجابي جدي لهذا الترديد حيث لا يلبث الصوت ان يخفت والموضوع ان يطوى والمشاريع القانونية ان تهمل . ولا يتورع بعضهم عن الدفاع عن هذا الاهمال بأن مثل هـذه التشريعات ستكون وسائل للاحقاد والضغائن والعداء والانتقام ونشر الفضائح مما يكون اثمه اكبر من نفعه، بل ومنهم من قال إن وضع مثل هذا القانون للموظفين فقط ظلم وإنه إذا كان يجب ان يوضع فانه يجب ان يكون لجميع الناس بحيث يمكن ان يسأل كل فرد من الامة « من أين لك هذا » لأن هناك من يثري بالغش وبالغبن الفاحش وبالتلاعب في الأسواق وبالرشوة الخ مما فيه مفارقة ظاهرة كل القصد منها تعطيل المشروع واسكات الصوت المرتفع من اجله ؛ ومنهم من اعترض على شمول القانون ما قبله مما جعل بعضهم يصف الاعتراض بانه بمثابة الحكم بالاعدام على الفكرة (١)

وكثيراً ما يقرأ الناس ويسمعون عن فضائح وسرقات ورشوات وصفقات تنسب الى بعض الذين يتولون مناصب الدولة وعن تحقيقات تجري في صددها حتى ليوشك المرء ان يظن الجد في الأمر وان الجناة لن يلبثوا إن تمسك يد الحق والعدل بخناقهم، ثم ينجلي الجو عن لا شيء حيث تكون الأيدي الكبيرة النافذة قد تدخلت فطمست المعالم واخفقت الدلائل ووهنت الشهادات وبدلت التقارير الخ .

وإذا ادين موظف في بعض الأحيان بمثل هذه التهم فانه يكون في الأغلب من

---

(١) بعد كتابة ما تقدم وافق البرلمان المصري على قانون « الكسب غـير المشروع » وجعله رجعياً بعد ان كانت النية عدم جعله كذلك . وكان هذا غداة الموافقة عـلى مشاريع الغاء المعاهدة واعلان وحدة مصر والسودان . وهكذا سبقت مصر البلاد العربية في تحقيق هذه الفكرة العظيمة والحاجة الملحة ، وسجلت حكومة الوفد لنفسها فخراً عظيما ووضعت اساساً من اسس حماية الشعب والدولة ومصالحها من استغلال المستغلين وتلاعب الايدى القذرة . وقد وجب ان تشتد الدعوة في البلاد العربية الى الاقتداء بمصر في هذه الخطوة باسرع ما يمكن اولا والى الحيلولة دون بقاء هـــذا القانون حبراً على ورق ثانياً .

الصغار الذين لا سند لهم ولا جاه والذين يكونون في الاكثر ضحيـــة من ضحايا الكبار ، وقد لا يتعدى ما دخل في ذممهم العشرات وقد يكون الجوع هو الذي ساقهم الى فعلتهم .

- ٨ -

مشاهد المعارك الانتخابية واهدافها

وفي كل معركة انتخابية نيابية تجري في بلادنا تبذل الاموال الطائلة حتى ليقدر ما يبذل احياناً فيها وخاصة في مصر بملايين عديدة من الجنيهات وحتى ليبذل المرشح ثلاثة او اربعة اضعاف جميع ما سوف يتقاضاه من مرتب النيابة طيلة مدتها، وليس لهذا الا تفسير واحد وهو حرص الاقطاعية الأسروية والمالية على اشغال مناصب الدولة وكراسي الحكم واطمئنانهـــا الى ان ما يعود عليها من ذلك سيكون اضعافاً مضاعفة .

مسخ الحياة النيابية في بلادنا

وقـــد غدت الحياة النيابية في بلادنا بسبب ذلك مسخاً مشوهاً لا يكاد يعدو نصيبنا منها المظاهر والشكليات واشباع رغبة الكلام . والحكومات التي تشرف على الانتخابات النيابية تتدخل في الاعم الأغلب فيها وتوجهها الى حزبها الى جانب الدور العظيم الذي يلعبه المال فيها كما قلنا . ويغدو كثير من النواب لا يهمهم الا ضمان مصالحهم واسترداد ما بذلوه من مال وجهد اضعافاً مضاعفة فيتزلفون من اجل ذلك الى الحكومة القائمة مهما كان لونها فيمنحونها الثقة مقابل ما تقضيه لهم من مطالب ورغبات خاصة . وهكذا تضمن الحكومات استمرارها في الكراسي بالتواطؤ مع النواب . ولم يكد يسجل في حقبة ربع القرن الذي استمرت فيه هذه الحياة ان اسقط مجلس نيابي حكومة ما مهما كان لونها بسبب هذا التواطؤ .

وجوب اشتداد الدعوة ضد هذه الامور الشائنة

فالواجب يقضي ان تشتد الدعوة بل الحرب ضد هذه الامور والمظاهر السيئة خلقياً واجتماعياً والضارة بمصالح الأمة وروحها وسمعتها وكيانها ومستقبلها . وعلى الشباب والمنظمات القومية ان تضطلع بعبء هذه الدعوة بكل قوة وشدة ووسيلة واستمرار ، وان تثير نقمة الامة عليها وتوجه نحوها وعيها حتى تخف ثم تزول . فقدآن للامة ان تتخلص من هذه الاقطاعية المستغلة التي لا يهمها الا ان تتخم بالمال وتبطر بالبذخ وتتفنن في وسائل الترف بمال ليس هو في الحقيقة الا عرقها ودمها وجهدها . وقد آن ليد الحق والعدل والانتقام ان تبطش بكل من يخون ما اؤتمن عليه من مال الدولة ومناصبها بكل شدة وقوة . وقد آن للقضاء والامة ان تسأل كل من يبذخ ويثري ويحيا حياة برمكية ويقتني العقار والقصور ممن تولوا الحكم ومناصب الدولة والنيابة سابقاً ويتولونها اليوم وبعد اليوم « من اين لكم هذا » وان تصادر اموال الذين لا يبرهنون على إثرائهم بالطرق المشروعة واملاكهم وقصورهم وحليهم وان تتهرأ في السجون ظهورهم وجنوبهم . وقد آن للمال ان يقف عند حده المحدود فلا يكون هو الناظم الأقوى للانتخابات والمناصب . وقد آن للكفاآت الشخصية والمباديء ان تشغل الحيز كله في مجالات الحكم والنيابة والأعمال العامة . وكل هذا كفيل به الدعوة القوية الداوية والمستمرة .

الفصل الرابع عشر

الاحزاب في بلادنا ومآخذها وعلاجها

- ١ -

أثر الاعتبارات الشخصية في احزابنا

كذلك مما آن له ان يعالج معالجة شافية وايجابية مسائل الاحزاب والتكتلات السياسية فبينما نجد «الفكرة» هي الناظمة لأحزاب البلاد المتحضرة نجد الاعتبارات الشخصية هي الناظمة لها في بلادنا في الأعم الأغلب مما هو سر كثرة الاحزاب عندنا مع تماثلها وتقاربها وسر ما ترتكس فيه من ارتكاسات متنوعة الأشكال .

فأكثر الأحزاب والكتل السياسية التي نشأت في بلادنا متقاربة في المباديء والمناهج والأساليب ، والمميز لها هو اشخاص القائمين. وكثيراً ما نشأت الاحزاب عندنا كأنشقاقات عن الهيئة الاولى التي حملت لواء النضال الوطني بتأثير الاعتبارات الشخصية وحدها او على الأقل بتأثيرها في الدرجة الاولى كما كان شأن حزب الاحرار الدستوريين والحزب السعدي وحزب الكتلة الوفدية في مصر التي كان القائمون بها مندمجين في الوفد ثم انسحبوا منه او اخرجوا منه لاعتبارات شخصية . ومن هذا القبيل الحزب الوطني الفلسطيني الذي قام سنة ١٩٢٢ والذي كان كثير من القائمين به من جماعة المؤتمرات واللجان التنفيذية ، وحزب الشعب السوري الذي كان رجاله البارزون الذين قاموا به اعضاء في الكتلة الوطنية الخ .

وبعض هذه الانشقاقات كانت تتأتى عن انفقاد التمازج والتجانس بين فريق وفريق ممن هم مندمجون في الهيئة الأم كما كان شأن احزاب فلسطين الخمسة التي نشأت في سنة ١٩٣٢ وبعدها على ما ذكرناه في الجزء الثالث من هذه السلسلة كما كان بعضها يتأتى بسبب ما كان يبدو من زعيم الكتلة او الهيئة الأم من رغبة في التحكم والاملاء او انسياق بتيار الهوى والانانية والمصلحة الخاصة فيسوق هذا بعض الافوياء الى الانسحاب ضنا بكرامتهم وشخصيتهم مما مرده على كل حال الاعتبارات الشخصية .

وهناك احزاب نشأت في فورة من فورات النشاط الوطني والسياسي محدودة الاشخاص . والدافع الأقوى في نشأتها الرغبة في اثبات وجود الاشخاص الذين أنشأوها - وغالبا ما يكونون من الاقطاعيين والطامحين - والدفاع عن مصالحهم واعتباراتهم الشخصية .

وحتى الاحزاب الناشئة التي يبدو عليها من حيث التسمية والمنهج انها قامت على فكرة ودعوة معينة سواء اكان ذلك في مجال المبادىء والنظم الاقتصادية أم الاجتماعية فان كثيراً منها متماثل في الخطط والاساليب بل وفي التسمية كما ان الشخصية فيها بارزة بروزاً قويا حتى لتكاد تكون الفكرة قد جعلت وسيلة او تكأة لقيامها بحيث تكون جهود الحزب ونشاطه وقوته منوطة بالشخص او الاشخاص البارزين الذين انشأوه وبحيث يكاد يكون هدف هذه الجهود والنشاط هو بروز هذا الشخص او الاشخاص ، واذا كان منها من اهتم للتشكيلات وانشاء الفروع وإكثار المنتسبين فقلما كان ذلك بسبيل بث الفكرة والدعوة اليها بدليل عدم تردد اصداء قوية لذلك وعدم ظهور آثار قوية منها على المنتسبين .

والاحزاب التي قامت على دعوة او فكرة وتوخت العمل القومي او السياسي او الاجتماعي لذاته قليلة جداً ، وقد ظلت ضيقة النطاق محدودة النشاط لانه يعوز القائمين بها الايمان والاستغراق والمطمح الأعلى ، وقل ان سلمت مع ذلك من تأثير الشخصية واعتباراتها .

- ٢ -

مقابلة بين نظرتنا ونظرة الغرب في موضوع الاحزاب

ونحن إذ ننتقد ان تكون الاعتبارات الشخصيـــة ناظمة لاحزابنا لا نعني اننا ننكر اثر الشخصية وقوتها في نجاح الحركة العامة ومنها التكتلات والجهود الحزبية في بلاد الغرب ايضاً ، غـــير ان الفكرة والمبادىء وقصد التضامن فيها وتنظيم الجهود والاساليب في سبيل تحقيقها هي التي تكون ناظمة لهذه التكتلات في تلك البلاد في الدرجة الاولى ، فاذا كان القائمون بها ذوي شخصيات قوية قويت دعوة الحزب ومبادئه واصابت النجاح ، وهو امر مستحسن ومفيد بطبيعـــة الحال . واحزاب الغرب تظل سائرة في جهودها ونشاطها ودعوتها على كل حال سواء أكان

القائمون على رأسها اقوياء الشخصية ام عاديين بعكس الحال عندنا حيث لا يلبث الحزب ان يتلاشى حينما يفقد رجله او رجاله البارزين الذين قاموا به لان الشخص والاعتبارات الشخصية هي مادة الحزب الاولى او الرئيسية .

وبسبب هذا وذاك يكون المنتمون للحزب في بلاد الغرب ممن هم قانعون بالفكرة والمنهج ومندمجون فيها سواء جمعتهم مع رجال الحزب البارزين او مديري دفته جامعة من معرفة او صداقة او زمالة او تجانس اخلاقي او روحي او سلوكي او ديني ام لم تجمعهم بينما يكون الانتماء للاحزاب عندنا رهناً بهذه الجامعة قبل كل شيء بل رهنا بها وحسب في اغلب الاحيان . وكثيراً ما وقع ان انسحب عدد كبير من حزب حينما ينسحب الشخص البارز الذي يمتون اليـــه بسبب من تلك الاسباب كما ان كثيراً ما وقع ان ينتسب عدد كبير الى حزب حينما ينتمي اليه الشخص البارز الذي يمتون اليه بسبب منها .

وبسبب هذا وذاك ايضاً لا يقوم هذا العداء الشديد والكيد العنيد واستباحة الاذى والعدوان الشخصي بـــين الاحزاب في الغرب كما يقوم عندنا ، ولا تقوم المعارضة ضد الحزب الاقوى والحاكم على اساس الاعتبارات الشخصية وفكرة التهديم بوحيها ، كما ان الحزب الحاكم والاقوى لا يعتبر المعارضة عدواً يجب تحطيمه وسد المنافذ عليه .

- ٣ -

ما عاد على بلادنا من اضرار بسبب المكايدات الحزبية

والمستعرض لظروف الحركات السياسية والنضالية وحركات الاحزاب ونشوئها وانشقاقاتها في بلادنا يرى انه قد عاد من هذه الانشقاقات والتعدد وما نشأ عنها من مكايدات على القضايا القومية افدح الاضرار، وان ما منيت به الجهود السياسية والنضالية في سبيل هذه القضايا من إخفاق وعدم جدوى وعدم انتفاع بما كان من روائع البطولة وجسيم التضحيات التي كان يبديها الشعب حينما تتقد حماسته ، ومـا كان من تمكن المستعمر من الاحتفاظ بمركزه وسيطرته ونفوذ دسائسه ومكائـده ونجاحه في تفريق الصفوف وإضاعة ثمرات الجهاد والضحايا كل ذلك يكاد يكون بسبب ما كان من مكايدات الاحزاب وتجاذبها وتدافعها وانانية القائمين بها واعتباراتهم

الشخصية ، وهـذا فضلاً عما كان يرتكس فيـه جماعات الاحزاب وصحافتها من ارتكاسات ترخص فيها الاعراض وتختل فيها موازين الاخلاق وتهون فيها الكرامات وتسود فيها الصفحات ويبدو فيها من كريه المشاهد وبشع المناظر وشديد العداء والجفاء والقطيعة والاذى بين ابناء البلد الواحد بل بين ابناء الاسرة الواحدة مما لا يدخل تحت اي ضابط من عقل ومنطق وخلق وكرامـة وصدق وامانـة شفاء لحزازات النفوس وسخائم الصدور وتأثراً بالاهواء والاعتبارات والمصالح الخاصة مما كان منه صور اليمة جداً في مصر وسورية وفلسطين والعراق ولبنان .

وتبعاً لذلك اصبح الوصول الى الحكم لاجل الحكم نفسه هو الهـدف الاول لجهود هذه الاحزاب ونشاطها وتنافسها ، وقل ان توخت في تشكيلاتها ايقاظ الشعب وتنويره وتنظيمه و إصلاح شؤونه ، و إذا ما كان لحزب ما فرصة في التوسع في التشكيلات والنفوذ الى الشعب بسبب موقف من مواقف او ظرف من الظروف او بسبب نشاط القائمين عليه ومطامحهم فيكون كل همه استغلال الفرصة ضد الحزب الآخر او الحكم القائم حتى إذا استلم الحكم نسي جل ما كتبه في منهجه من مبادىء وخطط وما وعد به من وعود طويلة عريضة وما كان ينعيه على الحزب الحاكم من عيوب واخطاء ويستثير حقد الناس وسخطهم عليه ، وتمكين الانصار والاخصاء من ذلك ، واتخذت الاحزاب الاخرى خطة التربص والتجريح والتشهير والطعن واللمز واغداق الوعود واستغلال الفرص حتى إذا آل الحكم لواحد منها سلك نفس الطريق الذي سلكه من قبله ...

وقلما وجه نقد للحزب القوي او الحاكم في بلادنا بنية حسنة وبقصد الاصلاح والتقويم من جانب الاحزاب الاخرى ، وقلما قابل الحزب القوي او الحاكم نقداً او معارضة ضده بصدر واسع ايضاً ، وقلما اعترف حزب معارض بما قد يصدر عن الحزب الاقوى او الحاكم من اعمال ومواقف ومشاريع فيها نفع ومصلحة وخير . والشعور الاقوى بين احزابنا يتمثل في كون الحزب المعارض عدواً للحزب الحاكم او الاقوى يتربص به الدوائر ويثير ضده الكراهية ويبذل جهوده في هدمه للنكاية وشفاء النفس وفي كون الحزب الاقوى والحاكم ينظر الى الحزب او الاحزاب المعارضة بنفس النظر فلا يرعوي عن اضطهاده وتجريحه ونشر الدعايات والمطاعن والمغامز

ضده وسد المنافذ عليه وتعطيل مصالحه .. وكثيراً ما اندمجت الاسر والحمولات برمتها في هذه العواطف العدائية المتقابلة او اثيرت الاسر والحمولات برمتها وحملت على الاندماج فيها وغدا الامر بين جماعات الاحزاب عصبية قبلية جاهلية يستباح بتأثيرها وفي ظلهـــا ما لا يجوز من مال وعرض وملك ومصالح بل ودماء وظلم وعدوان وتزوير .. لان الاعتبارات الشخصيـــة هي المؤثرة الاولى في الاحزاب والناظمة لها .

- ٤ -

واجب الشباب في معالجة هذه المعايب

وقد يكون كل ما ذكرناه عن حالة الاحزاب ورجالها وناظمها عندنا مظهراً من مظاهر ما نحن عليه من ضعف البنية الاخلاقية والاجتماعية والثقافيـــة والسياسية وما لا نزال نحياه من حياة العصبية القبلية او ما في مثابتها . غير ان هذا لا يجوز ان يستمر بطبيعة الحال . والشباب هم المرشحون كذلك لاصلاح هذه الحالة لانهم أقل استغراقاً وارتكاساً ورسوخاً في تلك الحياة بطبيعة سنهم ، وقد كثر المتعلمون منهم كثرة عظيمة وغدا امكان الانسجام بينهم وتسويد المصالح العامة على الاعتبارات الشخصية اكثر ، فواجبهم القومي يقضي عليهم بأن يجعلوا الفكرة والمناهج هي الناظمة الاولى والرئيسية فيما دعوناهم اليه من التكتل والتشكل سواء في المجال القومي السياسي او غيره من المجالات الاجتماعية والثقافية والاصلاحية المتنوعة ، وان يكون قصد التشكيل هو تنظيم الجهود والاساليب في سبيل تحقيق الفكرة والمنهج .

ولقد نبهنا في مكان آخر الى ما نحن في اشد الحاجة اليه من التنظيم والتركيز والتوجيه ، وهذا الواجب يشتد خطورة بدرجة شدة الحاجة بطبيعة الحال ، وسيظل نجاح الشباب في مهمتهم العظمى منوطاً الى درجة كبيرة بنجاحهم في التغلب على هذه النقائص والمعايب . فعليهم ان يقدموا على الاضطلاع بالعبء بايمـــان وقوة وجلد وتضحية و إدراك صحيح للمقصد واستغراق فيه .

- ٥ -

تنبيهات في سياق المعالجة

وهناك امور يجب التنبيه عليها في هذا المقام :

منها وجوب تفريغ بعض الناس للعمل الدائم في المراكز والفروع والاعمال

المهمة الاخرى وضمان مرتبات لهم تغنيهم عن التكسب . وهذه مسألة مهمة جداً في حياة التشكيلات . لان إناطة الاعمال المهمة بالتطويع تؤدي في الغالب الى الاهمال والتعطيل وفقدان الشعور بالمسؤولية او التهرب من العمل او ايكاله الى غير الاكفاء والمخلصين له ويقال هذا بالنسبة للمهام الموقتة والرحلات التي ينتدب اليها بعض الاعضاء لمقاصد العمل بحيث يجب ان تُضمن لهم نفقاتهم حتى يقوم بالمهمة القادرون عليها كفاءة واخلاصا لا ماليا والفرق عظيم كما لا يخفى .

ونحن نعرف ان هذا يحتاج الى المال . وقد بحثنا هذا الامر في مناسبة سابقة وانتهينا منه الى ان الذي يعوزنا في الدرجة الاولى هو إدراك المسؤولية والشعور بالواجب والاندماج فيه . فاذا توفر هذا وهو ما نعول على الشباب المثقف فيه وندعوهم اليه أمكن حل المسألة المالية . لان هناك منافذ كثيرة في حياة الشباب وغيرهم يتسرب منها المال الكثير الى ما لا فائدة منه ولا جدوى فيه بل والى ما فيه ضرر من كماليات وهويات ومحرمات .

منها وجوب الاكثار من الفروع بحيث تتغلغل في كل حي وقرية إذا امكن . ويجب ان يقام على شؤونها اناس متفرغون مخلصون للفكرة او الدعوة ليبذلوا جهودهم في البث والتنظيم .

ومنها وجوب الاهتمام لتهيئة ابنية دائمة للفروع حتى يتاح لاهل الحي او القرية فرصة الاجتماع والاستماع ، ويجب تزويدها بما يحبب الناس التردد عليها من وسائل التسلية البريئة . وهذه مسألة مهمة تكاد تكون اساسية في حياة التشكيلات . وقد اهتم لها حزب الشعب التركي فاختط خطة ايجاد ابنية لفروعه المنتشرة في كل مكان سماها « بيوت الشعب » وجعلها مباحة لجميع الناس وزودها بما يحبب التردد عليها ، ورسم لها خطة عمل ونشاط متنوعة المناحي من اجتماعية الى ثقافية الى صحية الى فنية الى خيريه الى قومية فنجحت الخطة وكان لها آثار بارزة .

ومنها وجوب التدقيق في امر الاشخاص وخاصة الرئيسيين والبارزين . فان التساهل في ضم الاشخاص الى التشكيلات قد ادى دائما في بلادنا الى فشل العمل الحزبي بمعناه الفكري والمنهجي، حيث وقع كثيراً ان انضم بسبب التساهل اشخاص الى تشكيلة ما ضعفاء في اخلاقهم ومبادئهم فاستغلوا التشكيلة لمصالحهم الخاصة ، ونشطوا في الدس والمكر في داخلها لضمان هذا الاستغلال ، او لم يعبأوا

بواجباتهم الحزبية من حيث احترام مبادىء التشكيلة وقراراتها والتطابق معها بجد وإخلاص وفي السراء والضراء .

وما ذكرناه من نتائج التساهـــل في انتماء الاشخاص يصح ايراده في نتائج التساهل معهم بعد الانتماء . فقد لا يكون ضعف اخلاق بعضهم ومبادئه معروفاً ثم يبدو هذا الضعف بعد الانتماء بشكل من الاشكال التي ذكرناها آنفاً . فالواجب ومصلحة التشكيلة وفكرة التربية الاجتماعية والسياسية كل هذا يقتضي الحزم في مثل هذه الحالات وعدم التساهل فيها . فبقاء مثل هؤلاء الاشخاص في داخـــل التشكيلة بأي عذر كان سيكون عاملاً تهديمياً لا بد من ان يعمل عمله كما انه سيكون قدوة سيئة لغيرهم وسمعة سيئة للتشكيلة ؛ وذلك فضلاً عما يكون من مجانبة الاخلاق ومقتضيات التربية السياسية والاجتماعية .

ومسألة اخرى نحسن ذكرها في هذا المقام وهي مسألة التمازج والانسجام. فان للتمازج والانسجام تأثيراً كبيراً في قوة التشكيلات وسيرها ونجاحها . وكثيراً ما رأينا ان عدم توطدهما بين أعضاء تشكيلة ما قد أضعفها وجعلها قليلة النفع والانتاج بما كثر في داخلها من المشاكسات والمناقضات والتشاد ، وان ذلك قد كان سببا لبعض الانشقاقات التي حدثت في تشكيلاتنا الحزبية .

وهذه المسألة وتلك قد تكونان مما هو خاص بنا وبأمثالنا الذين لا يزالون ضعفاء في بنيتهم وأخلاقهم وروحهم الاجتماعية والسياسية والثقافية وتمتان في الاغلب الى الاعتبارات الشخصية . ولا بد لنا على كل حال من مراعاتهما الى ان يزول ضعفنا ونغدو في طور تكون الفكرة والمنهج والواجب فوق كل اعتبار ويصبح الذوق الاجتماعي والثقافي والسياسي والروح الرياضية هي الناظمة لسلوكنا في تشكيلاتنا وفي اتصالاتنا العادية على السواء .

فيجب على القائمين بأمر التشكيلات ان يهتموا لانتقاء إخوانهم ممن عرفوا بالخلق القويم والنية الحسنة والرغبة في العمل المخلص ، وممن تشبعوا كذلك بروح المسالمة وحسن الانسجام والتمازج والذوق الاجتماعي والثقافي والروح الرياضية ولم يعرفوا بالمكر والمراوغة والافراط بالأنانية والمشاكسة واللجاج والمكابرة والعناد .

الزعامة وأثرها

ونقول والاسف يحز قلوبنـــا ان من اهم علل تشكيلاتنا الحزبية وحركاتنا الوطنية وتعثرها عدم ظهور الزعيم القوي العبقري المؤمن الى الآن في بلادنا الذي تؤهله مواهبه وايمانه وتجرده وتضحيته للقيادة وبث الايمان وإثارة القوى الكامنة في الشعب فيجعله يكنسح ما في طريقه من عقبات ويسير تحت لواء زعيمه في سبيل تحقيق اهداف الحركة العربية قدما حتى يبلغ الغاية .

ومسألة الزعيم في الامم وخاصة التي في مثل حالتنا حيوية جـداً لان الزعيم المؤمن الموهوب المتجرد يستطيع ان يهز الامة هزاً قوياً وان يكتشف قواها ووعيها ويوجهها في الوجهة الصالحـة كما يستطيع ان يختصر الزمن . وقـد رأينا ما فعل مصطفى كمال في تركية بعد ان خرجت من الحرب العالمية الاولى على أسوأ حال وامام اشد الاخطار فغدت امة عزيزة الجانب مخطوبة الود وقام فيها نهضة انقلابية عظمى في مختلف مجالات الحياة . وقد رأينا كذلك ما فعله غاندي في الهند من معجزة كبرى وهي قارة برأسها يجتمع فيها مئات الامارات والاجناس والاديان والنحل واللغات حيث استطاع ان يكون نبيها المعترف بـه من الجميع وحيث استطاع ان ينفخ الروح القوية التي ساعدت على خلاصها من براثن الأنكليز وغدوها دولة عظمى سوف تلعب عـلى مسرح العالم ادواراً كبيرة. وهـذا ما فعله جناح حيث استطاع بقوته الروحية ودأبه وتجرده ان ينجح في إقامة الدولة الأسلامية الكبرى «الباكستان» التي سوف تلعب هي الاخرى على مسرح العالم مثل تلك الادوار .

والمدقق في الزعماء العموميين او الزعماء الحزبيين الذين ظهروا في بلادنا يجـد لكل منهم عيوباً كانت من اسباب عدم نجاحهم ويجدهم الى هذا وسطاً في مواهبهم وقابلياتهم وعلومهم بل وايمانهم وحرارتهم واستغراقهم في مهمتهم ايضاً. واذا كانت الكفاءة العادية تغني في الظروف العادية فانها لا تكفي بالنسبة لامتنا التي تحتاج في يقظتها الى وثبـــات وقفزات عظمى وتحتاج بالتالي الى كفاآت خارقة تساعدها على ذلك .

وليس في اليد حيلة في هذا الامر ، لان الزعامة لا تصنع ولا تنتخب وانما هي

موهبة خاصة ، على ان التشجيع والانسجام قـــد يفيدان كثيراً في ظهورها في الاشخاص الذين تبدو فيهم بعض صفاتها كالاقدام والجهد وقوة العارضة والاقناع والخطابة وسعة الافق والصدر والمطامح . فعلى المخلصين الذين يحبون وطنهم وامتهم ويألمون لحالتها ويودون ان يتخلصا منها الى حالة اقوى وافضل واسعد من شباب وغير شباب ان يتجردوا وان يتضامنوا في هـــذا الامر لعل تجردهم وتضامنهم وتشجيعهم وانسجامهم يهيء الجو لبروز الزعيم المنشود فيهم واستلامه للراية والسير تحتها قدماً .

- ٧ -

ضرر كثرة الاحزاب

ولقد قلنا ان الاعتبارات الشخصية هي التي ادت الى تعدد الاحزاب في بلادنا على تشاكلها وتقاربها في المبادىء والاهداف والخطط بل التسمية . فاذا ما امكن للشباب ان يتغلبوا على هذه الاعتبارات وان يجعلوا القصد تنظيم الجهود والاساليب في سبيل تحقيق الفكرة والهدف صار من الممكن ان لا يكون ذلك التعدد. فليس لكثرة الاحزاب فائدة قومية وخاصة إذا ما كانت متشاكلة بل هي ادعى الى احداث البلبلة والتشويش والارتباك وهدر الجهود والقوى ، فعلى الجماعات التي تتقارب في مبادئها وعقائدها وميولها والحالة هذه ان تضحي ببعض الاعتبارات والتفصيلات فتكوّن كتلا قوية وكبيرة فتضمن حينئذ النجاح لدعوتها وجهودها .

ونذكر على سبيل المثال بعض الافكار التي يمكن ان تقوم الاحزاب عليها في بلادنا .

ففي الدنيا فكرتان متنازعتان احداهما الاشتراكية على اختلاف مداها وثانيتها الفردية الاقتصادية او الحرية الفردية الاقتصادية ، ولكل منها انصار مؤيـــدون ومستندات واقعية ونظرية. فليس من مانع من ان يكون في البلاد العربية حزب اشتراكي وآخر حر اقتصادي فيكون الفرق بارزاً ومفهوماً بين هذين الحزبين فيؤيدهما الناس بالانتماء والتعضيد عن علم وبينة .

ومها يكن مفهوما من ان مسائل العامل والفلاح والاصلاح الاجتماعي مما تتناوله

مناهج هـذين الحزبين وخاصة الحزب الاشتراكي فان حالة العامل والفلاح وضعف المنشآت الاجتماعية مع شدة الحاجة اليها في بلادنا تتحمل ولو لامد محدود ان يكون لكل منها حزب يتفرغ لها ويبذل جهوده في سبيلها .

وبالنسبة لدنيا العرب هناك فكرة الوحدة الشاملة ووحدة الدولة وفكرة الاتحاد مع تعدد الدول . فلا مانع من ان يكون لكل من يقول باحدى الفكرتين كتلة حزبية خاصة .

وهناك فكرة وجوب توطيد الحياة النيابية على اوسع مداهـا كما ان هناك فكرة الاقتصاد في ذلك بحيث يكون للسلطات التنفيذية صلاحيات واسعة بعض الشيء . فلا مانع من ان يكون لكل من يقول باحدى الفكرتين كتلة خاصة حزبية كذلك .

وننبه على اننا شخصياً لا نؤيد الحرية الاقتصادية الفردية . على اطلاقها كما اننا لا نؤيد فكرة الحياة النيابية على اوسع غاياتها لمدة محدودة من الزمن على الاقل . ونعتقد أن الحياة النيابية المحدودة التي تسمح للحكومات بصلاحيات واسعة هي الافضل الآن بسبب حاجة البلاد العربية الى الاستقرار الداخلي والاسراع في الخطوات الاعدادية والاصلاحية والتجديدية ثم بسبب ما يرى من مشاهد الانتخابات النيابية والمجالس النيابية الأليمة التي ذكرنا شيئاً منها قبل قليل والتي لم تعد تلك الحياة عندنا بها إلا تقليداً مسيخاً ومشوهاً . وهذا فضلاً عن ان هذه الحياة على اوسع مداها لم تنجح في غير السكسونيين نجاحاً تاما حيث غدت مع القرون الطويلة التي ما رسوها خلالها منسجمة فيهم انسجاما عجيبا . أما الامم الاخرى وخاصة الامم اللاتينية وما يدخل في مداها فما تزال تتعثر فيها ولا تجني منها الفوائد المرضية . فاذا امكن ان يكون نظام يجمع بين حق رقابة الامة على السلطة الاجرائية وحق هذه السلطة في صلاحيات واسعة لا تقيدها اشكالات وشكليات الحياة النيابية كان هو الخير . ومن ناحية النظام الاقتصادي فالذي نعتقده ان الاشتراكية المعتدلة الوطنية هي خير المناهج ، ونعني بها التي تهدف الى ازالة الفروق العظيمة بين الناس في الثروة والملك والمراتب الاجتماعية والاستمتاع بنعم الله في كونه على التساوي ، والمساواة التامة الفعلية في الحقوق والواجبات العامة ، وسيطرة الدولة على المرافق

والمنشآت العامة التي لها مساس بمصالح الجمهور وحياته ، والحيلولة دون استغلال العمال والفلاحين واضطهادهم وارهاقهم، وتوفير العلم والصحة والحياة المعقولة لكل الطبقات بما هو من تلقينات القرآن وملهماته ، ومما نعتقد انه العلاج الذي يمكن ان تستقر البشرية بـــه وتقر عينها بالهدوء والرضاء . ومهما ساق اصحاب النظرية الاقتصادية الحرة من حجج فلن يستطيعوا ان يقنعوا احداً بصواب نظريتهم لانها تصطدم مع حقيقة الواقع من كونها تؤدي الى تجمع الثروة في يد فئات قليلة ، وبقاء السواد الاعظم من الامة مستغلاً وفي حالة الفقر وما يتبعه مهما اختلف مدى هذه الحالة . وإذا كنا نرى حياة العامل والفلاح حسنة ومستواهما مرتفعاً وقد نالا عناية كبيرة من الحكومات واصحاب الاعمال في الظروف الاخيرة فان الذي نعتقده ان ذلك إنما هو استجابة بوجه ما الى الدعوة الاشتراكية او الرغبة في تفاديها وليس ذلك اصيلاً في طبيعة هذه النظرية .

وقد قيدنا الاشتراكية التي نفضلها بالمعتدلة الوطنية احترازاً مما توسوس بـــه الشيوعية من التنكر للكرامة القومية والمصلحة القومية والتقاليد القومية ، ومن محاربة الملكية والحيازة والادخار والتوارث ، ومن تسخير الفرد تسخيراً شديداً، حيث نرى في هذا كله محاولة غير مجدية لتعديل طبائع او بالاحرى غرائز بشرية ، واهدار للقوى والمواهب بدون ضرورة ولا مبرر ؛ كما اننا نراه غير متفق الى هذا مع ملهماتنا الروحية والقومية . واكره ما نكرهه في هذه الاشتراكية الشيوعية انها دعوة اجنبية وان الذين يندمجون فيها من العرب وغير العرب ينسلخون من قوميتهم وما تستلزمه من مقتضيات ويسيرون بوحي موسكو سلبا وايجاباً سيراً أعمى دون ترو ولا تدقيق، ومهما كان في هذا الوحي من مفارقات ومغالطات ومناقضات.



تصحيح الاغلاط المطبعية المهمة

صحيفة	سطر	الخطأ	الصواب
٦	٩	جبهة	جهة
١١	٢٢	يضعف	لضعف
٤١	١١	يمكن	لا يمكن
٤١	٢١	تقتطعها	تقتلعها
٥٠	٢١	تحفظ	تخط
٥٥	١	غريباً	غر بياً
٦٦	١١	هنا	هذا
٧٩	١٨	استغنيت	استغيث
٨٦	٢	إبرازه	إيراده
٩٣	٨	بعد ان قد استعدت	بعد ان تكون قد استعدت
١٠٢	٢٣	يتهجمون كل التهجم	يتجهمون كل التجهم
١٢١	٢٠	ذائيمون	دائميون
١٢٢	٢٠	فقد خلت	فتدخلت
١٢٢	٢١	مرفأ	مصرفاً
١٢٢	٢٢	المصانع تشترك	ألمصانع التي تشترك
١٢٨	٢٤	وان تمنح	وان لا تمنح
١٢٩	٢٥	المريئة	المرئية
١٣٧	١٩	واخفقت	واخفت



كتب المؤلف الاخرى

الكتب المطبوعة

دروس في فن التربية	مترجم عن الافرنسية
مختصر تاريخ العرب والاسلام	جزآن
دروس التاريخ العربي	
دروس التاريخ القديم	
دروس التاريخ المتوسط والحديث	
تركيه الحديثة	
موجز تاريخ حلول اوروبا في الشرق العربي	مترجم عن التركية والافرنسية
عصر النبي عليه السلام وبيئته من القرآن	
سيرة الرسول عليه السلام » »	جزآن
القرآن والمرأة	
القرآن واليهود	
الاجزاء الاول والثاني والثالث والرابع والخامس	حول الحركة العربية

الكتب التي تحت الطبع والاعداد

نظم القرآن ودستوره في شؤون الحياة

القرآن المجيد تنزيله واسلوبه وتدوينه وتفسيره ومختلف مسائله الاخرى

التفسير الحديث للقرآن

حول تاريخ الجنس العربي وموجاته ومآثره في القرون الاولى والوسطى